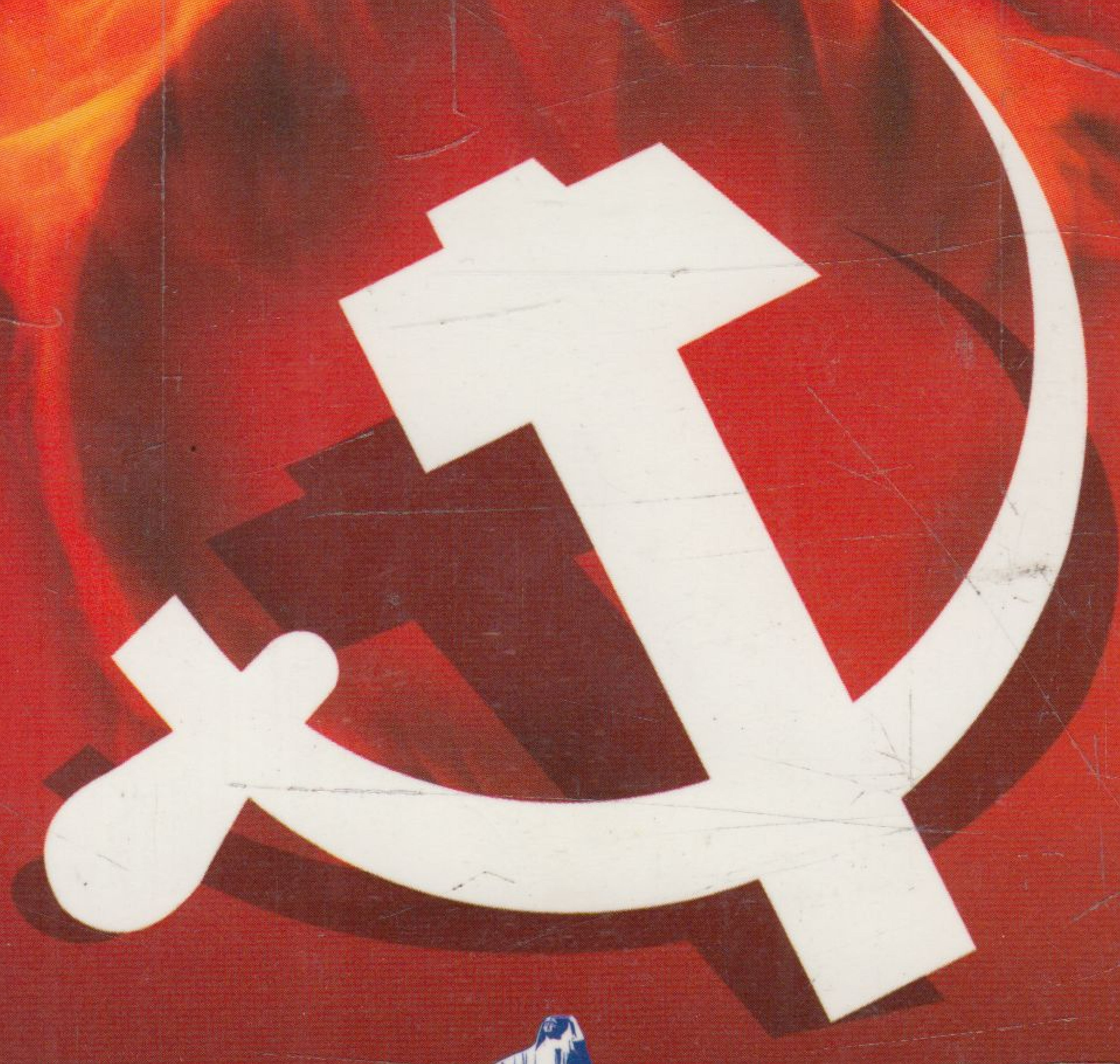
ما بعد الشيوعية

الدين و الثروة و القومية فى زمن التحولات

د. عاطف معتمد عبد الحميد





ما بعد الشيوعية

الدين والثروة والقومية فى زمن التحولات

د.عاطف معتمد عبد الحميد



اســم الكتــاب: مـا بعد الشيوعية.. الدين والثروة والقومية فى زمن التحولات.

الــمـــؤلـــف: د. عاطف معتمد عبدالحميد.

إشــراف عـــام: داليا محمـــــد إبراهـيم.

تـاريــخ النشــر: الطبعة الأولى- يناير 2007م.

رقـــم الإيـداع: 2006 / 24293

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3858-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فـاكـس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مـركـز التوزيع الرئيسـى: 18 ش كامـل صدقـى - الفجـالـة -
القـاهـرة - ص. ب: 96 الفجـالـة - القـاهـرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فـاكـس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السـلام عـارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيـع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

مقدمة

قبل أكثر من ١٥ عامًا فوجئ العالم بموت الشيوعية دون مقدمات بـ «السكتة الدماغية» فيما عُدَّ انتصارًا للقيم الرأسمالية والنهج الليبرالى ونهاية للتاريخ. وقد ساهمت فترة الارتباك والتخبط التى عاشتها روسيا والدول المتفككة عن النظام الشيوعى فى منح ذلك الاعتقاد شرعية مرحلية.

لقد بدت الأحداث المتواترة خلال العقد الأول من انهيار الشيوعية جد مفجعة، حين صارت روسيا وأوكرانيا ودول شرق أوربا، العريقة فى حضاراتها وإسهامها الإنسانى، تُستدعى فى التقارير الإعلامية كمصدر لتجارة الجنس وتصدير الدعارة العالمية وفساد النظم الاجتماعية.

وبشكل درامى تحولت جمهوريات آسيا الوسطى من مركز للصادرات الزراعية والمعدنية ومحطة إطلاق المركبات الفضائية، وحاملة ميراث طريق الحرير العتيق، إلى أكبر موقع لتمرير المخدرات ومصدر رئيسى لاشتعال التوتر والحروب الأهلية، وسقطت بالمثل جمهوريات القوقاز الشيوعية سابقًا فى جحيم التطهير العرقى، وغدت موطنًا لحروب عرقية وتوترات حدودية ساخنة.

هكذا وجد ٢٨٠ مليون سوفيتى سابقًا، ٥٠ مليونًا منهم مسلمون، أنفسهم فى واقع يموج بالعنف والصدام، وتتربص بهم الأزمات الاقتصادية وقسوة عواصف التغيير.

انشغل العالم العربى فى ذات العام الذى انهارت فيه الشيوعية بسقوط ورقة التوت عن التماسك الهش للنظام العربى بُعيد غزو العراق للكويت، والتداعيات الكارثية التى أفضت فى النهاية إلى

سقوط بغداد عام ٢٠٠٣ تحت الاحتلال الأمريكي. لم ننتبه وسط ذلك الزحام إلى ما أصاب ورثة البيت السوفيتي، ولم نلتفت، في خضم ما ألم بنا، إلى التداعيات الخطيرة للتفرد الأمريكي واختفاء التوازن الأيديولوجي والسياسي والاقتصادي.

لقد سقط النظامان العربي والسوفيتي في أزمة هوية متوازية، اشتعلت فيها معركة الأفكار، وبددت جهود طائلة في العراق والاحتراب. قد يبدو ظاهريًا أن لكل تجربة مسارًا تاريخيًا مختلفًا، ومشارب عقائدية ورمزية متباينة، لكن حين نقترب من تجربة «ما بعد الشيوعية» سنجد بيننا وبينهم الكثير، ولنا أن نستفيد مما مر بهم من دروس، علّ ذلك يفيد فيما هو مقبل من تجارب.

اجتمعت في دول «ما بعد الشيوعية» كافة المتناقضات، ميراث الهيمنة الروسية القديمة وإغراء مغازلة أمريكية جديدة. وتجاور نظام اقتصادي تقليدي شبه صناعي مع سوق رأسمالية وشركات عابرة للقارات. والتحمت مبادئ عشائرية مغرمة بالسلطة والنفوذ مع حضور شكلي للأحزاب. أخذ معدل الفقر في التزايد، وطالت البطالة قطاعات أوسع من السكان، وسقط في مستنقع الإدمان المزيد. وفي مشاهد خلفية كانت الحركات الإسلامية المسلحة بين مدٍّ وجزر، وخيم الإفلاس العقائدي على الكثيرين، لقد بدت الهوية ذاتها في مهب الريح.

من هذه المشاهد المتداخلة تبدأ قصة الكتاب الذي أجد واجبًا أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنني أوليت فيه عناية بتغيرات الجغرافيا السياسية أكثر مما أوليت لبدائل الفكر الشيوعي كمنظومة فكرية مُسيِّرة للحياة، وهي القضية التي تستحق عملاً مستقلاً.

وقد آثرت أن أزود القارئ الكريم برصد متتابع للأحداث منذ لحظة انهيار الشيوعية إلى يوم خروج الكتاب للنور، مناقشًا ما جاد به الباحثون الروس والغربيون والعرب باختلاف مقاصدهم وتنوع مناهجهم، وسيجد الدارسون المعنيون بالموضوع فى هذا الكتاب عددًا كبيرًا من المصادر التى لا غنى عنها لمن رغب فى متابعة البحث فى قضايا التغيرات السياسية والحركات الإسلامية والقومية وتقييم الثروات الاقتصادية، فضلاً عن الصراعات الإقليمية والدولية.

وأود أن أعرب عن امتنانى بالجميل لبعض المواقع البحثية والإعلامية التى احتفت بنشر ومناقشة بعض من الأفكار الرئيسية التى سبقت التحضير لصدور هذا الكتاب، وبصفة خاصة الموقع الإلكترونى لقناة الجزيرة الفضائية (الجزيرة. نت)، وصحيفة الحياة، ومجلة السياسة الدولية، والموقع الإلكترونى الروسى «رصد التحليلات الخارجية»؛ الذى ترجم إلى قراء اللغة الروسية بعضًا مما نشرته فى المصادر العربية السابقة. كما أود أن أقدم كلمة شكر أخرى للقائمين على تحديث المراجع والدوريات العلمية فى مكتبة الجامعة الأمريكية فى القاهرة ومكتبة الملك فهد فى الرياض.

ولله الفضل من قبل ومن بعد،

عاطف عبد الحميد

القاهرة - يناير ٢٠٠٧

الفصل الأول
بين الجغرافيا والسياسة

«ليس فى قلبه رحمة من لم يأسف لسقوط الاتحاد السوفيتى، وليس فى رأسه عقل من يتمنى عودته من جديد!».

مقولة شعبية روسية.

لحظة الانهيار

حين انهار الاتحاد السوفيتي في ديسمبر من عام ١٩٩١ حسم لافروف تردده، لملم متاهته، وتغلب على آلامه، وكتب افتتاحية دورية الجمعية الجغرافية قائلاً: «لا أكاد أصدق نفسي، ما الذى يسرى فى هذه الخريطة؟ هل سقطت كل المفاهيم التى عشت معها خلال خمسين السنة الماضية؟ ماذا عساى أن أفعل؟».

لم تكن استفسارات لافروف ، وهو آنذاك رئيس الجمعية الجغرافية الروسية ومفكرها الأشهر، إلا مراجعة لصدمة انهيار سبعة عقود من الثبات الجغرافى والاستقرار المكانى، فرياح التغيير التى هبت على أوراسيا ، ذلك الفضاء الجغرافى الذى تتداخل فيه قارتا أوربا وآسيا، لم تطح فى طريقها بالأفكار والمعتقدات فحسب، بل بالخرائط والأطالس السوفيتية فى آن.

كان لافروف قد اعتاد تجاوز الاتحاد السوفيتى لأزمات أكثر خطورة وأعقد تشابكًا. ألم يكن تاريخ الاتحاد السوفيتى سلسلة من التحديات؟ ألم تكتب الشيوعية نجاحًا فى كل اختبار تعرضت له؟ ألم تنتصر فى الحرب الأهلية، وأخرجت القوات الأجنبية التى احتلت أراضىَ روسية دعمًا للقيصر وأتباعه؟ ألم تتجاوز السوفيتية المجاعات الكبرى التى عاناها السكان فى الحرب الأهلية وفى الحرب العالمية الثانية؟

لا بل إن لافروف كان شاهد عيان على تجاوز السوفيتية مأزق الحرب الباردة، وحروب الفضاء، وسباق التسلح، وتنافسات شرسة فى العالم الثالث. لقد حقق الاتحاد السوفيتى أمام عينيه أكبر نهضة علمية وطبية فى تاريخ الإنسانية، مقارنة بأعدائه الرأسماليين. لقد

توسعت رقعة السوفيتية فى كل مكان، ومدت الأيدى للشعوب النامية بالسلاح والخبرات .

لم يكن لافروف مستعدًا لأن يصدق التوقعات التى طرحها المنظرون الغربيون والتى راهنت على أن الاتحاد السوفيتى قد عاش أطول مما يستحق، وحصل على عديد من «سلف» الحياة التى مدت فى عمره وأطالت بقاءه. ركن لافروف إلى تاريخ وطنه الذى عاش فى كنفه وتوقع أن يودع الحياة تاركًا إيَّاه فى أوج مجده.

بعد انهيار السوفيتية لم يعد لافروف قادرًا على التكيف مع الصدمات التى منيت بها الحياة العلمية فى الاتحاد السوفيتى. ففى مكتبه العتيق على نهر النيفا فى العاصمة الثقافية سان بطرسبرغ كان يتابع الصدمات المتوالية التى تصيب حياة الملايين أمثاله فى زمن اهتزت فيه كل المسلمات.

صحيح أن الشوارع فى سان بطرسبرغ صارت أكثر إضاءة، وأروع فى ألوان مراكزها التجارية، وتنوعت الوجبات الغربية فى مطاعم ومقاهٍ حملت أسماء غير روسية، وقدمت أصنافًا من الطعام أكثر دسمًا من «البورش» الأوكرانى، كما تعددت ألوان الثياب التى تزينت بها الطالبات فى الجامعات والطرقات، وصحيح أيضًا أن الإعلام صار يقدم من الموضوعات الحرة الجريئة ما لم يخطر على قلب شيوعى سابق، ونقلت إليه ما يجرى فى العالم أمام عينيه دون أدلجة أو تلوين ماركسى.

لكن لافروف لم تعد لديه الطاقة لتحمل كل هذا ، لقد خارت قواه وفارق الحياة بعد بضع سنين من انهيار الاتحاد السوفيتى، تاركًا جيلاً جديدًا من الشعب الروسى يشهد على مرحلة لا تقل خطورة فى تاريخ الأمم والأوطان، ألا وهى مرحلة التحولات.

لم يكن لافروف وحده الذى عاش تلك الصدمة وقضى على إثرها، فحتى فى قلب معسكر الأعداء لم يصدق الكثيرون أنفسهم. فالكتاب الذى دونه الرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون وصدر قبل ثلاث سنوات فقط من تفكك الاتحاد السوفيتى تحت عنوان «نصر بلا حرب» كان يتبع منهجًا تحفيزيًا للسياسة الأمريكية ويدعوها لتحضير نفسها لمنافسة شرسة على التسليح والتنافس الجيوسياسى والأيديولوجى بحلول عام ٢٠٠٠.

لقد راهن نيكسون على أن عمر الاتحاد السوفيتى لا يزال مديدًا، وقوته لا تزال فتية، ليس فقط للقدرات العسكرية، بل لأن أسس التنافس مازالت قوية عند المستوى الأيديولوجى الذى يمد يده شرقًا وغربًا، وللمكانة الاقتصادية، والتعليمية، والعمليات السرية التى تنفذها المخابرات السوفيتية؛ لذلك حذر من أن أى تقاعس فى المنافسة مع موسكو سيقدم للاتحاد السوفيتى نصرًا بلا حرب[1]. لم يكن نيكسون يتوقع أنه بعد صدور كتابه بثلاث سنوات سينهزم الاتحاد السوفيتى بلا معركة، ويخسر جولاته بلا مقارعة.

كانت لحظة الانهيار مفاجئة للجميع، حتى إن طاقم الفضاء الذى غادر قاعدة بيكانور فى كازاخستان منطلقًا إلى محطة الفضاء السوفيتية «مير» فى رحلة اعتيادية لمدة أربعة أشهر قد غادر الأرض فى يونيو عام ١٩٩١ تاركًا خلفه خريطة الأرض يتصدرها الاتحاد السوفيتى، لكنه حين عاد كانت هذه الخريطة تتفكك من كل اتجاه، وتدب فيها عوامل التمزق بما لم يكن متوقعًا لغياب عن الأرض لم يدم سوى بضعة أشهر.

---

(١) نيكسون، ريتشارد. العام ١٩٩٩: نصر بلا حرب. إعداد وتقديم محمد عبدالحليم أبو غزالة. القاهرة . مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٨، ص١١١.

لكل هذه الأسباب بدا الأمر غير قابل للتصديق، حتى إن بعض أمهر المفكرين رفض أن يصدق عينيه. وحتى السيناريوهات التى قدمها الخبراء الذين توقعوا تفكك الاتحاد السوفيتى لم تحدث. فلا المسلمون ثاروا فى آسيا الوسطى وانتزعوا استقلالهم عنوة، ولا القوميات والأعراق انتفضت هنا وهناك لتفكك ذلك البناء.

لقد منيت أطروحات ودراسات بالفشل، كتلك المجموعة من الأفكار التى ضُمت فى كتاب رصين كتب فى عام ١٩٩٠ ونشر فى عام ١٩٩٢ –وبين التاريخين كان تفكك الاتحاد السوفيتى– متوقعًا أن ثورة الأعراق والقوميات كفيلة بإصابة الاتحاد السوفيتى بهزة ، لكنه أبدًا لم يتوقع له الانهيار[1].

وحتى أكثر الفرضيات التى نالت مناقشات واسعة، والتى انتظرت أن يتفكك الاتحاد السوفيتى بحرب عرقية تشنها الأقليات المضطهدة ضد الروس، لم تحدث. بل إن هذه القوميات شنت حروبًا ومعارك ضد بعضها البعض ولم تشتبك مع الروس أو تقاتلهم فى موقعة أو نزاع بعد انهيار الشيوعية وتفكك السوفيتية[2].

لكن المدهش أن أولئك الباحثين والمفكرين حين أصبح سقوط الاتحاد السوفيتى أمرًا واقعًا لا شك فيه، وتيقنته أعينهم، صاروا يتداولون الأمر كعارفين به ومنتظرين له. بل إن ذلك السقوط الذى كانوا يصفونه قبلاً بالحدث «المستحيل» باتوا يؤكدون أنه كان «حتمًا» لا مفر منه .

(1) Alexander.J (ed) Thinking theoretically about Soviet nationalities: history and comparison in the study of the USSR. New York. Columbia Uni. Press.1992.

(2) Tishkov.V. Ethnicity, Nationalism and conflict in and after the Soviet Union. Geneva. PRIO & UNRISD. 1997. P 25.

هكذا رأى أنصار الحتم أن عوامل انهيار الاتحاد السوفيتي كانت «كامنة» منذ الأيام الأولى لميلاده، جسدتها أفكار الماركسية اللينينية، ومبادئ الشمولية، وتهميش الفرد. وقد تناسى هؤلاء الذين روجوا «لحتمية» السقوط أنهم كانوا قد أبدوا إعجابهم قبل سنوات قليلة بما قام به غورباتشوف من سياسة إعادة البناء والشفافية التى حققت التفافًا واسعًا من قبل السكان تجاه القيادة السوفيتية[1].

وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي بدأت المبررات تُطرح لتفسير لماذا انهارت الإمبراطورية، وتباينت التفسيرات بين من يعلق الأمر فى عنق التدهور الاقتصادى الذى بدأ منذ السبعينيات، والإفلاس الأيديولوجى الذى كشفت عورته البيرسترويكا والجلاسنوست، أو من يرجع الأمر إلى التسلط الحزبى الذى فقد الناس معه مبادئ تصديق النظام، بينما أشار البعض إلى الإحياء الدينى الذى أنعشته فترة غورباتشوف، والتدهور العسكرى الذى كان الانسحاب المنكسر من أفغانستان فى ١٩٨٩ علامته البارزة.

ولأن المقولات الشعبية صارت تختزل إلى حد بعيد دراما التفكك والانهيار، فقد غدت إحداها لسان حال التاريخ السوفيتى فى سبعة عقود، وتقرر هذه المقولة أن تلك الإمبراطورية «اخترعها لينين، وأرسى قواعدها وشد من عضدها ستالين، وضرب أول معول فى هدمها خوروتشوف، وأصابها بالجمود المميت بريجينيف، وهدّم أركانها غورباتشوف، وأطلق عليها رصاصة الخلاص يلتسين».

(1) Beissinger. M. Nationalist mobilization and the collapse of the Soviet State. Cambridge.Cambridge.Uni. Press. 2002, p 3-4.

بين الجغرافيا والسياسة

الجغرافيا السياسية أحد التخصصات القليلة فى علم الجغرافيا ذات النزعة التطبيقية، ويعزى تفردها إلى المساحات المتداخلة التى تجمعها بعلوم التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع السياسى والأنثروبولوجيا والعلاقات الدولية والقانون الدولى.

وإذا كان يعاب على الجغرافيا اغترافها من كل راكد وعميق، فإن الجغرافيا السياسية ترشح كثيرًا مما تستعين به؛ لتقدم رؤية تحليلية تتجاوز مستوى الرصد المعلوماتى الذى تغرم به كثير من تخصصات الجغرافيا النظرية.

ولأن علم الجغرافيا قد شهد تغيرًا محوريًا فى اهتماماته خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وتغيرت أدوات بحثه وطرائق تناوله، فقد تحركت الجغرافيا السياسية بدورها من الانشغال التقليدى بتأثير العوامل الطبيعية والبشرية على مجريات السياسة إلى التحليل السياسى، وشبكة العلاقات الدولية، ودور المنظمات العالمية، وخريطة التنافسات الإقليمية.

بل إنها مع ما شهده العالم من حروب باردة وساخنة فى القرن العشرين، لم تعد تنتظر إلى أن تمر العقود لتعيد قراءة الأحداث، فتقدم تحليلاً فات زمنه وبقيت حكمته، بل صارت تحاكى العلوم السياسية بتقديم تفسيرات آنية، وخرائط مستقبلية لمخططات القوى العظمى وحيل الهيمنة.

لم تعد الجغرافيا السياسية تميز نفسها كثيرًا عن الجيوبوليتيك - علم سياسة الأرض، المهتم بتأثير الممارسات السياسية على تغيير عناصر قوة الدولة– بل تصاهرت معه. كما لم يعد هناك ذلك التمييز التعسفى الذى يفرق بين إستاتيكية الجغرافيا وديناميكية السياسة.

وانتقلت موضوعات الجغرافيا السياسية من دراسة نظريات الوزن النوعى للمناطق الجغرافية، ومشكلات الحدود السياسية، إلى الفضاء الأرحب، حتى تماست مع قضايا العولمة، وهوية الدولة الوطنية، وتباين صعود وهبوط القوميات، واختلاف نبض الحركات الدينية. كما صارت الجغرافيا السياسية مهمومة بصراع المركز والأطراف، وانشغلت بمشاركة المرأة فى العمل السياسى، والتزوير فى الانتخابات على أساس جغرافى، وغيرها من الموضوعات التى تصنع القرارات وتحرك عجل الحياة فى عصرنا المتسارع الخطى.

وحين تفكك الاتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١ حصلت الجغرافيا السياسية على فرصة ذهبية وانتعاشة كانت تتوق إليها لتجديد دمائها، حين فتحت أمامها بوابات معرفية واسعة، ونشطت مراكز الأبحاث السياسية والاستراتيجية، وضخت دماءً جديدة فى عروق علماء الجغرافيا السياسية، الذين انكبوا على إعادة قراءة الخرائط التى مازالت تتغير هوامشها، وتقلم أطرافها، وتتبادل عليها مصالح القوى.

ليس صحيحًا على الدوام القول بأن الجغرافيا تمثل الثبات بينما تمثل السياسة التغير والتبدل، ففى المناطق محل الاهتمام تتداخل الجغرافيا والسياسة، وتتزاوج الثروات الطبيعية مع الفلسفات الأيديولوجية، فتصنع ثنائية تجمع بين ما تخفيه الصخور وما تخبئه الصدور.

دخلت الجغرافيا السياسية الجامعات نتيجة حاجة الاستعمار المتزايدة للخرائط، واستكشاف المناطق التى يخطط للاستيلاء عليها. ومن هنا فقد أُنشئت الجمعيات العلمية الجغرافية لجمع المعلومات

تمهيدًا للغزو أو إحكام السيطرة. وكان هذا الدور قد رُسخ فى النصف الثانى من القرن ١٩، حين كانت الحروب الأوربية وحركة الاستعمار ترتكزان على ثنائية «الخريطة والبارود». وكان الجغرافيون والكارتوغرافيون المهرة ضباطًا مرموقين فى جيوش الاستعمار، ومخططين أكفاء فى الحروب التى خاضتها فرنسا وألمانيا وإنجلترا. حتى أضحت الجغرافيا الأوربية فى نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ وسيلة من وسائل الإمبريالية[1].

ويعد فردريك راتزل (١٨٤٤-١٩٠٤) رجل تلك المرحلة التى امتزجت فيها الجغرافيا بالسياسة، ويرجع إليه الفضل فى إصدار أول مؤلف يحمل عنوان «الجغرافيا السياسية» فى عام ١٨٩٧م. وقد اقتنع راتزل بأفكار داروين فى التطور البيولوجى التى كانت سائدة فى نهاية القرن التاسع عشر، وصبغ راتزل صياغته لتحليل قوة الدولة بالأفكار الداروينية التى طبقها الفيلسوف الإنجليزى سبنسر فى العلوم الاجتماعية تحت اسم «الداروينية الاجتماعية» مؤكدًا أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية، بل هى أشبه بإنسان ينمو فتضيق عنه ملابسه عامًا بعد عام، فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاظمت مطامحها.

وفى الوقت الذى كان راتزل وسبنسر يتحدثان عن الجغرافيا السياسية، كان بعض الجغرافيين الألمان يتحدثون عن علم السياسات الأرضية أو ما اصطلح على تسميته بالجيوبوليتيك. وقد

(1) Hudson.B. The new geography and the new imperialism, 1870-1918. Antipode, 9, 1977.p 12-19.

بدا أنه إذا كانت الجغرافيا السياسية تنظر إلى الدولة كوحدة إستاتيكية فإن الجيوبوليتيك تعدها كائنًا عضويًا فى حركة متطورة. جاء ذلك فى وقت كانت ألمانيا تعيش بعد الهزيمة التى منيت بها فى الحرب العالمية الأولى فى انتكاسة قومية حين قسمت مستعمراتها بين إنجلترا وفرنسا، كما فرض عليها حصار عسكرى ومالى.

وفيما بين الحربين كرَّس الجغرافيون والسياسيون الألمان جهودهم للخروج ببلدهم من أزمته، وخرجت لأول مرة دورية علمية تحمل عنوان «المجلة الجيوبوليتيكية» وضمت هجينًا من الفكر الجغرافى والتاريخى والسياسى والقومى والاستعمارى. وتحت رعاية الجمعية الجغرافية الألمانية أنشئت فى ميونخ عام ١٩٢٤ المدرسة الجيوبوليتيكية التى رأسها الجغرافى السياسى كارل هوسهوفر. ويجهود هذه المدرسة وبالأعداد المتواترة من الدورية الجيوبوليتيكية صبغ الجغرافيون الفكر الاستراتيجى الألمانى بعضوية الدولة، وضرورة زحزحة حدودها لتشمل أراضى تتناسب مع متطلباتها الجغرافية، وتضم الأراضى التى يقطنها الجنس الآرى[١].

وقد تلقف هتلر أفكار هوسهوفر وزملائه، كما استعان بأفكار الجغرافى الإنجليزى الشهير هالفورد ماكندر، الذى كانت مقالاته تترجم بشكل منتظم فى الدورية الجيوبوليتيكية، خاصة تلك الأفكار التى صاغ من خلالها نظريته عن «قلب الأرض»، والتى تقول فحواها: إن من يسيطر على شرق أوربا يسيطر على العالم. وتنبأ فيها

(١) راجع للتفصيل: الديب، محمد محمود. الجغرافيا السياسية، منظور معاصر. القاهرة. مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٢.

بانتقال السيطرة من القوى البحرية (إنجلترا وفرنسا) إلى القوى البرية (ألمانيا والاتحاد السوفيتى).

هكذا زاد التداخل فى المفاهيم، وصار الفصل صعبًا بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك والإمبريالية، وصعدت الجيوبوليتيك إلى مصاف العلوم الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، إلى أن منيت ألمانيا بهزيمة كتبت نهاية لتلك المكانة.

لقد كانت الحرب العالمية الثانية الفرصة الذهبية لتطور الجيوبولتيك ليس فقط فى ألمانيا والولايات المتحدة، بل وفى اليابان وإيطاليا بالمثل. فقد استغلت هذه الدول علماء الجغرافيا السياسية لدعم الطموحات التوسعية للسلطات الحاكمة، والأحزاب المسيطرة، وتقديم شرعية للاحتلال والتوسع، على حساب دول الجوار. وذلك تحت دعاوى عرقية ولغوية، وادعاءات بحقوق تاريخية. واستخدمت فى ذلك أساليب الاختزال الجغرافى، والتبسيط العلمى الذى زيفت به المفاهيم المعقدة لتداخل الأبعاد السياسية والاقتصادية والعرقية والتاريخية، فتم تقديمها بمنهج حتمى أحادى الرؤية[1].

وصار مفهوم الجيوبوليتيك بعد الحرب العالمية الثانية قرين التوظيف السيئ للجغرافيا السياسية، وهو ما أضر بتطوير الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية معًا. ووصل الأمر فى بعض الدول إلى منع تدريس الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك فى

(1) O'Loughlin.J & Heske.H. From "Geopolitik" to "Geopolotique" : converting a discipline for war to a discipline for peace. in Kilot.N & Waterman.S (eds) The political geography of conflict and peace. London. Belhaven Press. 1991, p 43.

جامعاتها؛ باعتبارهما علمين مشبوهين يسعيان إلى بذر العداء ويكرسان الأطماع القومية.

كانت إمبراطورية روسيا القيصرية من دون مدارس جيوبوليتيكية ومنذ منتصف القرن السادس عشر تطبق فكرة الدولة العضوية حتى قبل أن تصاغ فى قوالب نظرية. فقد أرست روسيا المنهج الذى قامت عليه الأطماع الاستعمارية فيما بعد باعتمادها على الدور المحورى لجمع المعلومات الجغرافية عن الشعوب المجاورة وتدعيم رحلات علمية «بريئة» تقدم أبحاثا فى ميادين شتى لخدمة التوسع فيما بعد، وكان ذلك يجرى على قدم وساق حتى أفول شمس الإمبراطورية القيصرية فى ١٩١٧[١].

وبعد الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتى واحدًا من تلك الدول التى منعت تدريس الجيوبوليتيك فى جامعاته؛ استنادًا إلى أن الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية فى ألمانيا جلبا الكوارث على القارة الأوربية والعالم بأسره. ولم تظهر دراسات ذات قيمة فى هذين العلمين فى روسيا إلا فى منتصف التسعينيات.

ومع خروج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية كأكبر قوة عالمية ظهر على المسرح الجغرافى مفهوم جديد للجيوبوليتيك وهو «الحدود الشفافة»، التى يقصد بها الهيمنة الاقتصادية والعسكرية دون حدود خرائطية للدولة. أو ما يسميه تايلور –أشهر باحثى الجغرافيا السياسية فى العقدين الأخيرين– بـ «جغرافية السيطرة من دون إمبراطورية». والسيطرة من دون إمبراطورية هى

(١) راجع فى ذلك: أجافانوف وآخرون،١٥٠ سنة على ميلاد الجمعية الجغرافية الروسية. سان بطرسبرغ . مطبوعات الجمعية الجغرافية الروسية١٩٩٥ (باللغة الروسية).

أحدث تطوير للأفكار الجيوبوليتيكية، بعيدًا عن الأطر التقليدية للنمو العضوى للدولة. وهذا التطوير يسمح بأن يصبح العالم كله «مجالاً حيويًا» للقوى العظمى وبصفة خاصة الولايات المتحدة، بعدما عاشت الأخيرة حتى الحرب العالمية الثانية فى عزلة جغرافية اختارتها لنفسها[1].

لقد لفتت الحرب العالمية الثانية أنظار السياسيين الأمريكيين إلى أنه قد آن الأوان لتطويق «أوراسيا» والعمل على إيقاف هيمنة قوى عظمى يمثلها الاتحاد السوفيتى. وقد جاء ذلك فى البداية استجابة للأفكار الجيوبوليتكية التقليدية التى قدمها ماكيندر عن «قلب الأرض» وخطورة تحكم قوة واحدة فيه. ثم تطور فيما بعد إلى مفهوم الحضور العسكرى على أطراف الحدود الأوراسية من خلال الأحلاف العسكرية، وطبقت سياسة الاحتواء للدول المحورية التى يمكن للاتحاد السوفيتى الولوج منها إلى البحر المفتوح ومن ثم تحوله إلى قوة برمائية.

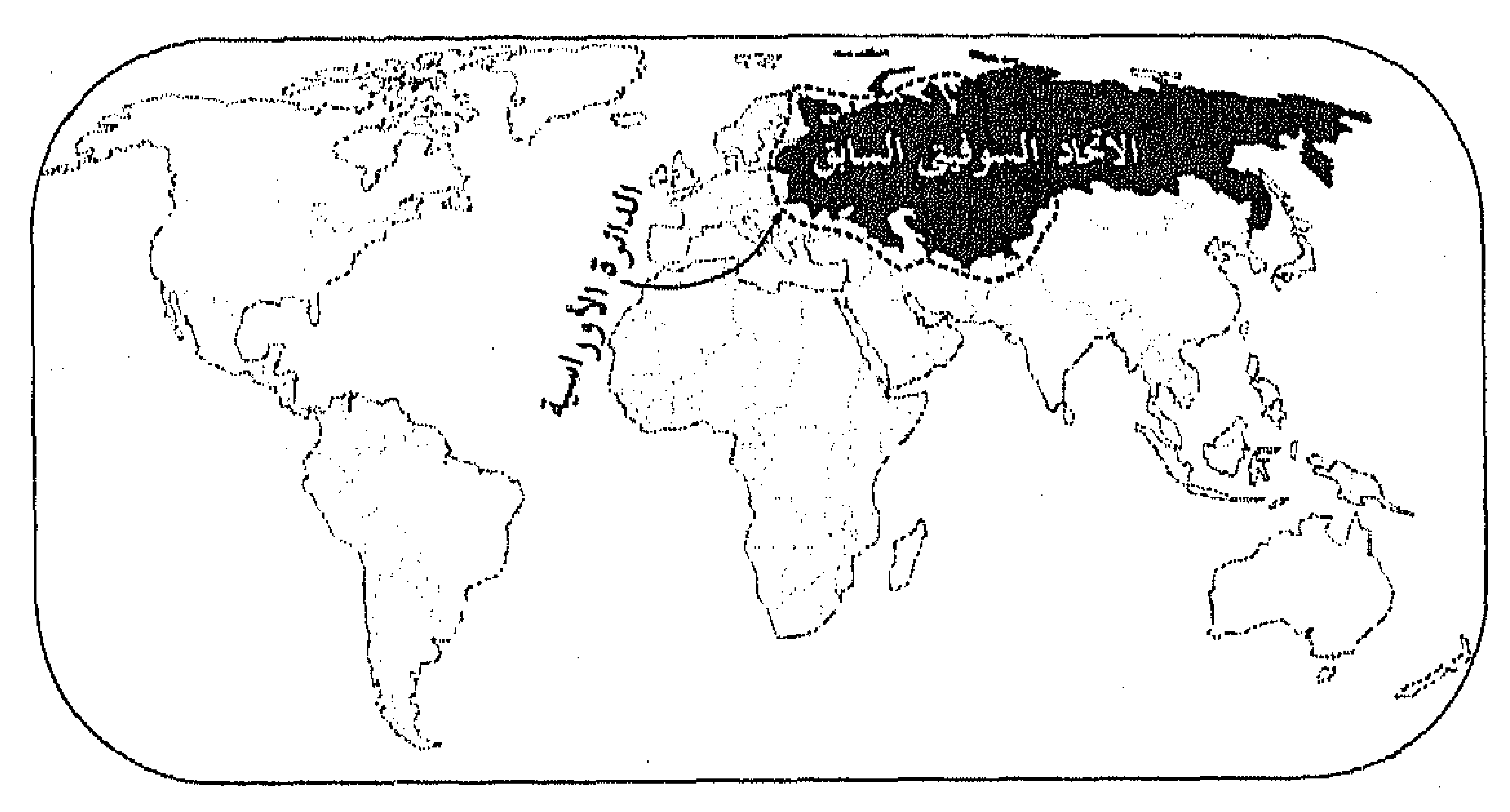
وكان من أبرز الخبراء الاستراتيجيين فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين مهاجران أوربيان شغلا منصب مستشار الأمن القومى، وهما هنرى كسينجر وزبيجنيو بريجينسكى اللذان أعادا إنتاج المفاهيم الجيوبوليتيكية التوسعية تحت شعار مواجهة الهيمنة السوفيتية. وهو ما أنتج هيمنة أمريكية لا تقل شأنًا، ولم يكن صحيحًا فى كل الأحوال أنها كانت تتخذ ردود أفعال دفاعية ضد الخطر الشيوعى، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك إقامة الولايات المتحدة

(١) راجع للتفصيل تيلور، بيتر وفلنت، كولن . الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحق عبيد. الكويت، سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٣، ٢٠٠٢.

لحلف الناتو الذى اضطر موسكو إلى إقامة حلف وارسو كخطوة دفاعية أمام زحف أمريكى للهيمنة على الأطراف الغربية لأوراسيا[1].

وقد تغيرت المفاهيم الجيوبوليتكية على يد الولايات المتحدة التى تبنت منهج «الحروب الاستباقية» والتى تنوعت فيما بين عامى ١٩٩١م و٢٠٠٦م بين إعلان الحرب على الإرهاب، ومواجهة التطرف الدينى، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل. وهى الذرائع التى بدت جلية فى حروبها فى العراق والبلقان وأفغانستان. وفى المقابل استمر الزحف الأمريكى على أوراسيا من خلال استغلال إقامة علاقات نوعية مع الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى مما منحها فرصة إقامة قواعد عسكرية أمريكية على أراضٍ سوفيتية سابقة. وهو ما يعد تهديدًا مباشرًا لقلب الأرض «روسيا» وحبسًا لها فى أضيق حدود جغرافية ممكنة.

خرائط أوراسيا



شكل (١) الاتحاد السوفيتى السابق، وحدود أوراسيا

(1) O'Loughlin.J & Heske.H. op cit. p 48.

يتعاطى الجغرافيون مع مصطلح أوراسيا كتعبير مكانى يجمع قارتى أوربا وآسيا باعتبار أن أوربا تبدو كرأس صغير ملتحم فى جسم هائل تجسده القارة الآسيوية، لكن هذا المصطلح أصبح قرينًا فى الدراسات الجيوسياسية لجغرافية الاتحاد السوفيتى (شكل ١) منذ الميلاد حتى لحظة السقوط وما تخلف عن هذا السقوط من تداعيات، وهذا هو المفهوم الذى يتبناه الكتاب الذى بين أيدينا.

لا يمنع هذا من وجود مقاصد أخرى لمصطلح أوراسيا، كذلك الذى ورثته روسيا بعد سقوط السوفيتية فأصبحت تسمى نفسها بالدولة الأوراسية؛ لأن ثلثها الغربى واقع فى أوربا وبقية أراضيها (إلى الشرق من جبال الأورال) تترامى فى القارة الآسيوية، ويعبر عنه باقتدار رمزها القومى الذى يجسده نسر له رأسان، أحدهما يتجه نحو الشرق الآسيوى والآخر نحو الغرب الأوربى.

وبحسب القوميين الروس فإن أوراسيا هى الأرض التى يعيش فيها السلاف . ومن ثم تضم الفضاء الجغرافى الممتد من كازاخستان فى الشرق إلى صربيا فى الغرب، ومن بحر البلطيق فى الشمال إلى بحر قزوين فى الجنوب. كما يقصد بالأوراسية فى بعض الدراسات المناطق الساخنة المتفككة عن الاتحاد السوفيتى، والواقعة بين قارتى آسيا وأوربا كمنطقة القوقان، وحوض البحر الأسود، وشرق أوربا.

لكن مفهوم الأوراسية لا يقتصر عند الحدود المكانية، بل يشمل فى حقيقته الأبعاد الثقافية المتداخلة بين حضارات الشعوب فى ذلك الفضاء الجغرافى المتفكك عن السوفيتية؛ وهو ما جعل عدة دول - مثل روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان-

ترى فى نفسها تجسيدًا محليًّا للأوراسية بما تجمعه من ثقافات تمزج بين الشرق والغرب.

على المستوى التفصيلى تتألف أوراسيا من أربع مناطق جغرافية هى: روسيا (وبصفة خاصة روسيا الأوربية أى الواقعة إلى الغرب من نهر الفولغا)؛ وآسيا الوسطى، والقوقاز، وأوربا الشرقية.

روسيا

إذا كانت هناك دولة فى العالم فتنت بالتوسع فلابد أن تكون روسيا. فحين نراجع خريطة هذه الدولة عبر التاريخ سنجدها قد غيرت ثوبها، حين ضاق عنها، أكثر من مرة. وبدلت حدودها عدة مرات بحدود أبعد فى المكان وأعمق فى الجغرافيا. كما توسعت من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب على حساب عديد من الشعوب والقوميات وضمت تحت لوائها عشرات الملل والنحل، ومئات أخرى من الألسن واللغات.

لهذا صارت روسيا مفهومًا «جغرافيًّا» أكثر منها مفهومًا «قوميًّا». فحين نسافر فى الأراضى «الروسية» فيما وراء الأورال مخترقين العمق السيبيرى لن نجد من الإثنوغرافيا وملامح البشر ما يمت بعلاقة بالروس من قريب أو بعيد، وكذا فى القوقاز المتمرد أو فى أرض التتر بملامحهم المتميزة وثقافتهم المغايرة. وقد دعا التنوع الثقافى والعرقى فى روسيا إلى قول الأديب الروسى الشهير دوستيوفسكى بأن «روسيا دومًا ما بدت آسيوية للأوربيين وأوربية للآسيويين».

لهذا السبب كان مهمًّا أن نفرق بين «الروسيين» أى ساكنى روسيا و«الروس» أى المنتمين للعرق السلافى، فالجغرافيا التى تضمها

روسيا أكبر بكثير من الجغرافية التى يسكنها السلاف؛ ومن ثم فإن علينا أن نستحضر روسيا بثوبها «الجغرافى» وليس بزيها «العرقى».

تكاد قصة الجغرافيا والتاريخ فى أوراسيا عبر ألف السنة الماضية تصور روسيا دولة «ولدت لتحارب»، فرغم عمرها القصير فإنها ثالث أمم العالم - بعد إنجلترا وفرنسا – فى عدد الحروب التى خاضتها، حتى إن الحرب استغرقت ٥٩٢ سنة من إجمالى ألف السنة الأخيرة(١).

ولابد أن نتذكر أن عمليات التوسع كانت تجرى تارة تحت ذرائع جيوسياسية كالحاجة الملحة للمياه الدفيئة، والموانئ المفتوحة طوال العام، والفرار من قسوة الصقيع الشمالى، وكثافة الغابات، وتأمين الحدود بين قوى إقليمية فتية. وتارة ثانية تحت مبررات ثقافية، كمواجهة الفتوحات الإسلامية التى توسعت نحو القوقاز وآسيا الوسطى وحوض الفولغا.

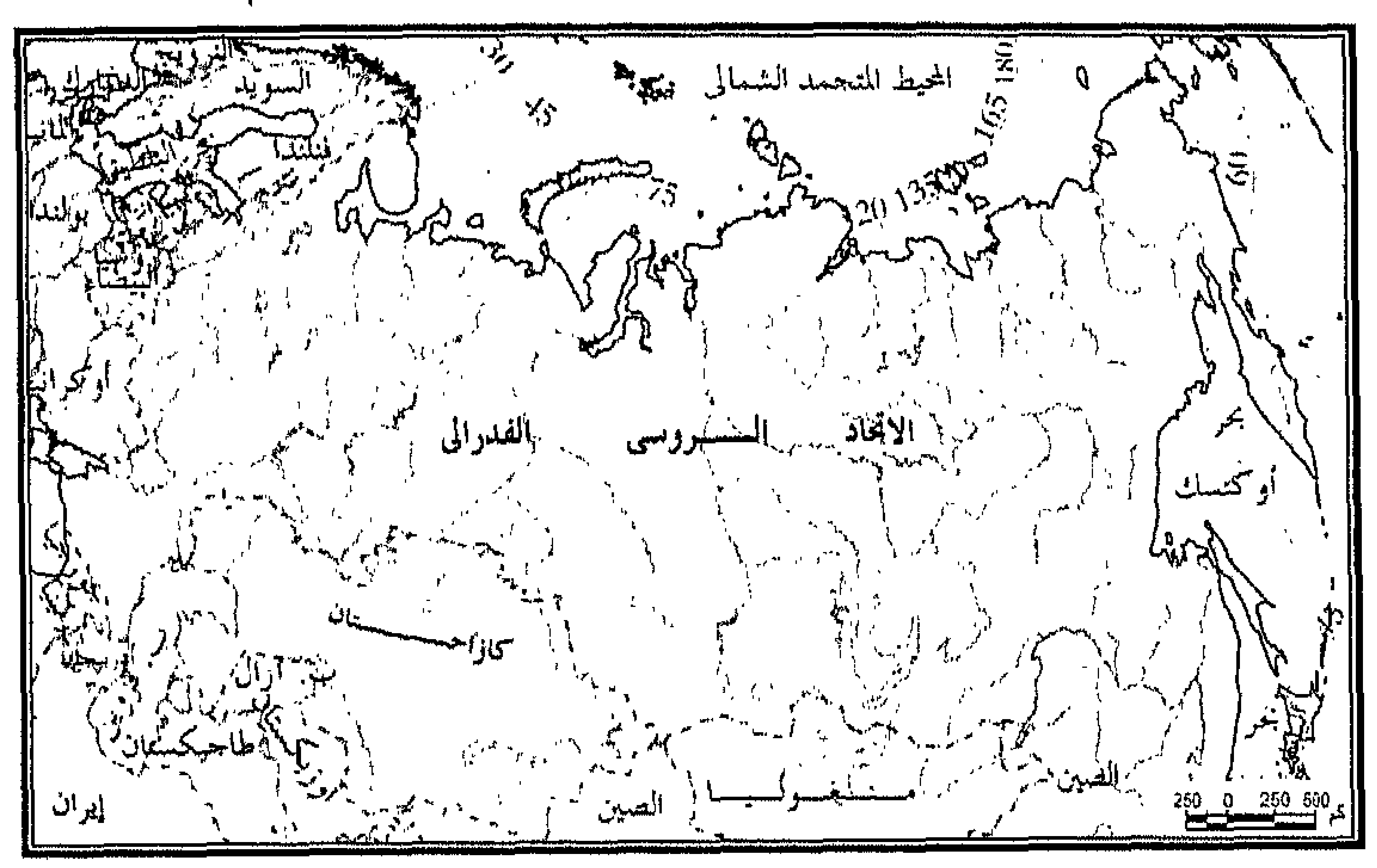
كما أن التوسع ودعم الأتباع تارة ثالثة، باسم الشيوعية ومكافحة استغلال رأس المال كان مبررًا «رساليًّا» آخر رأت فيه روسيا نفسها تحمى أوراسيا - بل ولدى بعض مؤرخيها الدنيا بأسرها – من بربرية الغزو الهتلرى.

لم تكن الحقبة الباردة، تلك التى كانت تدير حروبًا بالوكالة، استثناء فى حزمة المبررات والمسوغات، وظلت روسيا حتى السنوات الأخيرة من عمر الشيوعية تبحث عن مجال حيوى للتوسع والتأثير، هذه المرة، بالقفز عبر القارات والقوميات وصناعة حدود أيديولوجية

(١) سيريريانكو. ف. حروب روسيا: التحليل الاجتماعى السياسى. موسكو، دار ناوْشتنى مير ١٩٩٩، ص ٨-١٠ (باللغة الروسية).

تتخطى الحدود السياسية والتخوم الجغرافية ، بل تجتاز قارات بأكملها وتعبر المحيطات.

لكن ماذا فعلت روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى؟ فى أى طريق سارت؟ وهل كان العبور فى مخاض المرحلة الانتقالية آمنًا؟ هل تمكنت روسيا من التمييز بين زمن الإمبراطورية والدولة العظمى المهيمنة وعصر الدول ذات السيادة والاقتناع بحدود نهائية؟ وكيف واجهت روسيا التحديات الثلاثة التى اعترضت طريقها: نمو الفكر القومى، والصحوة الإسلامية، والنزعات الانفصالية؟ هل فعلاً تمكنت روسيا من التفريق بين الطموحات القومية المشروعة والتطرف العرقى؟ وهل فرقت حقًا بين الإحياء الدينى والتطرف؟ وإذا كانت روسيا تحوى نصف سكان الاتحاد السوفيتى السابق فهل يحافظ هؤلاء السكان على مكانة روسيا الديموغرافية بين الأمم؟



شكل (٢) الخريطة السياسية لروسيا المعاصرة

لقد غيرت روسيا اسمها بين الأمم بعد سقوط الاتحاد السوفيتى إلى «الاتحاد الفدرالى الروسى Russian Federation » (شكل ٢) معطية بذلك مغزى جديدًا وإشارة ذات دلالة مفادها أن بوسع الشعوب التى تسكن هذا البناء الفدرالى أن تستفيد بمزايا الاتحاد وتأخذ منه أقصى حدوده حتى لو شارف الأمر حد الاستقلال. لكن هل انطبق الاسم مع الواقع؟ هل تمكنت أية جمهورية أو وحدة إدارية فى البناء الفدرالى أن تطبق مفهوم الفدرالية كاملاً؟ وهل يعنى وجود برلمانات ورؤساء جمهوريات ومجالس وزراء داخل جمهوريات ومناطق الاتحاد الفدرالى أن هناك بالفعل فلسفة حكم فدرالية؟

لقد خاضت روسيا خلال السنوات الخمس عشرة التى تلت سقوط السوفيتية جدلاً واسعًا حول هوية وطبيعة الحكم الذى يمكنه أن يلملم الوحدات المساحية والرقاع الجغرافية المتباينة فى تاريخها الإنسانى، ومعالمها الإثنولوجية والسياسية. وتفاوتت مذاهب ومعتقدات صانعى السياسة الداخلية لروسيا بين أنصار الفكر «الاتحادى» و«الفدرالى» و«الكونفدرالى» و«المركزى». وكانت إحدى أزمات اختلاف تفسير «الفدرالية» تلك الكارثة الإنسانية التى أصابت الشيشان خلال حربين متتابعتين فيما بين ١٩٩٤ و ٢٠٠٤.

والآن وبعد أكثر من ١٥ سنة من تفكك السوفيتية تدرك روسيا أنها لم تفقد بناءً سياسيًا ضخمًا فحسب، بل فقدت ثلاثة نطاقات جغرافية كانت تطل منها على قرارات العالم المصيرية وهى:

– الجمهوريات السوفيتية فى أوراسيا والتى تشمل ١٤ جمهورية، موزعة بين ثمان فى آسيا هى جمهوريات آسيا الوسطى الخمس (كازاخستان، أوزبكستان، تركمنستان، قرغيزيا وطاجيكستان)

وجمهوريات القوقاز الثلاث (أرمينيا، أذربيجان، جورجيا)، وست في أوربا هي جمهوريات البلطيق الثلاث (إستونيا، لاتفيا، وليتوانيا) وجمهوريات شرق أوربا الثلاث (أوكرانيا وبيلاروسيا ومولدوفا).

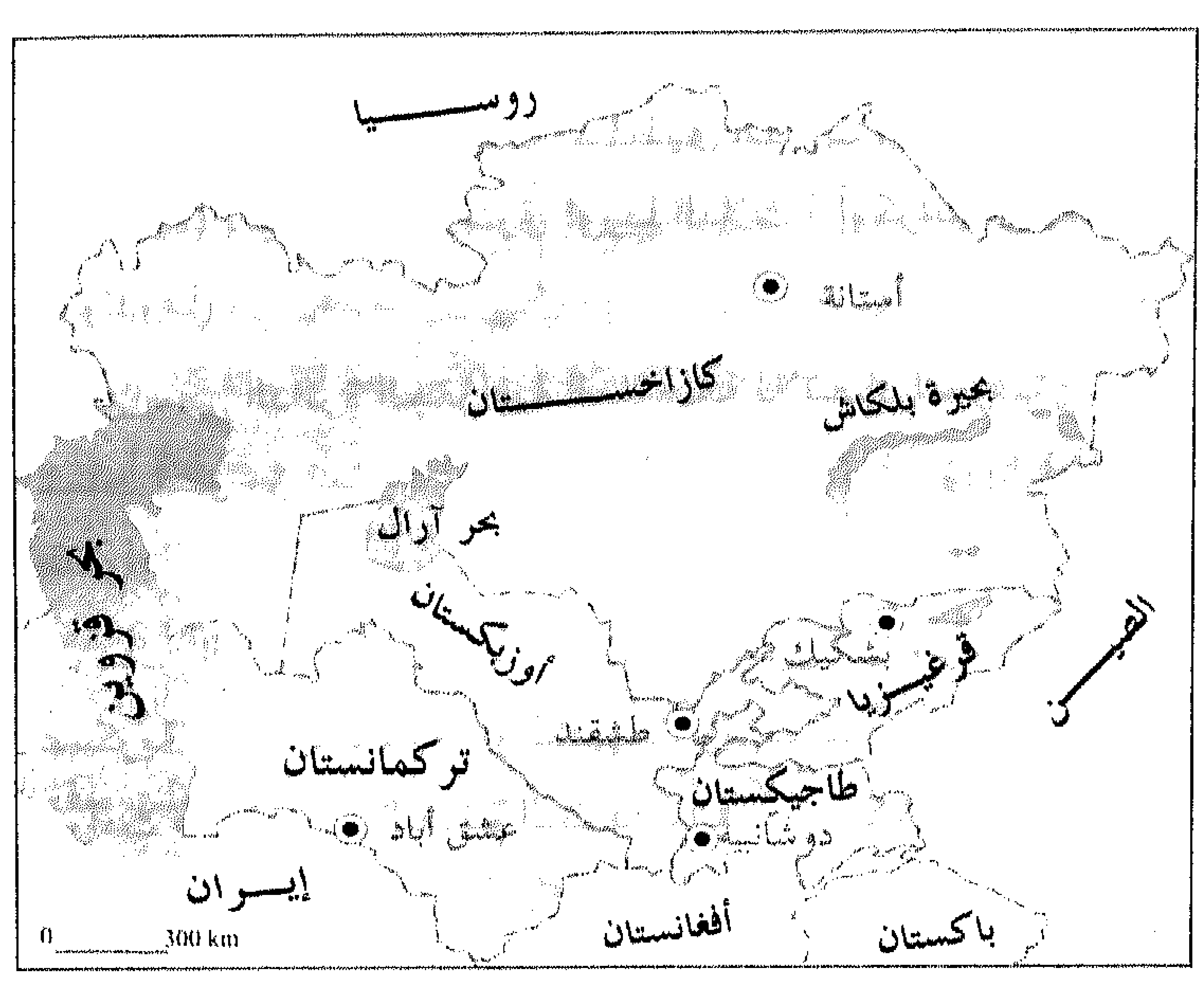
- الحلفاء في الدائرة الجغرافية الملاصقة للاتحاد السوفيتي، والتي شملت أكثر من عشر دول في وسط وجنوب شرق أوربا فضلا عن منغوليا والعراق وسوريا.

- الزبائن الشيوعيون الذين كانوا يحجون إلى موسكو لأسباب عسكرية أو أيديولوجية، أو لكليهما، ويزيد عددهم على ٢٠ دولة ترامت في قارات العالم الجديد والقديم، وكان أشهرها كوبا وفيتنام واليمن وأنجولا ونيكاراغوا.

أوراسيا الجنوبية

يمثل بحر قزوين مفتاحًا للجغرافيا والثروة وموصلاً جيدًا بين إقليمين مختلفين في الملامح التضاريسية والأعراق البشرية، وإن اشتركا في القدر التاريخي والتغير السياسي، وهما القوقاز في الغرب والتركستان في الشرق. ويرسم الإقليمان معًا التخوم الجنوبية لأوراسيا، ويتشابهان في أنهما –عكس روسيا – لم يلعبا دور الفاعل إلا قليلاً؛ إذ أمضيا أغلب فترات تاريخهما مجالاً حيويًا لتوسع القوى الإقليمية وإقليمًا للعبور والاختراق.

وقد اختلفت المسميات التي أُطلقت على هذه المنطقة عبر العصور، فقد عرفت في التاريخ الوسيط وفي عصور الحضارة الإسلامية باسم بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون المعروف اليوم باسم أموداريا)،



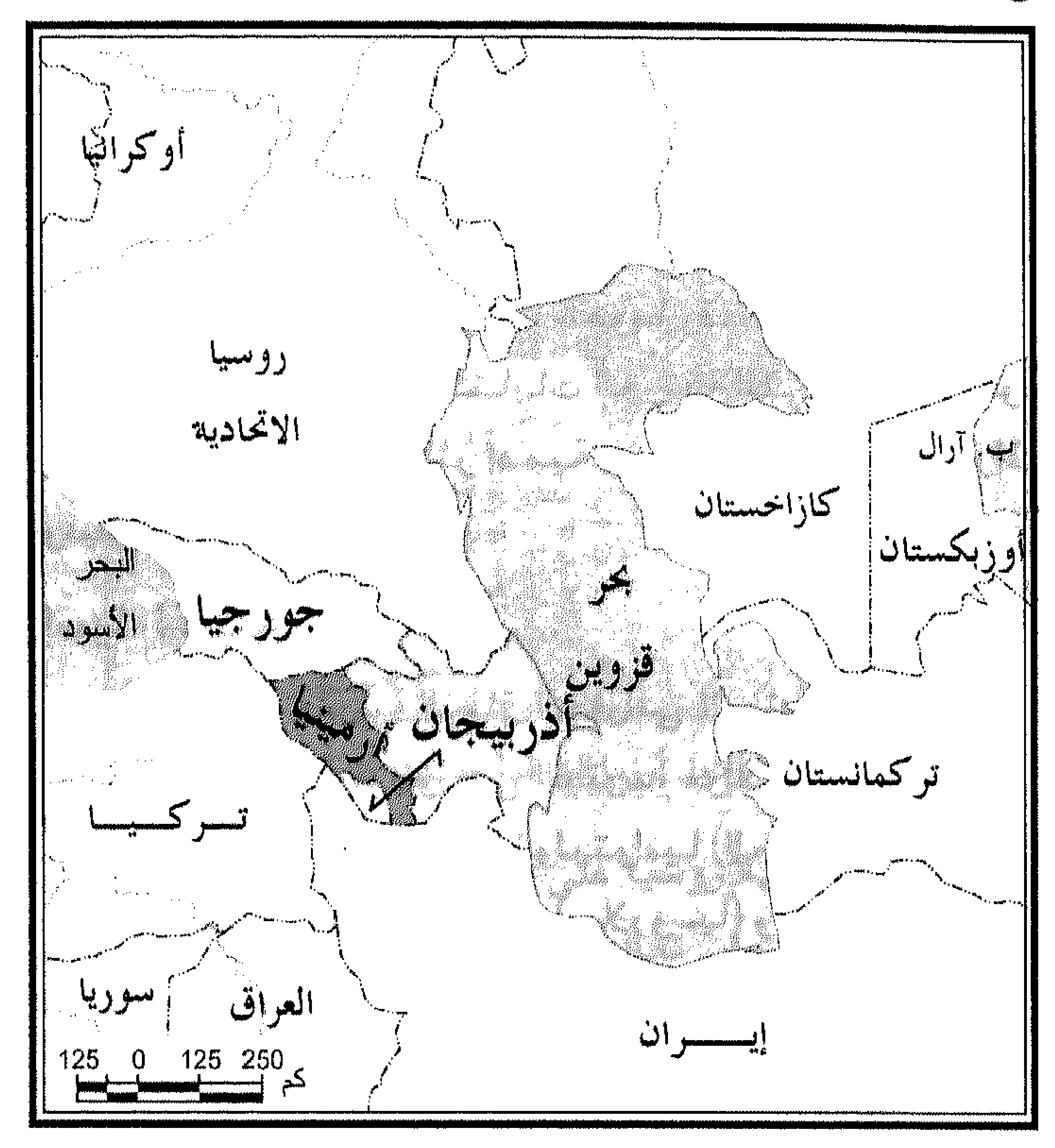
شكل (٣) دول آسيا الوسطى

وعرفت فى القرون التالية باسم التركستان بشطريها: الشرقية (إقليم شينغيانغ فى غرب الصين) والغربية (بين تركستان الشرقية وبحر قزوين) . ولم يشمل مسمى التركستان آنذاك كازاخستان. وحينما ضم السوفيت المنطقة قاموا بتوحيد إمارات التركستان الغربية فى جمهورية عرفت باسم جمهوريات التركستان السوفيتية، وأخرجت من هذا المسمى كازاخستان[١].

وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى صارت آسيا الوسطى اسمًا يطلق على المنطقة التى تشمل التركستان الغربية إضافة إلى كازاخستان.

(١) لمراجعة مستفيضة لتاريخ المنطقة وتاريخ كل دولة على حدة يرجى مراجعة:
Capisani. G. Handbook of Central Asia. London. Tauris Publisher. 2000.

وتلاصق إقليم آسيا الوسطى أربع دول لها تأثير بالغ على مجريات الأحداث فى هذه المنطقة، وهى روسيا والصين وأفغانستان (ومن خلفها باكستان) وإيران[1] (شكل ٣). كما قسم القوقاز بين أربع دول هى روسيا وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان (شكل ٤).



شكل (٤) دول القوقاز

(١) لمزيد من التفاصيل راجع:

Gretsky.S . Russia's policy toward Central Asia. Carnegie endowment for international peace. Moscow. 1997

وحصلت جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز فى عام ١٩٩١ على ما يمكن تسميته باستقلال «السكتة القلبية» الذى لم تكن مستعدة له، لا ببلورة أفكار التحرر القومى ولا ببناء تيارات سياسية تنعش الحياة بعد عقود السفيتة الراكدة. ومن ثم احتاجت سنوات طويلة قبل أن تتفشى فيها الأفكار القومية والليبرالية التى كانت قد ظهرت تائهة بعيد الاستقلال.

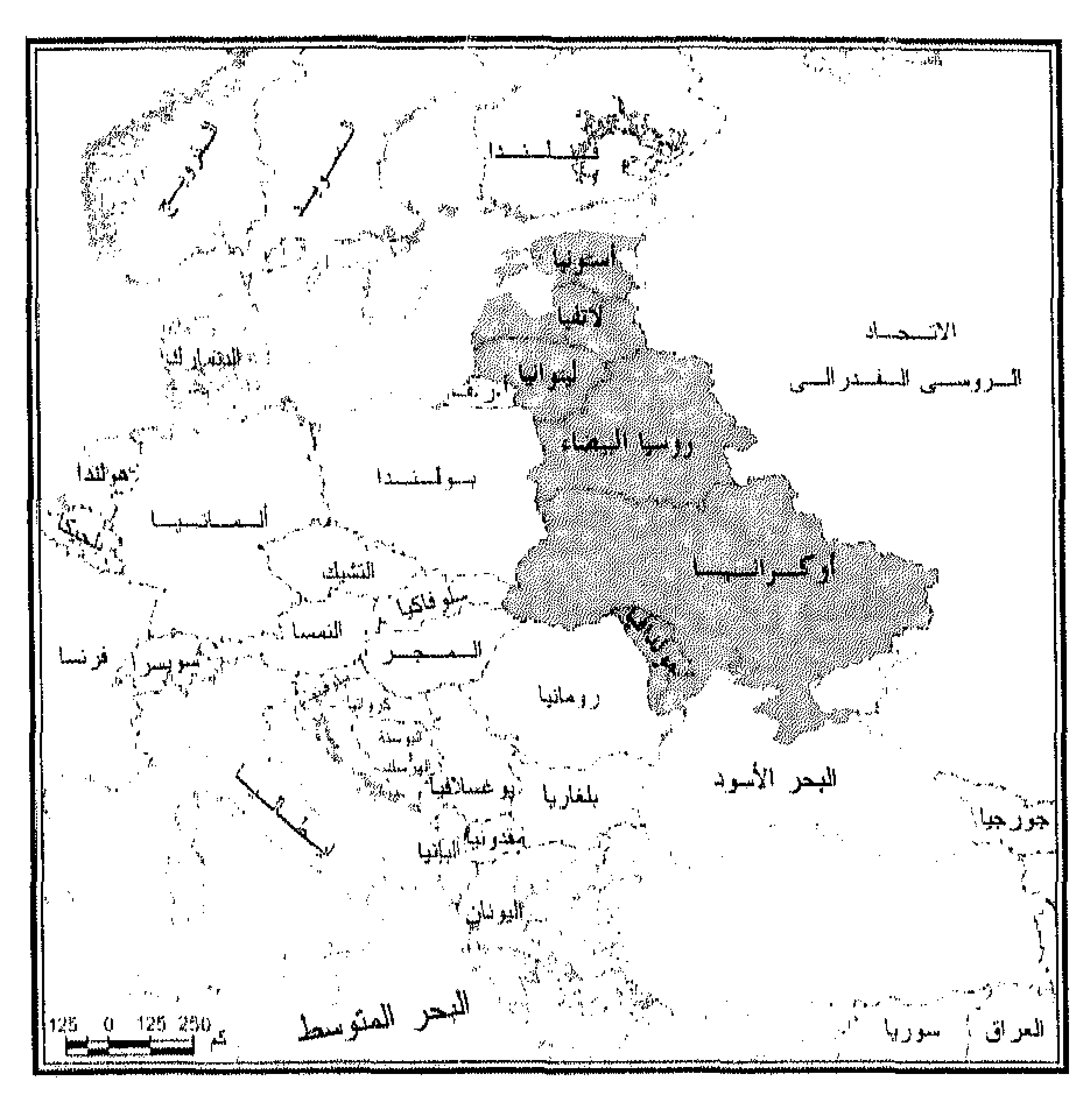
وفى الوقت الذى اعتبرت آسيا الوسطى والقوقاز جزءًا من اللعبة الكبرى ومجالاً حيويًا للتوسع وجزءًا من الصراع فى أوراسيا نُظر إلى دول أوربا الشرقية باعتبارها «شعوبًا وقعت فى الأسر» وكان مفهومًا أن ذلك مصدره الكتابات الغربية التى كانت الشعوب الأوربية أكثر قربًا لها وأكثر أهمية من باقى الفضاء الجغرافى السوفيتى.

أوراسيا الغربية

يقصد بأوراسيا الغربية النطاق الجغرافى الممتد من بحر البلطيق فى الشمال إلى البحر الأسود فى الجنوب، مؤلفًا من ست دول فى شرق أوربا هى إستونيا ولاتفيا وليتوانيا (المعروفة بدول بحر البلطيق) إضافة إلى روسيا البيضاء (بيلاروسيا) وأوكرانيا ومولدوفا (شكل ٥).

ومنذ استقلال هذه الدول عن السوفيتية لم يكن ممكنًا أن تبقى نطاقًا عازلاً بين روسيا والقارة الأوربية، فقد تعمد حلف الناتو التوسع شرقًا ليضم دول البلطيق تحت سيطرته. ثم كانت النقلة المهمة فى دعم الولايات المتحدة والغرب الأوربى للثورة الشعبية التى شهدتها أوكرانيا فى ديسمبر ٢٠٠٤ وأطاحت بنظام سياسى

حليف لموسكو وأتت بنظام ذى توجه غربى، وهو ما قسم البلاد بين شرق تؤثر فيه روسيا، وغرب يؤثر فيه الغرب.



شكل (٥) دول أوربا الشرقية المفككة عن السوفيتية

وحدها بقيت بيلاروسيا على هذه الخريطة دون أن تلقى تأثيرًا أمريكيًّا أو غربيًّا، وإن تعالت المطالب الأمريكية من فترة لأخرى بإقرار النظام الديموقراطى وتفكيك احتكار السلطة[1]. ومن المتوقع أن تبقى بيلاروسيا لفترة قادمة نطاقًا عازلاً بين تأثير الناتو والدعم الغربى من ناحية وروسيا من ناحية ثانية.

(1) Lavelle.P. Lukashenko's empty victory. The Washington times. 18 Oct. 2004.

أما مولدوفا فقد عاشت صراعًا دمويًا فى مطلع التسعينيات، تحول بعد ثلاثة أعوام إلى صراع مجمد، كشأن كثير من الصراعات التى تشكلت بعد انهيار الشيوعية، وتبدو ظاهريًا ككتلة من الثلج قد تنفجر المصهورات البركانية من قلبها بسبب النزاعات العرقية والجغرافية على أطرافها الشرقية.

كانت أهمية أوربا الشرقية قد ارتفعت قبل أكثر من قرن من الزمان، حين قدم عالم الجغرافيا البريطانى الشهير هالفورد ماكيندر[1] نظريته عن المنطقة المحورية فى الاستراتيجية العالمية. وقد وصل فى تحليله لقوى البر والبحر إلى أن منطقة شرق أوربا هى قلب الأرض النابض.

مضى ماكيندر فى نظريته إلى أن وصل لما يعتبره بريجينسكى[2] «الحكمة الجغرافية» الشهيرة التى تقول:

من يحكم أوربا الشرقية يحكم قلب الأرض

من يحكم قلب الأرض يحكم جزيرة العالم

من يحكم جزيرة العالم يحكم العالم

وبعد نصف قرن من تلك النظرية طبقت ألمانيا والاتحاد السوفيتى خلاصة فكر ماكيندر فاعتبرتا الصراع على جزيرة العالم هدفًا أساسيًا. وقد بث تفكك الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة فى نفس الجغرافيين اعتقادًا بأن النظرية قد سقطت، وإن كان ذلك ليس صحيحًا بالضرورة.

(1) Makinder.H.The geographical pivot of history. Geographical Journal. Vol. 23, 1904.

(٢) بريجينسكى، زبجنيو . رقعة الشطرنج الضخمة. ترجمة فراج، سحر وحسن، محمد عبد السلام . القاهرة. دار ميريت. ٢٠٠٣ ص ٣٧.

فقد زحزحت الخمسة عشر عامًا التى مضت منذ تفكك الاتحاد السوفيتى مكانة شرق أوربا إلى المرتبة الثانية بعد أوراسيا الجنوبية بحكم صعود نظام طالبان ووصول تهديده فى النصف الثانى من التسعينيات إلى حدود آسيا الوسطى، واشتعال المنطقة بعد الحرب على الإرهاب التى تلت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. ومن ناحية ثانية ساهم اشتعال الحرب فى الشيشان خلال عقد التسعينيات، واشتعال حرب ناجورنو كارباخ فى القوقاز الجنوبى، والحرب الأهلية الجورجية فى النصف الأول من التسعينيات فى تقدم منطقة القوقاز إلى مرتبة أكثر أهمية مما شهده الحراك السياسى الهادئ فى شرق أوربا.

هكذا أصبحت المناطق الأربع الموروثة عن البناء السوفيتى - روسيا ، آسيا الوسطى، القوقاز، أوربا الشرقية – فى حاجة إلى دراسة جغرافية سياسية جديدة تعيد ترتيب القطع على لوحة الشطرنج الكبرى، وتنسق من جديد الألوان المعبرة عن الوزن الإقليمى لكل طرف، وتمنح أطرافًا أخرى، كانت مهمشة بالأمس، رموزًا جغرافية ترقى بها إلى مصاف اللاعبين الرئيسيين.

لم يكن ينقص المناطق الأربع المنفرطة عن العقد السوفيتى من الأهمية الجغرافية إلا اكتشاف الحقول الهائلة من النفط والغاز، التى جعلت المتابعين يسمونها الخليج العربى الجديد، ولم تكن تلك المناطق الأربع فى حاجة لأن تستأثر باهتمام الشرق والغرب إلا بصعود الحركات الإسلامية المسلحة، وانتعاش التيارات القومية المتعصبة، وتنامى قوة الأحزاب الليبرالية، وهى الأحداث التى لاتزال تشكل التطورات الجغرافية السياسية فى هذه المناطق حتى تاريخ كتابة هذه السطور.

تصنيف الكتاب وترتيبه

لماذا نراجع الآن حدثًا مر عليه أكثر من خمسة عشر عامًا؟ يبدو أننا لا نزال فى حاجة لمزيد من التروى فى قراءة الخريطة التى تخلفت عن تفكك الاتحاد السوفيتى لأسباب عدة أهمها:

- أن الحدث ما زال يشغل بال صناع القرار فى العالم، حتى إن الرئيس الروسى فلاديمير بوتين أعرب فى مايو ٢٠٠٥ فى الاحتفال السنوى بذكرى الانتصار على النازية أن انهيار الاتحاد السوفيتى كان «كارثة عالمية» أفقدت العالم توازنه وأربكت نطاقًا جغرافيًّا عريضًا يمتد من المحيط الهادئ فى الشرق إلى الأطلسى فى الغرب.
- أن التغيرات التى وقعت شملت «حزمة» من الأبعاد الحياتية اقتصادية وسياسية وعقائدية ولم يكن هناك متسع من الوقت، مع تسارع الأحداث، لمراجعة كثير من الأحداث المتشابكة .
- أن الأحداث التى يشهدها الفضاء السوفيتى ما زالت فى «مطبخ» السياسة يتم طهى بعضها، وتقديم البعض الآخر منها على عجل، مما لا يتيح الفرصة لفهم الخلفيات والتداعيات إلا بدراسة متأنية شاملة.
- أن «صدى» الأحداث الجغرافية فى عالم ما بعد السوفيتية يصل إلينا بصوت مسموع فى المشرق العربى وإيران وجنوب آسيا وغربها.

هل بين أيدينا اليوم مصنف جغرافى عن التغير فى تلك المناطق الأربع؟ ألسنا فى حاجة إلى رؤية جامعة تلم الأطياف المتباينة؟ لا يمكن إنكار ما تقدمه المكتبة الروسية والغربية من مراجعات متناوية عما يجرى فى تلك المناطق، وقد وصلت سرعة وفائها بالحاجة إلى محاكاة الأعمال الصحفية، متذرعة

بطموحات القراء المشغوفين بأسرار ذلك العالم الذى كان مختبئًا خلف الستار الحديدى.

لكن، كم من أعمال قدمت بلسان عربى مست تلك التغيرات؟ وهل تمكنا من الخروج برؤية تحليلية عن الدوافع التى صاغت التغير فى الفضاء الجغرافى المتفكك عن الاتحاد السوفيتى؟

لا يدعى الكتاب الذى بين أيدينا أنه جاء ليقدم رؤية شاملة، فهذا أكثر من جهد ثلة من الباحثين المجتهدين، لكنه يحاول أن يمسك بأطراف تلك الخريطة الجديدة ليمر عبر خطوط طولها ودوائر عرضها متفحصًا الوحدات السياسية الجديدة، فيغوص فى عوامل قوتها ومكامن الضعف التى تتهددها.

يتألف هذا الكتاب من خمسة فصول، يمهد الأول منها لقضايا الكتاب ويراجع بعض المفاهيم ، وتهتم الفصول من الثانى إلى الرابع بدراسة التغيرات التى طرأت على الجغرافيا السياسية لمناطق الدراسة الثلاث: روسيا، وآسيا الوسطى والقوقاز، وأوربا الشرقية، بينما يهتم الفصل الخامس بتقديم ما يجمع تلك المناطق وما يفرقها.

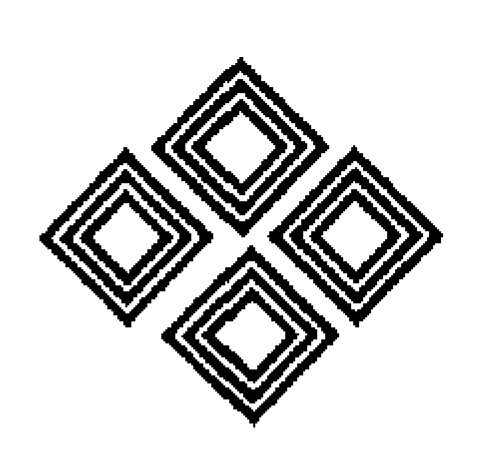
ويعتمد الكتاب على المنهج الإقليمى مع الاستعانة بالمنهج التاريخى والإيكولوجى والمورفولجى. وباستعانة الكتاب بعدد وافر من الخرائط، يساهم الأسلوب الكارتوغرافى فى إبراز الأبعاد المكانية للظاهرات السياسية والجيوستراتيجية محل الاهتمام.

ويهدف الكتاب الذى بين أيدينا إلى:

- تحليل الوزن النوعى للمناطق الأربع المتفككة عن الاتحاد السوفيتى بعد مرور ١٥ سنة منذ انهيار الشيوعية.

- دراسة الأبعاد القومية والدينية والاقتصادية التى تقف خلف التغير المتتابع فى المناطق الأربع.
- تقديم مجموعة من الخرائط الحديثة تعرض للثروات الاقتصادية، والأوزان الجيوسياسية، ومناطق النزاع والصدامات والحروب فى المناطق الأربع.
- إطلاع القارئ العربى على رؤى ووجهات نظر مختلفة، روسية وغربية وعربية، عما يجرى فى ذلك الفضاء الجغرافى المهم من العالم.

وفى النهاية ليس من مفر القول بأن المعلومات التى بين أيدينا فى هذا العمل لم تأت قراءة صامتة فى المراجع، أو استمدت من تحليلات وترجمات للباحث أجراها بصبر فى مكتبات سان بطرسبرغ وموسكو والقاهرة والرياض ونيودلهى فحسب. فقد عاش المؤلف فترة مهمة من الأحداث التى يتناولها الكتاب فى العاصمة الروسية موسكو، والعاصمة الثقافية لروسيا سان بطرسبرغ، بين عامى ١٩٩٧ و٢٠٠١. وهى تجربة لا تعطى للدراسة بعدًا إنسانيًّا، وربما ذاتيًّا، فحسب، بل تقدم بعض قضايا الكتاب وقد حامت حولها أطياف من روح الواقع، وحاصرتها بعض من رائحة المعايشة.



الفصل الثانى
روسيا فى زمن التحولات

«روسيا اليوم أشبه بدُب وجد نفسه فى قفص ضيق بعدما كان الرحب أرضه والسعة تجواله. والمشكلة أن إخراج هذا الدب من قفصه ليس بتلك السهولة التى عادة ما تخرج بها الدببة من مأزقها فى حكايات الأطفال».

(المفكر الروسى جارنيت، ١٩٩٧).

ليست روسيا إلا واحدة من تلك الدول حديثة العمر فى التاريخ السياسى للأمم والممالك والإمبراطوريات، ولعل ذلك يفسر عدم وصولها بعد إلى مرحلة الاستقرار الجغرافى التى بلغتها غيرها من الأمم الأوربية والآسيوية المجاورة، والتى لها تجربة تاريخية عميقة وخبرات حضارية واسعة. ماذا عن قصة ألف السنة فى تلك الدولة الفتية؟ ماذا جنت لنفسها؟ وماذا جنت على الآخرين؟ وما الذى تغير فى خريطة أوراسيا بسبب الطموح الروسى الذى لم ينقطع؟

الإمارة تغدو إمبراطورية

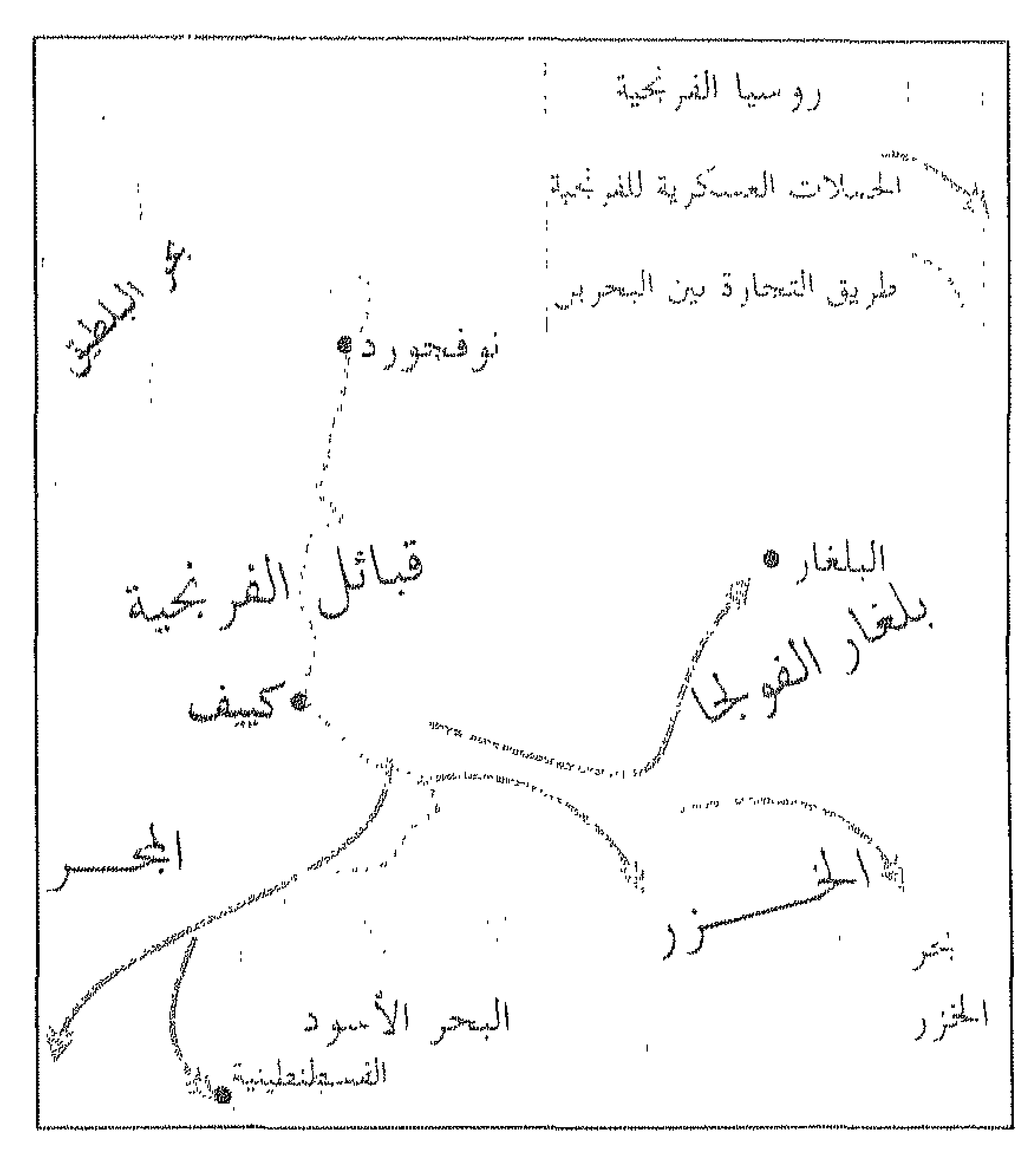
لم يسمع العالم بالروس كشعب أو نظام سياسى قبل عام ٩٨٨ ميلادية. ففى تلك السنة، حين وصل سفير الروس إلى القسطنطينية عاصمة بيزنطة، طالبًا التحالف، كانت بداية انتباه الحضارات الأوربية إلى تلك القبائل التى تشرف على طرق التجارة بين البحر الأسود وبحر البلطيق.

لم تكن كلمة روس Rhos تطلق آنذاك على مكان أو دولة بل على تلك القبائل ذات الصلة بعشائر الفرنجية Varangians ذات الأصل الإسكندنافى، والتى كانت قد حكمت الشعوب السلافية فى شرق أوربا. وقد رأت بيزنطة فى التحالف مع الروس ضمانًا لاستمرار الحركة البرية للتجارة فى القارة الأوربية، فى وقت كان الأسطول الإسلامى يهيمن على الطرق الملاحية فى حوض البحر المتوسط[1].

يصعب فهم الأبعاد الجغرافية للتحالف بين روسيا الفرنجية Varangians Russia والبيزنطيين دون قراءة خريطة مراكز القوى

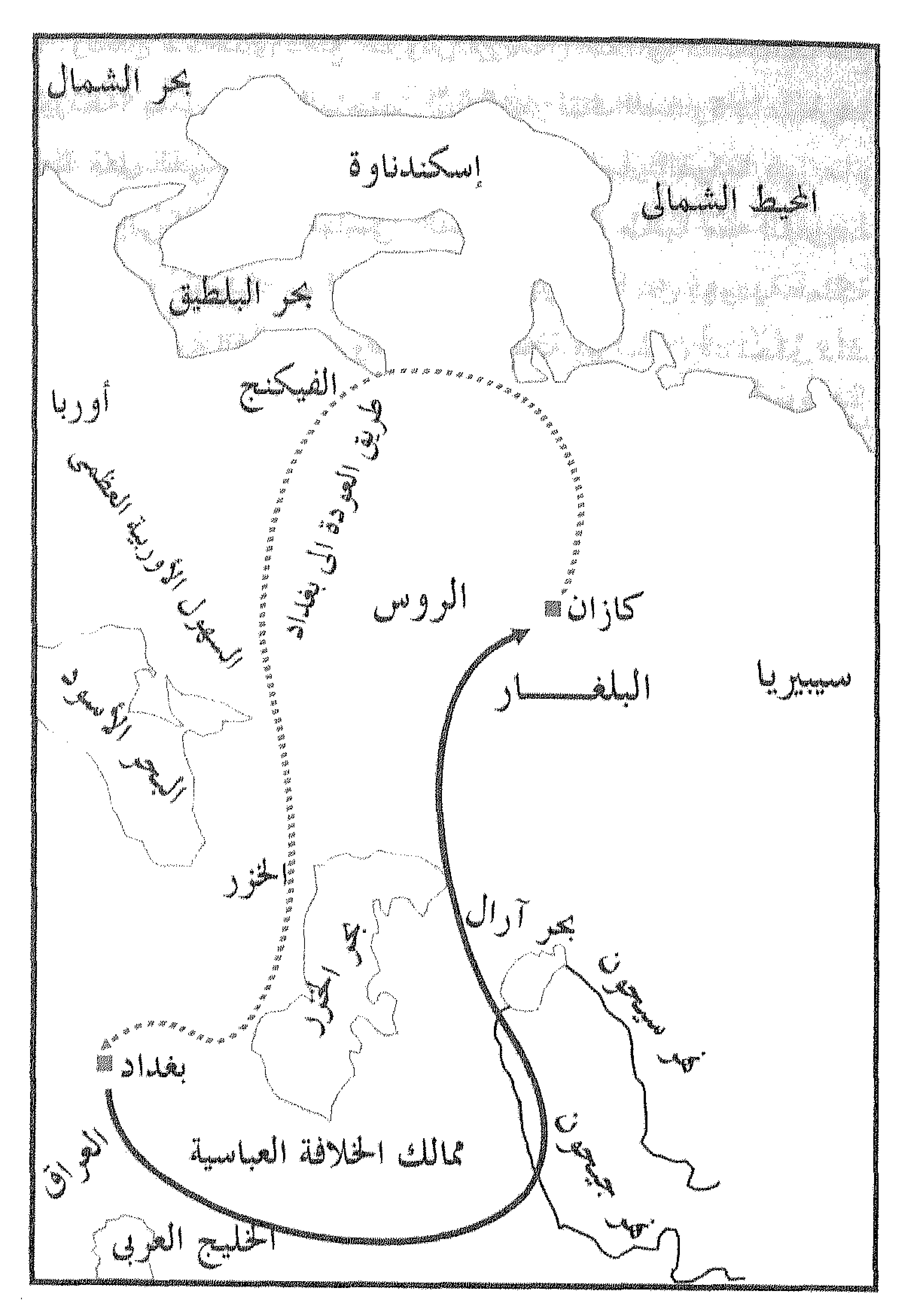
(1) Meyendorff.J. Byzantium and the Russia. London. Cambridge University Press..1981. p 9.

الرئيسية فى أوراسيا خلال القرن العاشر الميلادى (شكل ٦) ففى تلك الرقعة الجغرافية كانت القبائل الفرنجية تقوم بحملات حربية ضد مملكة البلغار والقبائل الآسيوية البربرية النازحة من مناطق الإستبس، وضد القسطنطينية.



شكل (٦) خريطة روسيا الفرنجية

لم تكن روسيا الفرنجية متقوقعة على طريق التجارة بين بحر البلطيق والبحر الأسود، بل كان لها من البداية طموحات فى المناطق المجاورة، بحكم القدرة على المغامرة، وشدة البأس، والرغبة فى التوسع فى أرض جديدة، وصد هجمات القبائل المغيرة. ولعل هذا ما جعل بيزنطة ترحب بالسفارة التى أرسلها الروس للتحالف، باعتبارها ستضمن لهم حماية من أولئك البرابرة الشماليين.



شكل (٧) رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار وروسيا

ولكن ما الذى دفع الروس لإرسال سفارة للتحالف مع بيزنطة؟ يميل بعض الباحثين إلى النظر لتلك السفارة باعتبارها ردة فعل على سفارة أخرى أرسلها ملك بلغار الفولغا فى عام ٩٢١م إلى الخليفة العباسى «المقتدر بالله» طالبا منه التعريف بالإسلام؛ لتتخذه مملكته دينًا، تمييزًا لها عن يهودية مملكة الخزر، ووثنية القبائل الروسية، ومسيحية بيزنطة. وقد تحقق ذلك بالفعل فى العام التالى على يد رسالة عرفت باسم رسالة ابن فضلان[١] (شكل ٧).

وتعد جالينا يماليونوفا أهم من أكد على «تنصير» روسيا من خلال اللجوء إلى البيزنطيين للتحالف معهم ضد المملكة الإسلامية الشابة فى البلغار. وقد اعتبرت يماليونوفا أن اختيار البلغار للإسلام على نهر الفولغا لم يترك خيارًا لروسيا. فإلى الغرب كانت المسيحية الكاثوليكية فى كل من بولندا والمجر والدويلات الجرمانية، وفى الجنوب كانت مملكة الخزر اليهودية وما وراءها من دولة الخلافة الإسلامية ، وهاهى مملكة البلغار تختار الإسلام، فلم

---

(١) أخرج أحمد بن فضلان مشاهداته، ومراسم تبليغه رسالة الإسلام إلى مملكة البلغار على نهر الفولغا فى كتاب أسماه «الرحلة». ولقيت الرحلة اهتمامًا واسعًا من قبل باحثين عدة بفضل ما ضمه ياقوت الحموى فى «معجم البلدان» لجزء كبير من متن الرحلة، قبل أن تتناولها الدراسات الروسية والإسكندنافية ثم العربية بالتحقيق والدراسة، وأهم هذه الدراسات:

- Montgomery.J.Ibn Fadlan and the Russiyyah. Journal of Arabic and Islamic Studies.2000. vol 3.

– لعيبى ، شاكر. رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والصقالبة. أبو ظبى. دار السويدى للنشر والتوزيع٢٠٠٣ .

يجد الأمير فلاديمير حاكم إمارة روسيا «كييف» سوى اللجوء إلى بيزنطة، فتم تعميده فى سنة ٩٨٨م[1].

ولعل الخيار الذى وصلت إليه روسيا الفرنجية يشبه الخيار الذى اتخذته مملكة الخزر التى كانت ممتدة فى تلك الفترة التاريخية بين بحر قزوين والبحر الأسود، حين اعتنق الخان الخزرى اليهودية فى عام ٧٤٠ م كتمييز دينى عن الإسلام العربى فى الجنوب، والمسيحية البيزنطية فى الغرب. وكان الخزر قد استعانوا ببعض القبائل الروسية فى حروبهم ضد الخلافة الإسلامية التى كانت قد وصلت قلاعها المتقدمة إلى منطقة القوقاز، قبل أن يخوض الخزر حروبًا مع روسيا الفرنجية للسيطرة على شرق أوربا، فنجحوا فى إخضاع العاصمة الروسية «كييف» لسيطرتهم، وأجبروا الروس على دفع الجزية، وذلك قبل أن يتمكن الروس من إرجاع الخزر إلى شمال القوقاز ثانية ويدمروا فى عام ٩٦٥م عاصمتهم «إتل» على بحر قزوين[2].

وبحسب الوثائق التاريخية التى عاد إليها ميندورف[3] فقد ترك التحالف مع بيزنطة تأثيرًا بالغ الأهمية على الدولة الروسية الوليدة، حين استعارت روسيا التقليد السياسى الرومانى القائم على إقامة مملكة رومانية تحكم العالم وتتوسع فى أرجائه، وقد زاوجت هذه

(1) Yemelianova.G Islam in Russia: a historical perspective. in Yemelianova.G & Pilkington.H (eds) Islam in Post-Soviet Russia, public and private faces. London Routledge.2003.p 19-20.

(2) Yemelianova. G. Russia and Islam, a historical survey. London. Palgrave. 2002 pp 4-6.

(3) Meyendorff.J. op cit. pp 10-12.

الفكرة السياسية بين «مملكة الرب» و «الإمبراطورية الرومانية pax romana» .

وقد تأثرت روسيا بهذا المفهوم فيما بعد، فصبغت طموحتها السياسية بالبعد الدينى المستمد من دعم الكنيسة الأرثوذكسية، التى اعتبرت الحروب والتوسعات الجغرافية للإمبراطور الرومانى بمثابة خطوات على طريق إمبراطورية الرب التى ستسقط أمامها كل الدول والممالك[1].

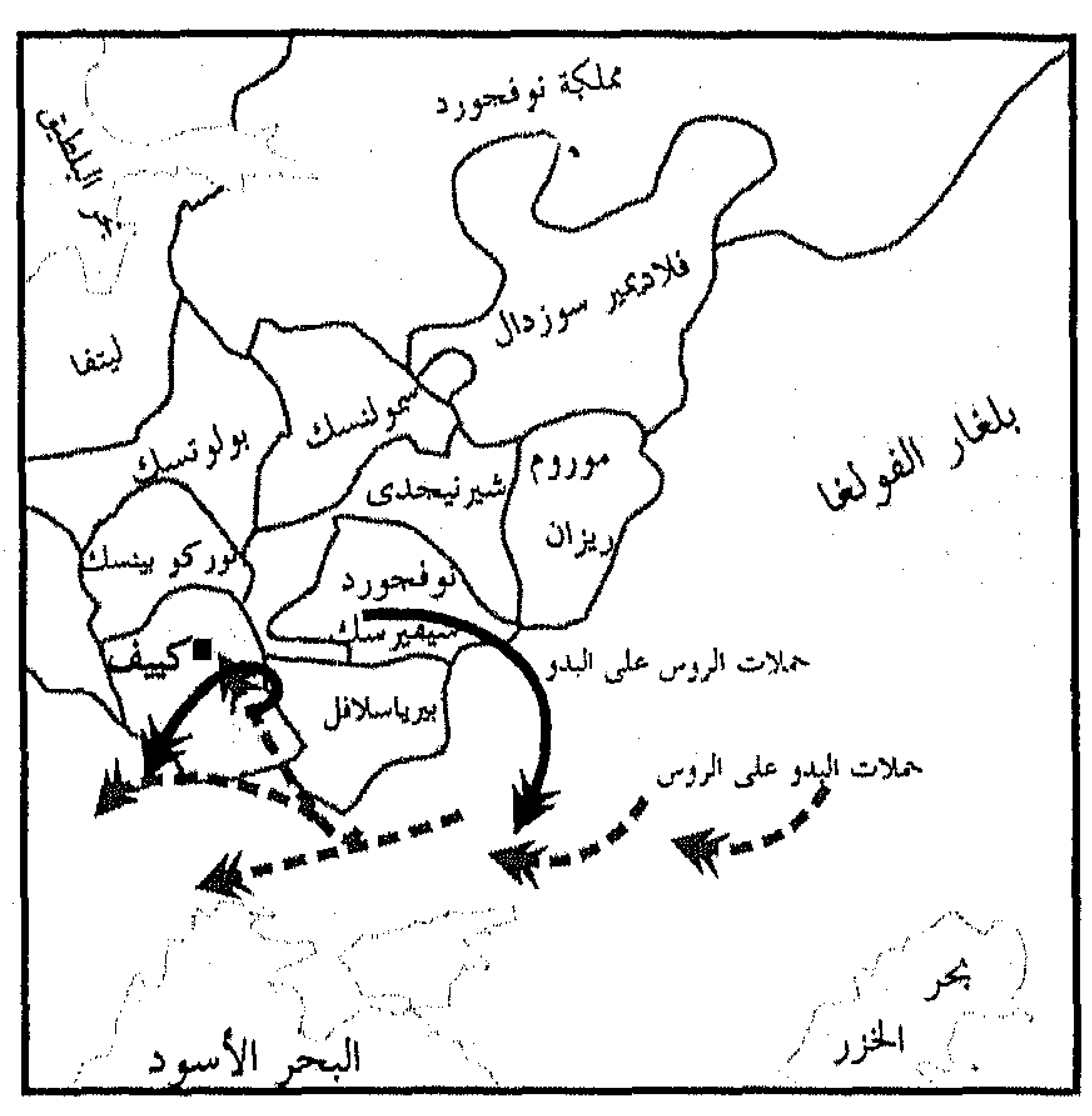
امتد عمر روسيا الفرنجية بين عامى ٨٦٢ و ١٠٥٤م قبل أن يتمكن أبناء الأمير فلاديمير من بسط سيطرتهم على المناطق المحيطة للعاصمة كييف، ولأن كييف كانت المركز فقد اصطلح الباحثون على تسمية تاريخ الدولة الروسية منذ منتصف القرن الحادى عشر باسم «روسيا كييف» ويمتد هذا التاريخ حتى منتصف القرن الثالث عشر حين سقطت فى أيدى المغول[2].

---

(١) يستشهد ميندورف (Meyendorff.J. 1981) بخطابات أرسلها البطريرك أنتونى إلى الأمير الكبير باسل فى موسكو عام ١٣٠٧ يقول فيها: «كيف يمكن تخيل أن تكون لدينا نحن المسيحيين كنيسة دون أن تكون لدينا إمبراطورية، ومن المستبعد أن نفصل إحداهما عن الأخرى». كما يؤكد ميندورف على أن روسيا تأثرت إلى جانب الدور السياسى بالدور الثقافى للكنيسة الشرقية .فحين شيدت أول وأهم كنيسة أرثوذكسية فى كييف (كنيسة القديسة صوفيا) سافر الفنانون اليونانيون ليضعوا إبداعاتهم، كما ترجمت القوانين اليونانية إلى اللغة السلافية، ونقلت الرموز المعمارية والفنية إلى الكنائس التى شيدت فى المدن الروسية التى خضعت لحكم الأمير فلاديمير وابنه يريسلاف وأهمها فى موسكو ونوفجورود.

(2) Barraclough.G . The times concise atlas of world history. London. Times Books..1997 p 45.

ومن مراجعة خريطة روسيا كييف (شكل رقم ٨) يتضح أن الرقعة الجغرافية هى ذاتها رقعة روسيا الفرنجية ولكن مع تنظيم إدارى بتقسيم السلطة على أبناء الأمير يرسلاف الذى خلف أباه فلاديمير، إضافة إلى الاقتراب أكثر من مملكة البلغار الإسلامية، وتأمين الحدود الجنوبية ضد غزوات البدو.



شكل (٨) خريطة روسيا كييف

حصلت الدولة الروسية الوليدة على حقل جغرافى فريد مهد لها صياغة محاور النمو السياسى والاقتصادى من خلال العلاقات مع الإمبراطوريات الكبرى فى تلك الأثناء، مسيحية وإسلامية ويهودية، جنبًا إلى جنب مع البدو الآسيويين. كما امتدت فى الرقعة الأوراسية المثالية التى شملت غرب آسيا، وشرق أوربا، والقوقاز، وحوض البحر الأسود؛ وهو ما مكن الروس من استكشاف الخريطة «النواة» التى

ستكون مسرحًا لثمانية قرون مقبلة وستشهد على أيديهم موجات متتالية من المد والتوسع.

غير أن القدر المحتوم الذى شهدته أوراسيا مع الزحف المغولى جلب على روسيا كارثة لم تكن متوقعة، حين سقطت فى أيدى خانات المغول لقرنين من الزمان.

فبين عامى ١٢٢٨ و١٤٦٢ اشتبك الروس مع الجيوش المغولية المحتلة فى مئات النزاعات والمعارك قبل أن يتمكن أمير موسكو من أن يحظى بثقة الخان المغولى، الذى فوضه فى جمع الجزية من بقية الإمارات التى كانت تتقاتل فيما بينها وتتسابق للتحالف مع المغول ضد بعضها البعض[١].

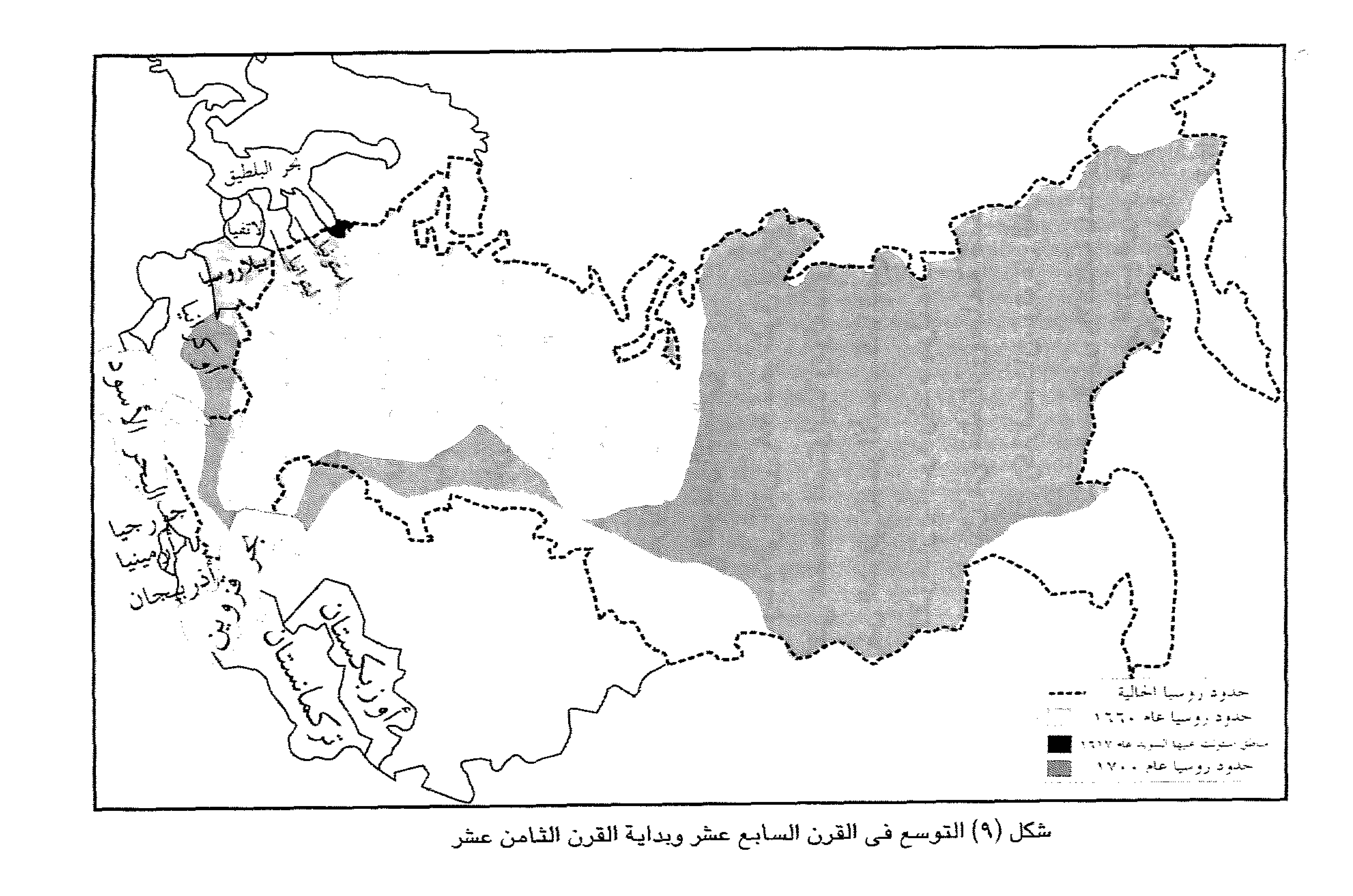
ازدادت إمارة موسكو أهمية ونجح أميرها إيفان الثالث، أو إيفان العظيم، (١٤٦٢–١٥٠٥م) فى تحقيق الاستقلال عن المغول، وبدأ فى عام ١٤٨٠م طريقه لتوحيد باقى الإمارات، ومعه تبدأ روسيا رحلة جديدة من تاريخها تعرف بروسيا الموسكوفية، ويعرف تاريخ روسيا منذ ذلك العهد بالتاريخ القيصرى[٢] .

التوسع فى الجهات الأربع

لم تكن الخريطة التى ضمها المغول كارثة جغرافية لروسيا حتى النهاية ، فقد فتحت أعين الروس على عالم شاسع امتد من كوريا فى شرق آسيا إلى المجر فى شرق أوربا، ومن سيبيريا فى الشمال إلى الهند فى الجنوب، مكونًا أول فضاء جغرافى أوراسى مكتمل.

(1) Shaw.D. Geopolitical, History, and Russian national identity. in Bradshaw.M (ed) Geography and transition in the Post-Soviet republics. Chichester. John Wiley & Sons..1997.P 34.

(2) Shaw.D. Ibid.



شكل (٩) التوسع فى القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر

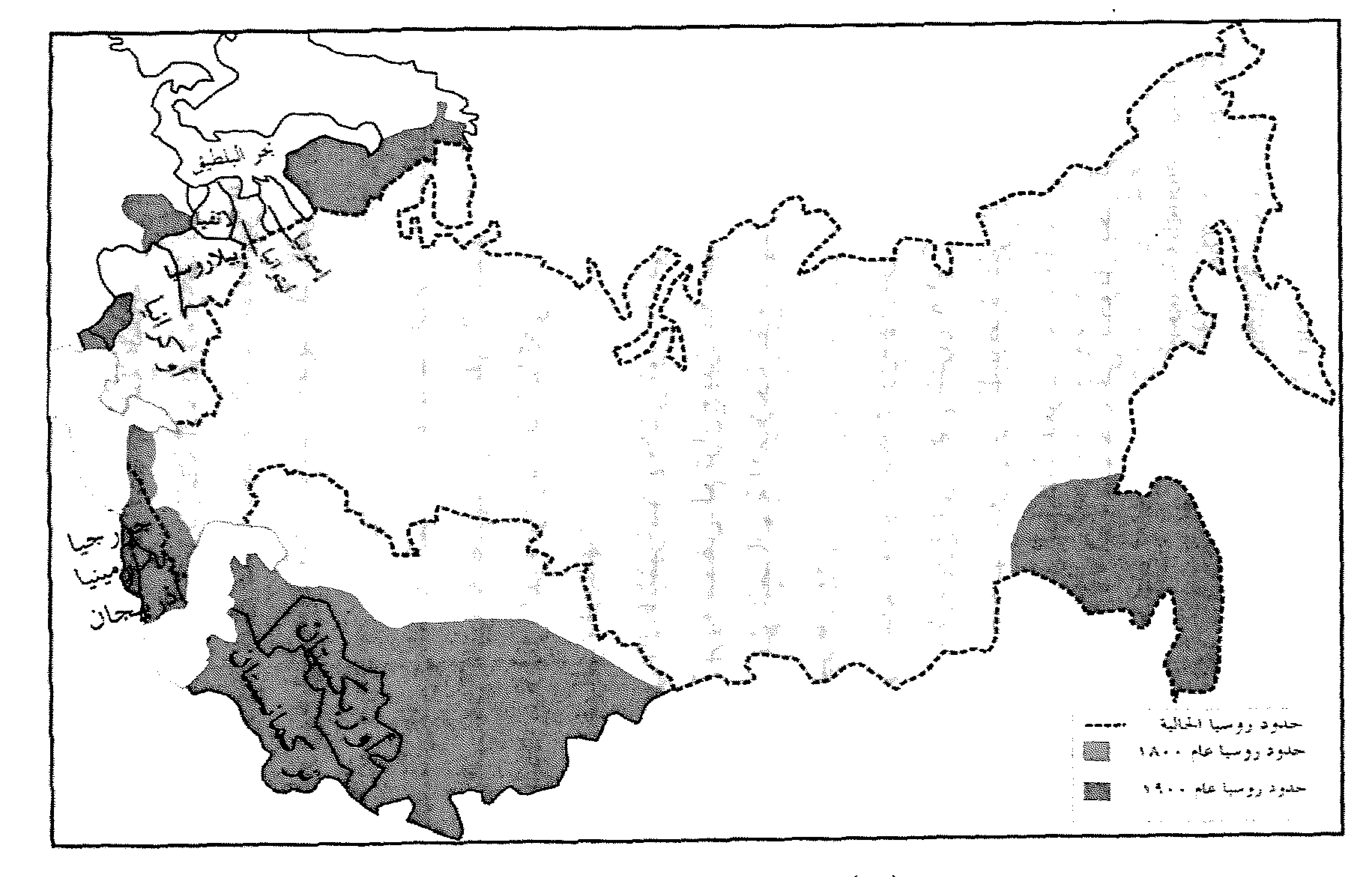
وبعد وفاة إيفان العظيم، أكمل فاسيلى الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣م) ثم إيفان الرابع المعروف بإيفان الرهيب (١٥٣٣-١٥٨٤م) أكبر عملية توسع جغرافى شهدها التاريخ الروسى منذ ميلاد الدولة الروسية، وتمكن كلاهما من الانتقال من «تجميع الأرض» إلى «ابتلاع الأعداء» أى تأمين الحدود بغزو الأقاليم المجاورة، وبشن حملات عسكرية فى الجهات الجغرافية الأربع، واستمرت هذه السياسة من عهد إيفان الرهيب إلى بداية عهد ميخائيل الأول فى عام ١٦١٣ الذى تبدأ معه حقبة آل رومانوف حتى سقوطها مع قيام الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧[1].

مع إيفان العظيم انطلقت محاور عملية البناء الكبرى للإمبراطورية الروسية فى الاتجاهات الأربع. وبينما تركز التوسع فى القرن ١٦على الجنوب الأوسط والشرق توجه التوسع فى القرن ١٧ نحو الجنوب الغربى، فشمل أراضى ما بين البحرين (الأسود وقزوين) ووصل فى نهاية هذا القرن إلى خط التماس مع القوقاز الشمالى.

وكان محور التوسع فى القرن ١٨ نحو شرق أوربا فتم الاستيلاء على الأراضى التى خضعت لليتوانيا وبولندا ووصل الروس إلى كوبيان فى الحوض الشرقى للبحر الأسود، كما نجح الروس فى القرن ١٩ فى إخضاع القوقاز بأسره وضم بولندا مكتملة ومشارف مولدوفا، فضلاً عن ضم كل من فنلندا، ومساحة ضخمة من وسط آسيا مثلتها منطقة التركستان وكازاخستان، وتوغل التوسع الروسى

(١) انظر فى توالى الحكم القيصرى، وفترات المد والجزر، والانتكاسة باحتلال البولنديين موسكو قبيل قيام أسرة رومانوف، والدور المحورى فى التوسع الروسى على يد بطرس الأكبر(١٦٨٩-١٧٢٥م) و يكاترينا العظمى(١٧٦٢-١٧٩٢م) دراسة:

Kennedy.P. The rise and fall of the great powers. New York. Random House,1997.



شكل (١٠) التوسع فى القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠

فـى هـذا الـقـرن عـبـر سـيـبـيـريـا لـيصـل إلـى آلاسكـا والـشرق الأقصـى وسخالين وجزر كوريل[1].

ويصنف ترينين Trenin عمليات التوسع السابقة إلى ثلاثة أنماط هـى «تـجـمـيـع الأرض» و«زحـزحـة الـحـدود» و«صـنـاعـة الـحـدود الاستراتيجية». وقد تمت عملية تجميع الأرض فيما بين القرنين ١٤ و١٦، أما زحزحة الحدود فقد اتبعتها روسيا منذ القرن ١٦ وحتى القرن ١٩.

ويقصد بالنوع الثالث المسمى «صناعة الحدود الاستراتيجية» التجارب الساخنة التى خاضتها روسيا على الجبهتين الغربية (مع أوربا) والجنوبية (فى القوقاز) ومع تركيا (فى الصراع على البحر الأسود) عبر إجمالى تاريخها[2].

لم يكن يعيب تلك الإمبراطورية التى توسعت فى كل اتجاه سوى كونها إمبراطورية برية محض، لم تزاوج بين جغرافية البر وجغرافية الـبـحـر، وظلت الـبـحـار الصـالـحـة للـمـلاحـة تقـع بـعيدة عـلـى أطـراف وهوامش تلك الإمبراطورية.

وللحصول على منفذ بحرى، أشعلت روسيا حروب بحر البلطيق لإقامة مدينة سان بطرسبرغ فى مطلع القرن ١٨، كما اندفعت نحو البحر المتوسط عبر حروبها مع تركيا للسيطرة على البحر الأسود، بل إنها تقدمت إلى البحار الداخلية فغزت شمال فارس فى النصف الأول من القرن ١٨ (١٧٢٢م) ونجحت فى تحويل بحر قزوين إلى

---

(1) Barraclough.G . op cit p 85.

(2) Trenin.D. The End of Eurasia, Russia on the border between geopolitics and globalization. Washington. Carnegie endowment for international peace.2002. p 37-45.

بحيرة روسية. كما تمكنت من إقامة واحد من أهم موانيها فى التاريخ وهو ميناء فلاديفاستوك (المفتوح للملاحة طوال العام) على المحيط الهادئ باحتلال أراض إلى الشرق من نهر آمور، وهى منطقة بالغة الأهمية الجيوبوليتيكية اقتطعتها من الصين فى عام ١٨٦٠[١].

لم يكن كافيًا للروس أن يصنعوا وطنًا داخل حدود إثنية تضم السلافين فحسب، بل سرعان ما توجه الشيوعيون إلى ضم أراض شاسعة وإثنيات وقوميات متعددة فى رقع جغرافية مترامية، فى طموح للإمبراطورية لم يختلف عما نهجه القياصرة، لكن الشيوعيين لم يأتوا بجديد، فكما يلاحظ ترينين فإن موسكو لم تكن تسمى حروبها بالحروب «الوطنية» إلا حينما يتهدد الجنس الروسى، فلم تسم مثلاً غزو نابليون لأراضيها فى عام ١٨١٢ حربًا وطنية إلا بعد أن كان نابليون قد قطع أكثر من ٥٠٠ كم فى غرب روسيا وصار يقترب من موسكو[٢].

ويبدو أن التعدد الإثنى الكبير الذى شهدته الدولة الروسية فى خلال مراحل بنائها عبر القرون لم يكن يعطى الفرصة لصياغة بناء الدولة على أساس قومى، إلا فيما يمكن تسميته بمحاباة السلطة لسكان المركز (الإثنية السلافية الوطنية) على حساب سكان الأطراف (الغرباء على أطراف الدولة).

بل إن الروس أنفسهم قد عانوا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من شرخ قومى سببه تفرقة البناء الاجتماعى

(1) Donaldson.R & Nogee. J. The foreign policy of Russia. Changing Systems, Enduring Interests. London. Sharpe.Inc 2002 p25.

(2) Trenin.D. op cit. p 66-67.

والاقتصادى – فى ظل النظام الإقطاعى الذى ساد أغلب القرن التاسع عشر– بين فلاحين فقراء وصفوة من النبلاء المستغربين المتأثرين بالثقافة الألمانية والفرنسية(١).

لم تكن هناك دولة – يلاحظ حمدان– معزولة بالطبيعة وحبيسة عن عالم المعمور كروسيا، فهى وإن بدت ساحلية شكلاً فهى قارية موضوعًا فشمالاً المحيط المتجمد، وجنوبيًا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة، وشرقًا فراغ المحيط الهادئ الهائل، ما جعل روسيا – يقول حمدان – رهينة المحبسين: صحراء الجليد وصحراء الرمل. وحين سعت إلى الفكاك من الانحباس اصطدمت لا محالة بقوى البحر فيما يمكن تسميته «بجيوبوليتيكيا درجة الحرارة»(٢).

خلقت روسيا مفهوم النطاقات العازلة، فضمت فنلندة فى عام ١٨٠٩ لتصنع منها منطقة عازلة بينها وبين السويد، ولتحقيق الحماية لمدينة سان بطرسبرغ على بحر البلطيق، كما أن استيلاء روسيا على إقليم القوقاز بين ١٨٠١ و ١٨٢٩ مكنها من خلق منطقة عازلة بينها وبين تركيا وإيران.

كما ضمت أواسط آسيا فى النصف الثانى من القرن ١٩ لتجعلها مناطق عازلة بينها وبين بريطانيا فى الهند والشرق الأوسط ،

(1) Tuminez.A. Russian Nationalism and Vladimir Putin's Russia. PONARS Policy Memo 151.American International Group, Inc. and Council on Foreign Relations. (Internet materials).

(٢) حمدان، جمال، استراتيجية الاستعمار والتحرير.. القاهرة. دار الهلال ١٩٦٩ ص١١٩–١٢١.

واتفقت مع بريطانيا - فى اللعبة الكبرى- على إبقاء أفغانستان منطقة عازلة محايدة بينهما، ولم تكتف روسيا بذلك بل قسمت مع بريطانيا إيران إلى شطرين يحترم كل طرف منهما نفوذ الآخر، وفى ذات الوقت بقيت تركستان الشرقية (فى غرب الصين الآن) نطاقًا عازلاً بين روسيا والصين[١].

ففى النصف الأول من القرن ١٨ دعم بطرس الأكبر الرحالة فيتوس بيرنغ (الدانماركى الأصل) لاكتشاف الخلجان والمضايق والجزر التى صارت تحمل اسمه فيما بعد. ومن مضيق بيرنغ استكمل الروس الوصول إلى آلاسكا وأقاموا قلعة روس Ft.Ross على الساحل الشمالى الغربى لكاليفورنيا قبل أن يسقطها الإسبان. وقد عرفت تلك المناطق فى تاريخ روسيا باسم «أمريكا الروسية» التى تخلت عنها للولايات المتحدة طواعية ودون حرب فى عام ١٨٦٧ لتطرف الموقع وعزوف الروس عن الوصول إليها، وذلك مقابل سبعة ملايين دولار[٢].

ولعله حدث فريد ونادر فى تاريخ روسيا تبيع فيه أرضًا كسبتها، وحدث نادر وفريد للولايات المتحدة دفعت فيه ذلك المبلغ الضخم آنذاك مقابل «صندوق من الثلج»[٣]. ولعله خطأ جغرافى وجيواستراتيجى، ولم يكن بوسع روسيا قراءة الغيب لتعرف أن ذلك الصندوق الثلجى سيستحيل إلى كنز نفطى كبير[٤].

---

(1) Trenin.D. op cit. p 47-4.

(٢) بالاندين وماركين أعظم مائة كشف جغرافى. موسكو. دار فيتش، ٢٠٠٠. ص ١٠٢ (باللغة الروسية).

(3) Berger.E. New Russia' is worth knowing. Fairbanks Daily News-Miner (Alaska) , August 1.2003.

(4) Pravda. Farewell to Alaska, Russia sold Alaska for seven million dollars. March 14, 2003.

وحين ولجت روسيا إلى القرن العشرين كانت قد صنعت أكبر إمبراطورية بلغتها موسكو فى تاريخها ، فقد اتصلت حدودها من مشارف اليابان والصين حتى تخوم الإمبراطوريات الأوربية حين تماست مع ألمانيا والنمسا-المجر ورومانيا ، وامتدت شمالاً من الدائرة القطبية بلا منافس حتى تماست فى الجنوب مع الإمبراطورية العثمانية فيما وراء القوقاز وفى حوض البحر الأسود ، ووصلت إلى فارس وحدود الإمبراطورية البريطانية فى أفغانستان والهند.

كان القرن العشرون يخبئ لروسيا الكثير، فحين حاولت استكمال منهجها واشتبكت فى حرب جديدة مع اليابان (١٩٠٤-١٩٠٥) كانت القوى الاستعمارية الأوربية (فرنسية وألمانية وبريطانية) تصارع القوى الإقليمية (اليابان والصين وروسيا) الأمر الذى أدى إلى خسارة روسيا منطقة منشوريا فى حربها مع اليابان والتى كانت قد ضمتها فيما بين ١٨٩٧و١٩٠٤[١].

كانت هزيمة روسيا فى هذه الحرب -والتى اعتبرها لينين حربًا إمبريالية أريقت فيها دماء فلاحى روسيا الأبرياء- سببًا فى ثورة ١٩٠٥ التى ثار فيها العمال والفلاحون ضد تسلط رأس المال وضد أرباب العمل الانتهازيين، وقد نقلت هذه الثورة روسيا إلى معرفة الإضراب الإيجابى بدلاً من تقديم عرائض المطالبات الواهنة[٢] .

الخطوة التالية كانت متوقعة، روسيا تلقى هزيمة فى الحرب العالمية الأولى تنسحب على أثرها إلى داخل ديارها، وحين تشتعل الثورة الشيوعية فى أكتوبر ١٩١٧ فى ظل أجواء الجوع والاضطراب والفوضى

(1) Barraclough.G .op cit. p 107.

(٢) لينين . تقرير عن ثورة ١٩٠٥.. المختارات فى عشرة مجلدات، المجلد ٦، صفحات ٢٣٧ إلى ٢٦٢، موسكو. دار التقدم، طبعة ١٩٧٧ (نقلاً عن : www. marxists.og).

وسقوط القيصرية، تسارع فنلندا وليتوانيا وإستونيا ولاتفيا وبولندا وأوكرانيا وملدوفا للاستقلال عن الإمبراطورية الروسية.

لكن ذلك لم يكن كل شيء، فقد دخلت القوات الأوربية إلى الأراضى الروسية فى محاولة لإنقاذ النظام القيصرى من السقوط، فاندفعت على المحور الغربى فى شرقى أوربا، والجنوبى فى القوقان، لنجدة قوات القيصر (البيض) أمام ثورة الشيوعيين (الحمر) ، فيما عرف بالحرب الأهلية الروسية.

من إمبراطورية إلى فدرالية

ربما كان فلاديمير لينين (١٩١٧-١٩٢٢) استثناء فى خطط التوسع فى تاريخ روسيا، فلم يكن لدى قائد الثورة الشيوعية وقتٌ ليفكر فى توسعة الرقعة الجغرافية لروسيا فى وقت كانت بلاده تشهد حربًا أهلية واضطرابًا داخليًّا لإرساء الفكر الشيوعى وإخراج القوات الأجنبية خارج البلاد .

لكن جوزيف ستالين (١٩٢٢-١٩٥٣) عاد إلى الفكر الروسى القديم المغرم بزحزحة الحدود والتوسع، وتمكن من استدعاء سياسة تأمين التخوم خلال تحضيره للمواجهة مع ألمانيا فضم كاريليا الفنلندية ودول البلطيق فى عام ١٩٤٠، بعد أن كانت تلك الدول قد تمتعت باستقلالية انتقالية حين سقطت القيصرية فى عام ١٩١٧. وتمكن بعد الانتصار فى الحرب العالمية الثانية من السيطرة على القسم الشمالى من ألمانيا الشرقية، وشرق بولندا، وشرق رومانيا[1].

(1) Ruhl.L. The historical background of Russian security concepts and requirements. in Baranovsky.V (ed) Russia and Europe: the Emerging Security Agenda. Sipri, Sweden. Stockholm International Peace Research Institute,.1997 p 28.

وبالأيديولوجية الشيوعية ، نالت السلطة السوفيتية من كل ما هو قيصرى باعتباره برجوازيًا استغلاليًا، فأكدت على نظرة القياصرة إلى الشعوب غير السلافية من المغول والتتر والطورانيين باعتبارهم أجانب منحطين، وظيفتهم تقديم العمل الرخيص وموارد الثروة للقلب المركزى، ومن ثم يحتفظ التاريخ الشيوعى بنداء لينين الشهير فى بداية الثورة الشيوعية للشعوب غير السلافية واعدًا إياهم بتعويضهم عما لاقوه من كبت وقهر فى «سجن الأمم الكبير»[١].

سرعان ما تمكنت الشيوعية من إخماد المطامح القومية، فاعتبرت القومية محض أوهام، ومجتمعات متخيلة تستند إلى أساطير ملفقة ورموز مختلقة. واستخدمت فى سبيل ذلك سبلاً قسرية مختلفة، ونادت تلك الأيديولوجية بتجاوز الإثنيات والقوميات؛ لأن المجتمع الشيوعى لا يفرق بين المواطنين على أسس عرقية. وانتشرت فى أوساط علماء الإثنولوجيا دعوة للتخلى عن مفهوم القومية لأنها ليست سوى مفاهيم تستخدم كشعارات سياسية، ووسيلة لحشد الجماهير فى المجتمعات غير الشيوعية[٢].

وبالإضافة إلى ضم الدول والأقاليم ، تمكنت الأيديولوجية الشيوعية من التوسع الجغرافى دون غزو عسكرى، فاخترقت التخوم وسافرت عبر المحيطات. وبوصف بريجينسكى فإن الشيوعية هيمنت فى منتصف القرن العشرين على أكبر وأوسع مقاطعات العالم من نهر الألب فى وسط أوربا إلى خليج كمتشتكا وشنغهاى وكوريا وفيتنام.

(١) النقيب، عبد الرحمن، أثر الثقافة السوفيتية على الأقلية المسلمة بالاتحاد السوفيتى، الأقليات المسلمة فيالعالم، ظروفها المعاصرة ، آلامها وآمالها، الرياض. دار الندوة العالمية للطباعة والنشر.١٩٩٩ ص ٦٥.

(٢) تيشكوف.ف. النظرية والتطبيق فى الإثنيات فى روسيا. موسكو ١٩٩٧ص ٨٥ (نقلاً عن جادجييف، مرجع سابق، ٢٢٢). (باللغة الروسية).

بل تمكنت الأحزاب الشيوعية فى أوربا الغربية من الوصول إلى السلطة، وصارت الأيديولوجية الماركسية بين المفكرين الأوربيين هى المثال والمنهج، بل عبرت الشيوعية المحيط الأطلسى لتجتاح أمريكا اللاتينية.

وقد استشهد بريجينسكى فى هذا الصدد بما قاله أحد كبار الشيوعيين فى بولندا معربًا عن البعد الجغرافى للشيوعية حين عبر متحمسًا: «إن الاتحاد السوفيتى بالنسبة لنا ، نحن أعضاء الحزب، هو الوطن الأم، وإنى لا أستطيع تعيين حدودنا الآن، فاليوم هى خلف برلين، وغدًا خلف جبل طارق»(١).

كما التفت الاتحاد السوفيتى - فيما عرف اصطلاحا بالحرب الباردة والحرب بالوكالة- إلى العالم الثالث الذى بدا احتياطيا استراتيجيا هائل الحجم للشيوعية. فعززت موسكو حضورها فى ذلك العالم بالسلاح والخبرات الفنية والمساعدات الاقتصادية فى مناطق متباينة، شملت العالم الجنوبى بأسره، من آسيا الجنوبية إلى الشرق الأوسط وإفريقيا وصولا إلى أمريكا اللاتينية(٢).

وفى نهاية الثمانينيات كانت الحركات القومية تمثل للبناء الشيوعى خطرًا بالغًا توقع معه بريجينسكى أن يؤدى إلى «أزمة بقاء ووجود للاتحاد السوفيتى». وقد صدقت توقعاته ليس فقط على البناء السوفيتى بل على الخريطة الروسية ذاتها.

(١) بريجينسكى، زبينجو. الفشل الكبير : ميلاد وموت الشيوعية فى القرن العشرين، ترجمة ميشيل سليمان. عمان. مركز الكتاب الأردنى ١٩٨٩، الصفحات ١٥ ، ٢٠ ، ٥٧.

(2) Donaldson.R & Nogee. J. op cit. p88-90.

فقبل سقوط الشيوعية كان بريجينسكى يلفت نظر قارئه إلى أن ذلك الاتحاد الضخم تحكمه أقلية سلافية مع تمثيل رمزى لأغلبية من القوميات الأخرى.

كان السلاف فى نهاية التسعينيات قد ارتفع عددهم بنسبة ١٩ ٪ فى وقت كانت باقى القوميات، وخاصة فى وسط آسيا، قد زادت بمعدل ٧٥ ٪، وهو ما عد «العدو الكامن» فى داخل البيت السوفيتى[١].

وقد ساهمت الحركات القومية فى كل من دول البلطيق ومولدوفا فى نشر الفكر الانفصالى فى بقية أنحاء الاتحاد السوفيتى، وكان للمناطق المتنازع عليها بين الجمهوريات السوفيتية دور فى إحساس تلك الجمهوريات بالدور السلبى الذى تتخذه موسكو حيال قضاياها القومية، فسعت إلى الحصول على مطالبها بأيديها، وهو ما تجسد فى الصراع بين القوميتين الأرمينية والأذربيجانية على منطقة كاراباخ فى نهاية الفترة السوفيتية، والذى تحول إلى حرب كاملة بعد تفكك الاتحاد السوفيتى[٢].

ظلت خريطة الاتحاد السوفيتى دون تغير منذ مكاسبها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وحتى ديسمبر من عام ١٩٩١. ففى ذلك العام، حين انفرطت حبات عقد الاتحاد، فقدت روسيا دول البلطيق وأوكرانيا وبيلاروسيا ومولدوفا، ليتزحزح موقعها الجغرافى من الغرب، ويقترب أكثر نحو الشرق الآسيوى.

---

(١) بريجينسكى، الفشل الكبير، مرجع سابق ص١٢٧، ١٢٨.

(2) Kaiser. R. Nationalism and Identity. . in Bradshaw.M.(ed) op cit. P 21.

كما كان استقلال دول القوقاز الجنوبي الثلاث، ودول آسيا الوسطى، خسارة جيوبوليتكية أخرى لروسيا، لتأثيرها على الأمن الإقليمي للبيت الروسي[١] .

هكذا انكمشت مساحة روسيا الإمبراطورية من جديد. فبينما كانت مساحتها في القرن ١٩ نحو ٩ ملايين ميل مربع -وهو ما يعادل سدس مساحة اليابسة- وحافظت الشيوعية على هذه المساحة حين بلغت رقعة الاتحاد السوفيتي المساحية ٨,٦ مليون ميل مربع، انكمشت روسيا بعد ديسمبر ١٩٩١ إلى ٦,٦ مليون ميل مربع، لكن علينا أن ننتبه إلى أنها ما زالت رغم هذا كبرى دول العالم وأكبر بنحو مرتين من كندا ثانية دول العالم مساحة[٢].

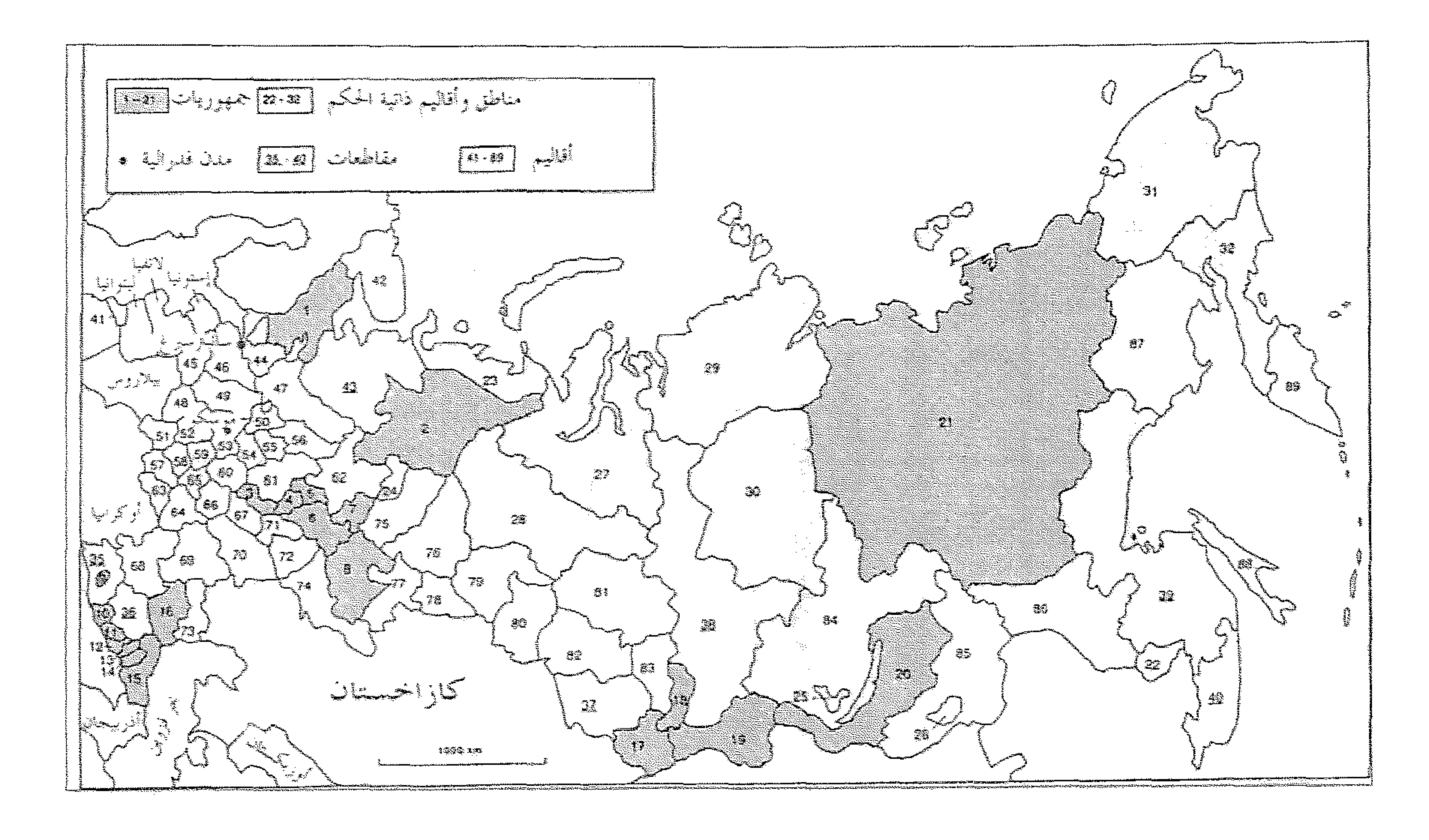
بدت روسيا بعد انهيار السوفيتية تتعرض لتأثير قوى الطرد المركزية، التي أدت إلى انهيار البناء السوفيتي، ومما زاد القلق في روسيا الجديدة أن الروس حين تفكك الاتحاد السوفيتي لم يشكلوا في دولتهم الأغلبية المساحية - كحال التشيك والسلوفاك مثلا- إذ لم تكن المساحة الجغرافية التي يعيش فيها الروس في «روسيا» تزيد عن ٥٠ ٪ من إجمالي مساحة الدولة[٣].

لكن سرعان ما تغير الهم الروسي، وانشغلت موسكو عن اللحاق بالجمهوريات والمناطق التي تفككت إلى الانشغال بإيجاد علاج للبناء الفدرالي الذي تتألف منه والذي سميت معه بـ «الاتحاد الفدرالي Russian Federation».

(١) جادجييف. جيوبوليتيكا القوقاز. موسكو. دار العلاقات الدولية ٢٠٠١ ص ١٨٦ (باللغة الروسية).

(2) Donaldson.R & Nogee. J. op cit. p 17.

(3) Lapidus. G & Walker. E. Nationalism , Regionalism, and Federalism. In Lapidus. G (ed) The New Russia: troubled transformation. San Francisco. Westview Press.. 1995. p 81-85.



شكل (١١) التركيب الفدرالي لروسيا

تمثل خريطة الفدرالية الروسية نمطاً معقدًا من التنظيمات الإدارية والمساحية تتنوع فيها أشكال وأسس بناء الوحدات ورسم الحدود (شكل ١١). وقد أرسى قانون الفدرالية الجديد فى ١٩٩٣، حين أقر الرئيس بوريس يلتسين الاحتفاظ بحدود الوحدات الإدارية لجمهورية روسيا المستقلة عن الاتحاد السوفيتى. ومن بين ٨٦ وحدة إدارية، بنيت ٣٦ منها على أسس عرقية، ومن بين هذه الأخيرة حملت ٢١ جمهورية اسم الإثنية الأشهر بين سكانها.

غير أن ثمة شكًا كبيرًا حول حقيقة تمثيل ذلك البناء الفدرالى للممارسات الديموقراطية للعلاقة التى تحكم مناطق الأطراف بالمركز. فى ظل عدم حصول المطالب العرقية فى ذلك البناء على حقوقها الثقافية. كما أن تلك الوحدات الفدرالية ترتبط ارتباطًا اقتصاديًا بمصالح المركز. كما تعانى كثير من الوحدات الفدرالية للمجموعات المبنية على أساس عرقى من انخفاض مستوى المعيشة مقارنة بالمركز[1].

وخطورة الحدود الفدرالية الموروثة أنها تحمل جينات التاريخ القيصرى والسوفيتى الذى اعتمد على أسس متضاربة. فقد بنيت بعض هذه الوحدات على أسس من الجغرافية الطبيعية ، وبعضها على أسس إثنولوجية ، وبعضها رسمته السلطة المركزية متعمدة أن تضم عدة أعراق فى جمهورية تحمل اسم عرق دون باقى الأعراق، كما كان الحال فى القوقاز، وفى أحيان أخرى تشطر القومية الواحدة بين

(1) Smith. G. The ethno-politics of federation without federalism. in Lane. D (ed) Russia in transition: politics, privatization and inequality. London. Longman.,1995 pp 21-22.

جمهوريتين كما يعانى التتر الآن من انشطارهم بين جمهوريتى تترستان وبشكورتوستان[١].

ومع تسليم بعض علماء الجغرافيا السياسية الروس بعدم فاعلية الفدرالية فى التمثيل السياسى والثقافى والاقتصادى، إلا أنهم يحذرون من مغبة التوظيف السريع لكافة جوانب النموذج الفدرالى، فطبيعة الفدرالية الروسية تختلف عن نظيرتها فى دول أخرى كالولايات المتحدة وألمانيا والهند وغيرها من الدول[٢].

وقد دفعت مخاوف تفعيل الفدرالية لأن يعبر أُلشانسكى عن تخوفه من انفراط عقد الدولة حين قال: «يبدو أنه لا مفر من أن نتجرع الكأس حتى الثمالة، بالأمس انهدم البيت السوفيتى، واليوم تتهدم روسيا، وما الشيشان إلا مشهدٌ فى فصول تهدم البيت، أما بقية المشاهد فستتوالى بخروج مناطق الحكم الذاتى تعقبها الأقاليم، ثم يتوالى انفصال وحدات أصغر فأصغر حتى تتشرذم روسيا العظمى»[٣].

كان لهذه المخاوف ما يبررها، فحين أعلن عن تفكك الاتحاد السوفيتى أعلنت الشيشان عن استقلالها، وسعت جمهوريتا تترستان وبشكورتوستان إلى السيادة والاستقلال، وأعلنت جمهوريات الأورال عن تبنى الفرنك الأورالى كعملة محلية بدلاً من الروبل الروسى، بل إن منطقة تيومين الغنية بالنفط – ومسقط

---

(1) Hooson. D. Ex- Soviet identities and the return of geography. In Hooson. D (ed) Geography and national identity. Oxford . The institute of British Geographers. 1993.p136.

(٢) جادجييف. مرجع سابق ص ١٩٠.

(٣) فى مقال بصحيفة نيزافيسميا غازيتا بتاريخ ١٧ يناير ١٩٩٢. (نقلاً عن جادجييف. مرجع سابق. ص ١٨٦).

رأس الرئيس الروسى بوريس يلتسين - تبادلت السفارات مع دول خارجية مثل أوكرانيا، كما قامت جمهورية سخا -ياكوتيا فى الشرق الأقصى والغنية بالماس بإجراء مفاوضات تجارية مع كبرى شركات الماس فى العالم دون الرجوع إلى الحكومة المركزية فى موسكو معتبرة أنها تقوم بخطوة على طريق الاستقلال كما سكت لنفسها عملة خاصة[1].

لكن أكثر المشاهد خطورة كان فى الشيشان حين تعرضت روسيا لأول اختبار فعلى للحفاظ على رقعتها الجغرافية، فاشتبكت مع الشيشان فى حرب كان شعارها للشيشانيين «الحصول على ما حصلت عليه الجمهوريات المستقلة فى القوقاز وآسيا الوسطى والبلطيق» بينما سعت موسكو إلى «ردع كل من تسول له نفسه النيل من وحدة الأراضى الروسية».

وحين انتهت حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦) بفشل روسيا فى الاختبار وحققت الشيشان خطوات مهمة على طريق الانفصال، كان التاريخ الروسى يشهد أخطر لحظاته المعاصرة حين كادت موسكو تخسر موقعًا جغرافيًا شديد الحساسية عند حدودها الجنوبية، ولعل ذلك ما عجل بعودة روسيا فى عام ١٩٩٩ لشن هجوم شامل وكاسح يعيد الجمهورية إلى قبضة المركز من جديد، وهو ما تحقق بالفعل بين عامى ٢٠٠٠ و٢٠٠٥.

(1) Alexseev. M. Challenges to the Russian Federation. In Alexseev. M (ed) Center-Periphery conflict in Post-Soviet Russia. New York. St. Martin's Press..1991 P 1.

معضلة الديموغرافيا

تقترب نسبة الروس فى روسيا الجديدة من ٨٠٪ من إجمالى السكان، مما يجعلها دولة ذات هيمنة عرقية، يسيطر فيها الروس على الأغلبية السكانية فى أغلب الجمهوريات التى تحمل اسم إثنية معينة titular nationality . كما لا تشكل هذه الإثنيات غير السلافية الغلبة السكانية سوى فى خمس جمهوريات من ٢١ جمهورية، وذلك فى كل من الشيشان والتشوفاش وأوسيتيا الشمالية وتوفا وإنغوشيا، فضلاً عن أن الروس يشكلون الأغلبية المطلقة فى تسع جمهوريات وأغلبية فى ثلاث أخرى[1].

لكن المستقبل قد لا يضمن بقاء الهيمنة الديموغرافية الروسية، إذ تعانى روسيا من تناقص متوالٍ لسكانها منذ عام ١٩٩٢، بلغ مجموعه ٣,٥ مليون نسمة. ومنذ عام ١٩٩٩ تفقد روسيا ثلاثة أرباع مليون نسمة كل سنة، ويتضافر ذلك مع تدنى مكانة روسيا فى قائمة دول العالم من حيث قدرة المرأة على الإنجاب التى تحتل فيها روسيا المرتبة رقم ١٤١.

الأمر يزداد خطورة حينما نعرف أن عدد سكان روسيا قد يتناقص حسب المعدلات الحالية من ١٤٤ إلى ١٣٠ مليون نسمة فى عام ٢٠١٥ ، بل قد يتناقص إلى مجرد ٧٠ مليون نسمة فى ٢٠٥٠ إذا ما استمر انخفاض معدلات الإنجاب، وهجرة الشباب، واستمرار الحروب التى تخوضها روسيا. وبينما سيتناقص سكان روسيا خلال الخمس

(1) Lapidus. G & Walker. E. op cit. p 87.

عشرة سنة القادمة بنحو ٦ ٪ فإن عدد السكان فى مناطق روسيا الإسلامية ، كالقوقان، سيزيد بنحو ١٣ ٪[١].

يصل التهديد الديموغرافى إلى منعطف خطر حين يشير معدل النمو السكانى فى عام ٢٠٠٥ إلى نمو بالقيم السالبة، حيث يتناقص عدد السكان سنويًا بمعدل -٠,٣٧ ٪ مما أدى إلى فقدان روسيا فى عام ٢٠٠٥ لنحو ٥٣٠,٠٠٠ نسمة[٢].

بل إن دائرة الإحصاء الروسية قدمت جرس إنذار أكثر خطورة حين أعلنت أن عدد سكان روسيا بلغ فى نهاية عام ٢٠٠٥ ١٤٢,٩ مليون نسمة، منخفضا منذ بداية العام بمقدار ٦١٥,٥ ألف نسمة. وقد تفاقم هذا التناقص خلال الأشهر العشرة الأولى من عام ٢٠٠٥ مقارنة مع نفس الفترة من عام ٢٠٠٤ بخسارة سكانية إضافية مقدارها ٥٧,٠٠٠ ألف نسمة[٣].

وإلى جانب التناقص العددى ثمة تدهور نوعى عبر عنه دراميا زعيم الحزب الشيوعى غينادى زيجانوف بقوله «بينما طال ارتفاع الأسعار كل السلع فى روسيا فإن الفودكا (مشروب الخمور الرئيسى فى روسيا) بقيت دون ارتفاع، وباتت أسعارها أرخص بثمانى مرات عن الخبز، وهو هدف مكشوف للبرجوازية الاستغلالية التى تسعى إلى تغييب الشعب، كما أن صحة الأمة الروسية تتعرض للتدهور

(١) فاجانوف، أندريه. الغزو الديموغرافى الآسيوى لروسيا، نيزافيسميا جازيتا عدد ٨ يونيو٢٠٠٢ (باللغة الروسية).

(2) CIA fact book. (www.cia.gov).

(٣) وكالة الأنباء الروسية نوفستى. انخفاض عدد سكان روسيا خلال عشرة أشهر. بتاريخ ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٥ (عن موقع الوكالة على الإنترنت).

المستمر. ويكفى أن نعرف أن ٨٦ ٪ من أطفالنا مرضى، لن نكون مخطئين إذن إذا سمينا ما تتعرض له أمتنا «بالإبادة الجماعية»[١].

لكن الخطر الديموغرافى الذى تعيشه روسيا ليس حديثًا على نحو ما تظهر كلمات زيجانوف المؤثرة. فلقد شهدت روسيا ثلاث حالات من الانكماش السكانى نتيجة أحداث وتغيرات مصيرية خلال مائة السنة الماضية. وكان أولها الانكماش الديموغرافى بسقوط ملايين القتلى فى الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من حرب أهلية داخل روسيا. وفى المرة الثانية كان القمع السياسى ومجاعة الثلاثينيات هى السبب، ثم كانت المرة الثالثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وما تشهده روسيا اليوم من تناقص سكانى يعتبر الحدث الرابع فى سجل حوادث الانكماش الديموغرافى، وإذا كانت روسيا فى الحالات الثلاث الأولى قد عوضت خسائرها فى وقت قصير من عمر الأزمة بسبب ارتفاع معدلات الإنجاب لدى المرأة الروسية فى القرن الماضى فإن الأزمة الأخيرة يزيد من مخاطرها انخفاض معدلات الإنجاب بشكل ملحوظ فى وقت تتزايد فيه معدلات وفيات الأطفال والبالغين بمستوى لا تعوضه نسبة المواليد المنخفضة، وفى ذات الوقت يشهد السكان فى روسيا انخفاضًا فى أمد الحياة (متوسط العمر المتوقع أن يحياه المرء) بنحو ثلاث سنوات عما كان عليه إبان الشيوعية[٢].

(1) Zyuganov's Report to third CPRF congress, Sovetskya Rossiya, 24 Jan 1995.

(2) Vishnevskii. A. The Demographic potential of Russia. Russian Social Science Review, vol.40 no. 4, July-August,1999 pp.4-13.

ويجب أن نلاحظ أن مشكلة انخفاض معدلات النمو الطبيعى للسكان (أى نمو السكان نتيجة الفارق بين الوفيات والمواليد دون حساب الهجرة الداخلة أو المغادرة) ليست وليدة التحول من الشيوعية إلى الرأسمالية، فمؤشرات التناقص حاضرة منذ ستينيات القرن العشرين، حينما هبط معدل الزيادة الطبيعية عام ١٩٥١ من ١٧,٥ فى الألف (أى زيادة السكان سنويًا بمعدل ١٧,٥ طفل لكل ألف نسمة من السكان) إلى ١٠ فى الألف عام ١٩٦٧، ثم إلى ٧ فى الألف فى عام ١٩٦٤، ثم إلى أقل من ٦ فى الألف خلال الثمانينيات. لكن الأزمة الحقيقية بدأت مع عقد التسعينيات حينما تحولت الزيادة الطبيعية إلى تناقص يعبر عنه بالقيم السالبة. وتبدو المشكلة مركبة حين نعرف أن روسيا لا تنفق على قطاع الرعاية الطبية سوى ٣٪ من الناتج المحلى بينما تنفق دولة مثل الولايات المتحدة ١٤٪[1].

كما أن ٧٥٪ من الوفيات التى شهدتها روسيا خلال النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين ارتبطت بأمراض شرايين القلب، والحوادث العنيفة، وهو ما يرجع إلى عاملين رئيسيين، الأول هو انهيار مستوى الرعاية الطبية، والثانى حالات الإجهاد العصبى التى أصابت المواطنين فى فترة التحولات العنيفة التى شهدتها بلادهم. وبصفة خاصة ما يتعلق منها بارتفاع الأسعار، وتناقص الدخل والتفاوت الكبير الذى عاشه الروس بين نمط الحياة الاقتصادية الذى صار فجأة رأسمالياً ونمط دخولهم المحدودة، مما دفع شرائح

(1) Vishnevskii. A. ibid .p5.

متعددة من المجتمع إلى الإقبال على إدمان الخمور مما تسبب فى ارتفاع حالات الوفاة[1].

وهناك أسباب اجتماعية نلمسها فى الشارع الروسى وإن كنا لا نجد كثيرًا من المصادر تتناولها بشكل إحصائى، وتعد المسبب الرئيسى لتناقص المواليد، وعلى رأسها تأخير الزيجات، وتفضيل الصداقات على الزواج، وتعطيل الإنجاب لأسباب سلوكية. كما أن هناك هجرة خارجية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، وفى المقابل يتدفق على روسيا سنويًّا عدد لا توجد عنه إحصاءات ولو تقريبية. وإن كانت بعض المصادر الصحفية[2] قد قدرت أن ١٥ مليون مهاجر قد وصلوا إلى روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفيتى.

وفى ظل هذه القدرات الديموغرافية المهددة بالضعف والانكماش تجد روسيا نفسها مضطرة لقبول الحل الوحيد الممثل فى استقبال الهجرة الوافدة للوفاء باحتياجات سوق العمل وتعمير مناطق مختلفة من البلاد. وتمثل الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى وبصفة خاصة فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز مصدرًا مهمًّا لاستقبال المهاجرين، وإن كانت لا توجد مصادر يمكن الوثوق بها حول أعدادهم الفعلية.

وفى وقت يتناقص فيه عدد السكان الروس، فإن أعدادًا متزايدة من المهاجرين من الصين تتم من مناطق الحدود عند الشرق الأقصى إلى روسيا بسبب الخلل الديموغرافى. وتفسر تمارا ترويكوفا ذلك

(١) أسلوند، أنديرن. كيف تحولت روسيا إلى اقتصاد السوق؟ ترجمة إمام، محمد جمال، القاهرة. مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٧ ص ٢٠٣.

(٢) نيزافيسميا غازيتا، بتاريخ ١٨ أكتوبر ٢٠٠٤.

الخلل بمقارنة الوضع على الحدود فى شرق سيبيريا. فعلى الجانب الروسى يعيش ٨ ملايين نسمة فى مساحة تزيد على ستة ملايين كم٢، فى حين يعيش على الجانب الصينى ١٣٠ مليون نسمة يعانون البطالة والفقر فى مساحة لا تصل إلى مليونى كم٢. ومن ثم فإن المهاجرين الصينيين ينفسون عن ضيق حالهم بالهجرة غير المشروعة إلى أرض غنية بالموارد، قليلة السكان على الجانب الروسى، وهو ما يخلق ظاهرة يسميها القوميون الروس «احتلالاً صينيًا صامتًا»[1].

ينبع الرافد الأساسى لضرورة قبول الهجرة الوافدة من الخسائر الاقتصادية التى تعيشها روسيا بسبب التناقص السكانى، والتى يعبر عنها تراجع إجمالى الناتج المحلى، واستمرار ارتفاع معدل الفقر فى الدولة بنحو ضعف ما كان عليه فى العهد الشيوعى[2].

لا تخطئ العين ذلك الارتباط الوثيق بين الأزمة الديموغرافية والأزمة الاقتصادية التى شهدت البلاد معها عدة هزات عنيفة. ففى السنوات الخمس الأولى من تفكك الاتحاد السوفيتى كانت روسيا قد تمكنت من إجراء تغيرات هيكلية فى بنية نظامها الاقتصادى لتنقله بأمان من اقتصاد اشتراكى إلى اقتصاد السوق. وتحققت لها النقلة النوعية فى عام ١٩٩٤ حين حولت ٦٠٪ من قطاعاتها الاقتصادية

(1) Troyakova. T. A view from the Russian far east. In Garnett. S (ed) Rapprochement or rivalry? : Russia-China relations in a changing Asia. Washington, D.C. : Carnegie Endowment for International Peace. 2000 p 203.

(2) Silverman. B & Yanowitch.M. New rich, new poor, new Russia. Winners and losers on the Russian road to capitalism. London. M. E Sharp.1997.p 17.

الحكومية إلى قطاعات خاصة، وبدا التحول نحو الخصخصة الكاملة على مرمى حجر[١].

وقد جُربت فى تلك الفترة الانتقالية أشكالٌ مختلفة من التبديل الاقتصادى، وبعضها موجع للمواطن حين اتبع ما عرف بالعلاج بالصدمات Shock Therapy بهدف نقل اقتصاد الدولة من الحالة الاشتراكية ذات الملكية الجماعية إلى حالة اقتصاد السوق بملكية فردية وبمعايير غربية[٢].

ورغم أن الاقتصاد الروسى قد شهد تحسنًا بإيقاف معدلات التضخم عند مستوى معقول وارتفع بشكل تدريجى إجمالى الناتج المحلى، إلا أنه كان واضحًا منذ منتصف التسعينيات أن هناك تقاطعًا بين التوجه نحو الرأسمالية والتدخلات الحكومية فى الاقتصاد[٣].

وبسبب عدة عوامل داخلية، أهمها التهرب من دفع الضرائب، وتهريب الأموال إلى الخارج، وتفشى اقتصاد الظل، شهدت روسيا فى أغسطس عام ١٩٩٨ كارثة اقتصادية فانهارت العملة المحلية (الروبل) إلى أدنى من ٤٢ ٪ من قيمتها، وارتفع العجز فى الميزانية إلى ٨ ٪ من إجمالى الناتج المحلى، ورغم تعافى الاقتصاد الروسى تدريجيا من تلك الأزمة منذ عام ٢٠٠٠، إلا أن إجمالى الناتج المحلى مع مطلع الألفية الثالثة لم يصل إلى ثلث ما كان عليه فى عام ١٩٩٠[٤].

(١) أسلوند، أنديرز. مرجع سابق ص ٨٩.

(2) Shevtsova. L. Russia's Post-Communist Politics: Revolution or Continuity? In Lapidus .G (ed) The New Russia: troubled transformation. San Francisco. Westview Press.. 1995 p10

(3) Erickson.R. Six Years after the collapse of the USSR. Post Soviet Affair, ,14, 1, 1998.pp 2-3

(4) Sakwa. R. Putin, Russia's choice. London. Routledge..2004 p184.

تمكنت روسيا بعد الأزمة التى عصفت بنظامها الاقتصادى فى أغسطس ١٩٩٨ من قطع خطوات جادة نحو إعادة البناء، ودخلت عام ٢٠٠٦ بحصاد ست سنوات متواصلة من النمو الاقتصادى بلغ معدله ٦,٥ ٪ سنويًا. وقد ساهم فى نهضتها ارتفاع أسعار النفط منذ غزو العراق فى ٢٠٠٣، مما مكنها من سداد أقساط ديونها الخارجية البالغة نحو ١٧٠ بليون دولار بشكل منتظم، وبعد أن كان سداد الديون يستهلك ٩٠٪ من إجمالى الناتج المحلى خلال تسعينيات القرن الماضى، تقلصت هذه النسبة فى السنوات الخمس الأخيرة إلى أقل من ٤٠ ٪، وزاد احتياط النقد الأجنبى من ١٠ بلايين دولار إلى ١٢٠ بليون دولار(١).

ويلاحظ أنه لولا اهتزاز الثقة فى مناخ الاستثمار الروسى بعد تصفية شركة يوكوس النفطية الخاصة، واعتقال رئيسها ميخائيل خودركوفسكى فى عام ٢٠٠٣ بتهمة التهرب من دفع الضرائب، لكان الاقتصاد الروسى قد استمر فى استقطاب نسبة متزايدة من الاستثمارات الأوربية والأمريكية، بما ينعش هذا الاقتصاد بدرجة كبيرة(٢).

وقد نبع منهج تصفية الشركات النفطية العملاقة ذات الأهداف السياسية الداخلية من عدم تحمل الكرملين لوجود معارضة حقيقية فى البلاد. فروسيا ما بعد السوفيتية بدت عكس فرنسا الستينيات التى قيل عنها «إن فى فرنسا لا شىء سوى المعارضة» بينما أمكن وصف روسيا منذ عام ٢٠٠٠ «بدولة يوجد فيها كل شىء إلا المعارضة»(٣).

---

(1) Sakwa. R. ibid.

(2) Balzer.H The Putin Thesis and Russian Energy Policy. Post-Soviet Affairs. 21.3.2005 p219-222.

(3) Gel'man.V. Political Opposition in Rusia: A dying species? Post-Soviet Affairs. 21.3.2005 p 226.

المشكلة الرئيسية فى الاقتصاد الروسى أنه عرضة للاهتزاز، وربما الانهيار على غرار أزمة عام ١٩٩٨، بسبب اعتماده بشكل أساسى فى السنوات الأخيرة على عائدات النفط المرتفعة الأسعار (والتى تخطت ٧٠ دولارًا فى عام ٢٠٠٦). ويقدر أن انخفاضًا فى سعر النفط بمقدار دولار واحد للبرميل سيكلف الميزانية الروسية خسارة مقدارها ١,٤ بليون دولار، وهو ما سينعكس سلبًا على باقى البناء الاقتصادى[١].

أزمة الفكر القومى

فى ذات الوقت الذى كانت روسيا تجابه مشكلات تناقص السكان وتفاقم الأزمة الديموغرافية جنبًا إلى جنب مع معضلات علاج الاقتصاد المتخبط بين اقتصاد السوق وميراث الاشتراكية، شهدت روسيا توجهات قومية متباينة، بعضها كان سلميًا كما فى الحالة التترية، والبعض الآخر ما زال يغلى داخل حدود الدولة الروسية كما فى الحالة السلافية. بينما سلك فريق ثالث مسارًا دمويًا كما فعل الشيشانيون.

تصنف القومية فى روسيا الحديثة إلى أربعة أنواع: قومية الدولة، والقومية الوحدوية، وقومية الحكم الذاتى، والقومية الانفصالية[٢]. وإذا كان السلاف قد استمدوا شرعيتهم من كل من قومية الدولة والقومية الوحدوية فإن تطلعات التتر فى روسيا نحو تفعيل قوانين الحكم الذاتى للفدرالية يمكن أن تسمى بالقومية ذاتية الحكم، بينما تصنف طموحات القومية الشيشانية كقومية انفصالية.

(1) Energy Informatin Agency (EIA). Russia Country Analysis Brief. February 2005. Internet Material.

(2) Kaiser.R.op cit p 13.

وكما ساهمت الحركات القومية فى البلدان الشيوعية، وبصفة خاصة فى دول البلطيق ودول أوربا الشرقية، فى إذكاء المطامح الاستقلالية فى العقدين الأخيرين من عمر الشيوعية، امتدت عدوى المطامح القومية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى إلى داخل البيت الروسى، ومنذ أواخر الثمانينيات. وفى الوقت الذى لم تقم فيه قوميات الكالميك وتوفا وبرياتا - والواقعة على الحدود مع منغوليا والصين وتعتنق الديانة البوذية- بمطالبات قومية انفصالية أو اتحادية مع دول الجوار، كانت الحركة القومية التترية أهم الحركات القومية فى روسيا كحركة قومية سلمية.

يعيش فى روسيا نحو سبعة ملايين تترى من أصول طورانية، يتوزعون فى مختلف الجمهوريات والمدن الكبرى، ويشكلون أكبر مجموعة عرقية غير سلافية فى روسيا (٥٪ من إجمالى السكان). ويعيش أغلب التتر فى جمهورية تنتسب لاسمهم على نهر الفولغا (جمهورية تترستان) وتشكل واحدة من الجمهوريات التى بنيت على أسس عرقية فى الفدرالية الروسية.

ويبلغ عدد سكان جمهورية تترستان نحو ٤ ملايين نسمة وهى واحدة من أكثر جمهوريات الاتحاد الروسى نهضة اقتصادية، ويمثل الروس من سكان الجمهورية نحو ٤٤٪ تم زرعهم فى المنطقة منذ العهد الشيوعى ضمن سياسة هدفت إلى تفويت الفرصة على صياغة استقلالية جغرافية على أسس ديموغرافية وإثنية[1].

نمت جذور الحركة القومية التترية عبر تاريخ طويل من الصدام مع روسيا منذ أن أسقط إيفان الرهيب (إيفان الرابع) فى ١٥٥٢

(1) Kondrashov. S. Nationalism and the drive for sovereignty in Tatarstan, 1988-92. New York. St. Martin. 2000.p x.

العاصمة التترية كازان، وأخضع القبيلة الكازانية لحكم موسكو. ولم تتغير تبعيتها لموسكو فى العهد الشيوعى حيث ضمت تترستان كجمهورية ضمن حدود جمهورية روسيا السوفيتية[1].

ويعتبر التتر أصحاب أقدم هوية متبلورة فى روسيا خلال القرون الخمسة الماضية. وقد بزغت المطالب المعاصرة للإحياء القومى التترستانى خلال الفترة بين ١٩٨٨ و ١٩٩٢. ففى تلك الفترة ركزت المطالب القومية على الصور الرمزية مثل الاحتفال الكبير الذى تم فى عام ١٩٨٩ بذكرى مرور ألف عام على اعتناق سكان المنطقة الإسلام، وكما فى التظاهرات الضخمة التى جرت فى ١٥ أكتوبر ١٩٩١ للمطالبة بإلغاء اليوم الوطنى للجمهورية الذى يوافق تاريخ إسقاط إيفان الرهيب لكازان عاصمة التتر. وكذلك مناداة القوميين التتر بضرورة استفادة الشعب التترى من ثروته النفطية التى بمقدورها جعل تترستان «الكويت الثانية» إذا ما مُنحت الاستقلال[2].

وعلى المستوى الفدرالى رفضت حكومة جمهورية تترستان فى ١٩٩٢ التوقيع على معاهدة الفدرالية قبل إدخال إصلاحات جوهرية فى العلاقة مع موسكو وتغيير المنهج «الاتحادى» إلى علاقة «فدرالية» حقيقية تحافظ فيها على التميز الثقافى والعرقى. ومع نجاح تترستان فى الحصول على «وضعية خاصة» فى العلاقة مع المركز اصطلح على تسمية هذا النوع من العلاقة «بالنموذج التترستانى»[3].

(1) Ro'i.Y. The secularization of Islam in the USSR's Muslim areas, in Roy.Y(ed) Muslim Eurasia: Conflicting legacies. London. Frank Cass.1995 p 5-20.

(2) Bukharaev. R. The model of Tatarstan under the President Mintimer Shaimiev. New York. St.Martin,.1999.p89,102.

(3) Yemelianova. G. Islam and power, in Pilkington and Yemelianova (eds) Islam in Post Soviet Russia. Routledge. London.2003 P67-68.

وقد سمح ذلك بتهيئة المناخ الداخلى لدعم الثقافة التترية، وإن كان القوميون الراديكاليون قد رأوا فى المعاهدة «خيانة للمصالح القومية للشعب التترى» وبصفة خاصة عدم مراعاتها لإعادة توطين عدة ملايين من التتر يعيشون خارج حدود جمهورية تترستان، فى وقت رأت فيه السلطة الحكومية فى جمهورية تترستان ضرورة التطبيق «الناعم» للمطالب القومية، بدعم اللغة والثقافة وتمجيد الرموز التى تخلد تاريخ المقاومة التترية للغزو الروسى، والاستجابة للمطالب الدينية بعدم الموافقة على تجنيد التتر فى الجيش الروسى لمحاربة الشيشان، لكن دون اتخاذ خطوات ثورية تفسد الامتيازات التى تحظى بها تترستان فى البناء الفدرالى[1].

ورغم نقاط القوة التى تتمتع بها تترستان على خريطة الاتحاد الفدرالى الروسى، كمركز للصناعات النفطية، وصاحبة مجموعة من أكبر حقول النفط التى تصدر خاماتها إلى القارة الأوربية، إلا أن موقعها - بمعايير الجغرافيا السياسية التى تقوّم أهلية الوحدات السياسية للاستقلال- يكشف عن بعض جوانب الضعف.

وأهم هذه الجوانب معاناة تترستان من موقع حبيس معزول عن أى دولة مجاورة، لوقوعها فى قلب الاتحاد الروسى، ومحاطة بسبع

(١) تشمل هذه الامتيازات السيطرة على الضرائب والتحكم فى بيع الكحوليات والغاز والنفط داخل الجمهورية وكذلك الحق فى تحويل الضرائب المفروضة على إنتاج مجمعات المصانع الحربية من الميزانية الفدرالية إلى ميزانية تترستان. وتحصيل نصف عائدات الضرائب الإضافية، بينما لا تحصل المناطق الإدارية الأخرى فى الفيدرالية سوى على الربع. وكذلك الحق فى عقد الاتفاقيات والعلاقات التجارية بشكل مباشر مع دول العالم الخارجى وقد جاءت هذه الصلاحيات بعد اتفاق عقد بين الرئيس الروسى بوريس يلتسين ورئيس تترستان منتيمير شايمييف فى ١٩٩٤ دعم بموجبه شايمييف يلتسين وحزبه وأقر بسيادة موسكو. (نقلا عن Yemeleanova. P68).

وحدات إدارية، خمس منها تقطنها أغلبية إسلامية، وذلك على خلاف الشيشان الواقعة على الحدود الجورجية (المعادية لروسيا)، أو داغستان الواقعة على حدود أذربيجان (المعادية لروسيا أيضًا).

نجحت موسكو فى ترويض الحركة القومية التترية بشكل غير مباشر من خلال حربها الشرسة فى الشيشان. ولأن كلتا الحركتين القوميتين -التترية والشيشانية- جاءتا كرد فعل لضعف السلطة المركزية فى موسكو[١] فقد انكمشت الحركتان مع إعادة تلك السلطة لتماسكها بعد الفترة الانتقالية. ورغم التسليم بأن الحركة القومية لم تمت فى تترستان فإنها قد روضت داخل حدود الجمهورية التترية منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين[٢].

فى ذات الوقت الذى كانت الحركة القومية التترية تموج بين مد وجزر، كان الفكر القومى السلافى يسير فى اتجاه نمو مطّرد. ويمكننا تلمس توجهاته حتى قبيل تفكك الاتحاد السوفيتى، حين كتب الروائى الروسى الشهير سولجينستين مقالاً فى البرافدا الروسية (١٨ سبتمبر ١٩٩٠) طالب فيه بإقامة دولة «روسية» تجمع الروس فى كل من روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وشمال كازاخستان، اعتمادًا على التاريخ الذى جمع السلاف عبر ألف السنة التى خلت، على أن تتخلص موسكو من عبء كافة الجمهوريات غير السلافية[٣].

(١) حينما كان بوريس يلتسين رئيسًا لجمهورية روسيا داخل الاتحاد السوفيتى زار تترستان فى ٥ أغسطس ١٩٩٠ خلال منافسته السياسية للرئيس ميخائيل جورباتشوف معلنًا «أن بوسع التتر أن يطالبوا بأقصى درجة ممكنة ولو كان الأمر بيدى لوافقتهم على الاستقلال التام إن طالبوا به» لكنه عاد بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وسحب ما صرح به من قبل. (نقلاً عن Bukharaev.R..p97).

(2) Kondrashov. S op cit. p 191-95.

(3) Hooson. D. op cit. p138.

تأسس التيار القومى الروسى - سواء الشيوعى بقيادة زيغانوف أو الليبرالى بقيادة جيرونوفسكى - على فرضية عدم القناعة بحدود الدولة الداخلية، بل سعى إلى البحث عن جذور الامتداد الإثنى السلافى. ومن ثم فقد خرجت الدعوة منذ مطلع التسعينيات إلى ضرورة إقامة «الجامعة السلافية» التى تضم فى حدها الأدنى روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا، كشعوب تتفق فى الأصل الإثنولغوى.

أما الحد الجغرافى الأوسع للجامعة السلافية فيسعى إلى ضم التشيك والسلوفاك والصرب (السلاف الجنوبيين أو اليوج سلاف) وجمهوريات الاتحاد اليوغسلافى السابق، على الرغم من عدم وجود أى اتصال جغرافى بين روسيا وأى من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة. ويمكن تصور أهمية ذلك الاتحاد بالنسبة للصرب حينما نراجع تصريحات رئيس وزراء صربيا فوجيفلاف سيسيلج فى عام ١٩٩٩ الذى توقع أن يشكل الاتحاد السلافى «شوكة فى حلق الغرب»[1].

ارتبطت الحركة القومية الروسية بشخصية محورية فى تطورها وهو البرلمانى فلاديمير جيرنوفسكى الذى كان قد أسس فى نهاية الشيوعية (١٩٨٩) الحزب الديموقراطى الليبرالى LDPR ومع انحلال الاتحاد السوفيتى دعا إلى استعادة «روسيا العظمى» مناديًا بضرورة أن تعيد موسكو إخضاع دول البلطيق واحتلال أفغانستان واستعادة آلاسكا من الولايات المتحدة وإعادة إخضاع بولندا وفنلندا.

(1) De Waal. T. How strong is the Slavic union? BBC news, April. 12.1999.

وقد سمحت له تلك الأفكار القومية المتطرفة Ultra Nationalism بالحصول على إعجاب حصة كبيرة من الناخبين الروس، فحل ثالثًا فى انتخابات الرئاسة الروسية فى يونيو ١٩٩١. وحقق حزبه فى تلك الفترة الانتقالية من مطلع التسعينيات، وبسبب مهارته الخطابية، ٢٣٪ من مقاعد البرلمان. وفى كثير من المناسبات عمد جيرونوفسكى إلى نقد الولايات المتحدة والغرب ودعوة موسكو إلى مساعدة روسيا للدول المرفوضة أمريكيا مثل ليبيا وإيران والعراق[1].

لكن النصف الثانى من التسعينيات شهد تراجعًا فى شعبية الحزب الديموقراطى الليبرالى وانسحبت حصة كبيرة من مؤيدى جيرونوفسكى كزعيم. وبعد أن صوت له ١٣ مليون ناخب فى عام ١٩٩٣ لم يصوت له نصف هذا العدد فى الانتخابات البرلمانية فى عام ٢٠٠٣[2].

وفى تلك الأثناء كان الرئيس بوريس يلتسين يخاطب الجماهير واصفا نفسه «بالوطنى» وليس «بالقومى» تجنبا لالتباس المعنى الذى قد تحمله كلمة القومى أمام القوميات غير السلافية فى الدولة. كما كان يوجه حديثه لمستمعيه بالقول أعزائى «الروسيين» بدلاً من أعزائى«الروس» لأن الأولى تعنى كل ساكنى روسيا بمختلف أعراقهم بينما تعنى الثانية الروس «عرقًا»[3].

(1) Brzeznisi. Z & Sullivan. P (eds) Russia and the Commonwealth of Independent States. New York. M.E Sharpe,. 1997 p 163.

(2) Zhirinovsky's. LDPR suffers a debacle after losing the party's banner. Pravda. December 16.2004.

(٣) من مراجعة المؤلف لخطابات الرئيس بوريس يلتسين التلفازية بين عامى ١٩٩٨و٢٠٠٠.

وبينما ألح يلتسين على الوطن وليس القومية صاغ الرئيس فلاديمير بوتين (والذى شغل منصب الرئاسة منذ عام ٢٠٠٠) مفهومًا جديدًا للانتماء، وهو دعم القوة الدولية لروسيا والحفاظ على الأمن القومى للدولة على المستوى الإقليمى، بما يجعل المواطنين يعتزون بانتمائهم للدولة. وفى ذات الوقت اتبع بوتين سياسة القبضة المركزية المعتدلة Moderate Statism والتى يقصد بها أن تتحكم السلطة المركزية فى مجريات السياسة الخارجية والداخلية ولا تترك لحكومات الأقاليم والجمهوريات (ذات الخصائص الإثنية أو القومية) دورًا سياسيًا تلعبه[1].

لكن فى المقابل تواجه الأقليات الروسية التى تخلفت فى الجمهوريات السوفيتية السابقة مشكلات قومية مضادة، فالفكر السلافى المغالى فى القومية يذكر القوميات فى الجمهوريات السوفيتية سابقًا بأن السلاف الذين تم زرعهم عنوة فى أوطانهم ليسوا إلا طابورًا خامسًا لموسكو[2] .

فما تزال بعض الآثار السلافية السابقة حاضرة فى الجمهوريات المستقلة وعلى رأسها نتاج عمليات الروسنة الثقافية Cultural Russification. فرغم أن الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى قد تخلصت من الترويس الاقتصادى والديموغرافى، بقيت الآثار

(١) كان أحدث هذه المظاهر ما قامت به موسكو فى أكتوبر من عام ٢٠٠٤ من إبطال طريقة انتخاب المحافظين ورؤساء المناطق الإدارية، وإقرار نظام جديد يبنى على التعيين بعد انتخاب من قبل المجالس التشريعية وبموافقة رئيس الجمهورية. نقلاً عن: وكالة الأنباء الروسية نوفستى. الرئيس بوتين يرى أن نظام انتخابات محافظى المناطق الروسية الحالى غير فعال، بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠٠٤.

(2) Kaiser. R. Nationalism and Identity. . in Bradshaw. M. (ed) op cit P 16.

الثقافية واللغوية ذات عمق كبير فى حياة الأعراق والقوميات، والمشكلة أكثر تعقيدًا لدى القوميات والأعراق غير السلافية داخل البناء الفدرالى الروسى.

وبينما تبدو آثار الترويس الثقافى بالغة الأثر فى آسيا الوسطى، تبدو ضعيفة نسبيًا فى جمهوريات البلطيق وشرق أوربا التى خاضت مراحل طويلة من الكفاح للحفاظ على هويتها القومية[1].

ولأن المشاهد تتداخل ولا تنتظر دورها فى مسلسل الأحداث، فقد تزامن صعود الفكر القومى مع حدث آخر لا يقل أهمية وهو الأزمة الشيشانية لتكسبه شرعية كبرى وتؤكد لمنتقديه أن روسيا فى حاجة ماسة لتيار قومى يقف أمام الخيار الانفصالى الذى سلكه المسلمون على الأطراف الجنوبية للدولة.

الإسلام والشيشان

يمثل المسلمون فى روسيا قوة سكانية لا يستهان بها، تزيد عددًا على ٢٢ مليون نسمة[2]، وهو رقم أغرى الرئيس الروسى فلاديمير بوتين بالمباهاة به مقارنًا إياه بحجم عدة دول إسلامية قزمية الوزن السكانى، وذلك حينما كان يبرر فى عام ٢٠٠٣ مطلبه بمقعد دائم لروسيا فى منظمة المؤتمر الإسلامى، داعيًا للنظر إلى مسلمى روسيا بالأعداد المطلقة وليس بالنسبة المئوية التى تقف بهم عند حدود ١٥٪ من إجمالى سكان الدولة.

(1) Harris. N. National Liberation. London. Tauris. I & Co. Limited..1990 pp 76-77.

(2) Hunter. S (2004) Islam in Russia. London. M.E Sharpe., p 44.

وقد وصل الإسلام إلى روسيا منذ ١١٠٠ عام، فيما يعرف اليوم بقلب الأراضى الروسية فى منطقة نهر الفولغا على حدود جبال الأورال، ومن ثم فإن المسلمين فى روسيا ليسوا سكان أقلية، إذا قصد بذلك جماعة دخيلة على اللحمة الأصلية لأرض الدولة، فهم أصحاب أرض أصليون، وكانت لهم ممالكهم وسيادتهم قبل أن تسقط قلاعهم فى النصف الأول من القرن السادس عشر، لتكتب خضوع مسلمى الفولغا والقوقاز للسيطرة الروسية.

مر الإسلام فى روسيا بتجربة فريدة شكلت وعى معتنقيه، كما رسمت تصوراتهم عن العالم، وروضت طموحاتهم، بل حبست فى أحيان كثيرة آمالهم. ومنذ القرن السادس عشر خضع المسلمون فى روسيا لسلسلة متعاقبة من التأثر بالجموح الجيوسياسى لقوة روسيا التى غيرت من أيديولوجياتها مرة كل قرن على الأقل. وفى المقابل أثر مسلمو روسيا على الفكر الروسى بتوجهاته الدينية والقومية والجغرافية السياسية، مما دفع هذا الفكر إلى إعادة الصياغة والمراجعة، وتبديل الأولويات وتغيير مضامين المفاهيم.

تتنوع البيئات الجغرافية التى يعيش فيها المسلمون بين جبال سامقة فى القوقاز وسهول رتيبة فى الفولغا، وبين مناخ بحر متوسطى على شواطئ البحر الأسود وقزوين، إلى المناخ القطبى القارس فى سيبيريا حيث يعيش المسلمون بين الثلج والجبل.

وفى كل الأحوال وهبت جغرافية الإسلام فى روسيا موارد غنية ومصادر متنوعة للطاقة، ومثلت أرضهم مفاتيح الجغرافيا السياسية لخروج روسيا إلى اليابان والصين فى الشرق وإلى تركيا وإيران فى الجنوب.

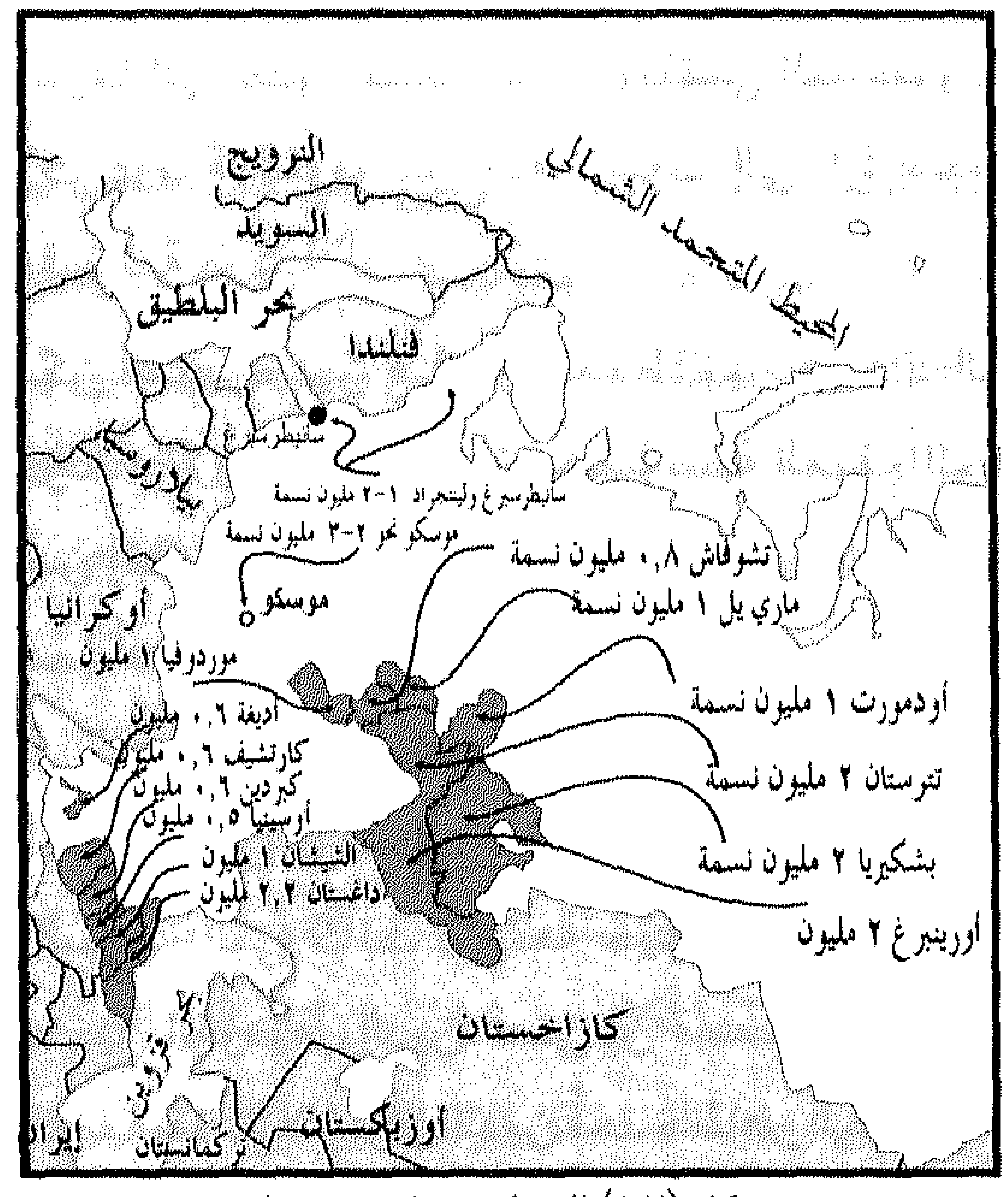
ومع اختلاف درجات حيازة الثورة وامتلاك استراتيجية الموقع الفعال، تباينت توجهات مسلمى روسيا عبر العصور تجاه مسألة الانفصال أو البقاء داخل أسوار البيت الروسى الكبير. غير أنه فى كل مرة كانت تضعف فيها القوة المركزية فى روسيا – فى فترات الانتقال الثورى كما فى عام ١٩١٧ و ١٩٩١ – أو تضعف قدراتها العسكرية وتختل – كما فى مقدمات الحرب العالمية الثانية وفترة الارتباك بعد سقوط الاتحاد السوفيتى– كانت مطالب الانفصال تعلو فوق مطالب التعايش، بعضها، كالتتر والبشكير ومسلمى الفولغا، قنع بالتعبير المكتوب والمنطوق، وبعضها، كالشيشان والداغستان ومسلمى القوقاز الشمالى، أبى إلا أن يحمل السلاح ويسعى إلى الاستقلال بصوت الرصاص.

وفى الوقت الذى ينشغل المسلمون بقضايا الهوية، تنشغل روسيا بتأثير الأقلية الإسلامية على قضايا الأمن بمختلف تفاصيله العسكرية والديموغرافية والاقتصادية. بل إن تزايد سكان روسيا المسلمين فى مقابل تناقص القدرات الديموغرافية لسكان روسيا السلافيين تجعل القوميين الروس يبالغون فى الخوف من أن روسيا سيرثها المسلمون خلال عشرين عامًا. الأمر الذى يعطى للشعور القومى بعدًا رساليًا ومفهومًا يسوعيًا بضرورة إنقاذ روسيا من «الجنوبيين»[1].

كان عدد المسلمين عشية تفكك الاتحاد السوفيتى فى ديسمبر ١٩٩١ قد ناهز خمسين المليون نسمة أى أكثر قليلاً من خُمس سكان

(١) يعتبر البرلمانى والسياسى الروسى الشهير فلاديمير جيرونوفسكى من أكثر الأصوات الروسية التى دومًا ما تحذر من خطورة الانكماش الديموغرافى أمام تزايد أعداد المسلمين والقوقازيين بصفة خاصة.

ذلك الاتحاد البالغ تعداده آنذاك ٢٨٠ مليون نسمة، ما أظهر الاتحاد السوفيتى كدولة إسلامية متوسطة الحجم. لكن مع تفكك الاتحاد السوفيتى واختلاف المركب العرقى لروسيا التى صار السلافيون فيها يشكلون أكثر من٨٠٪ ، يمكننا الآن القول إن روسيا أقرب لدولة أرثوذكسية يتنامى فيها الحضور الثقافى للكنيسة، وإن كان هذا الدور لا يمكن مقارنته بحضورها المهيمن خلال العصر القيصرى[1].



شكل (١٢) المسلمون فى روسيا

يتوزع المسلمون على الخريطة الفدرالية لروسيا (شكل ١٢) فى منطقتين رئيسيتين: منطقة الفولغا فى قلب روسيا وذلك فى ست

(1) Hunter. S. op cit. p xx.

جمهوريات هى: تترستان وبشكيريا وتشوفاش وموردوفيا وماری يل وأودمورت، إضافة إلى إقليم أورنبرغ. والمنطقة الثانية منطقة القوقاز الشمالى وتشمل سبع جمهوريات : داغستان والشيشان وإنغوشيا وقبردين بلقاريا وأوسيتيا الشمالية-ألانيا وكارتشييف شركيسيا والأديغة. ويبلغ إجمالى عدد المسلمين فى هذه الوحدات الإدارية نحو ١٦-١٧ مليون نسمة، إضافة إلى ٥-٦ ملايين آخرين يتوزعون بشكل مبعثر عبر الأصقاع الروسية، من حدود الصين واليابان شرقًا إلى حدود فنلندا غربًا. وينتمى المسلمون فى روسيا إلى عائلات عرقية-لغوية متباينة تتشعب إلى ٤٠ مجموعة تمثل لوحة فسيفسائية مركبة[١].

ما يمكن تمييزه بين هاتين المنطقتين هو ذلك التعايش فى منطقة الفولغا-الأورال الذى أملته خصوصية الموقع الجغرافى عبر القرون من إقليم هامشى حدودى إلى إقليم عبور للتوسع نحو سيبيريا مما أدى إلى عمليات صهر للهوية، فى وقت كانت العلاقة مع منطقة القوقاز علاقة مركز تجاه الأطراف بكل ما يتضمنه مفهوم مناطق الأطراف من الإهمال والإدارة بأشكال عسكرية وحملات تأديبية. النتيجة التى كانت متوقعة حيال ذلك هى مزج المسلمين فى روسيا بين القومية والدين، حتى إن قسمًا كبيرًا منهم اعتبر أن الدين والقومية متماثلان وأن الدين أحد مظاهر الحياة القومية، وأن الالتزام باتباع التعاليم الإسلامية بمثابة رفض للاستخفاف بالذاكرة القومية وتمسك بهوية السلف والأمة التى ينتمى إليها[٢].

(١) تورلايس.ى. أطلس روسيا والعالم. دار روسمان ، موسكو ١٩٩٨ ص ٥٤ (باللغة الفرنسية).
(2) Hunter. S op cit. p xxi.

وبينما ساهمت القدرات الاقتصادية المتنوعة فى إقليم الفولغا فى استقرار اقتصادى دون معاناة وعوز، ذلك العوز الذى يعد الوقود الأساسى فى تهييج المطالب الانفصالية، عدت منطقة القوقاز من أكثر مناطق روسيا تخلفًا وتأخرًا، وفى مركزها جمهورية الشيشان.

تحتل الشيشان الموقع الأكثر بروزًا على خريطة إقليم القوقاز الواقع بين البحر الأسود فى الغرب وبحر قزوين فى الشرق، فى مكان اعتبر عبر العصور المديدة موصلاً جيدًا لثقافات الجنوب والشمال ونقطة التقاء العالم الإسلامى بالمسيحى.

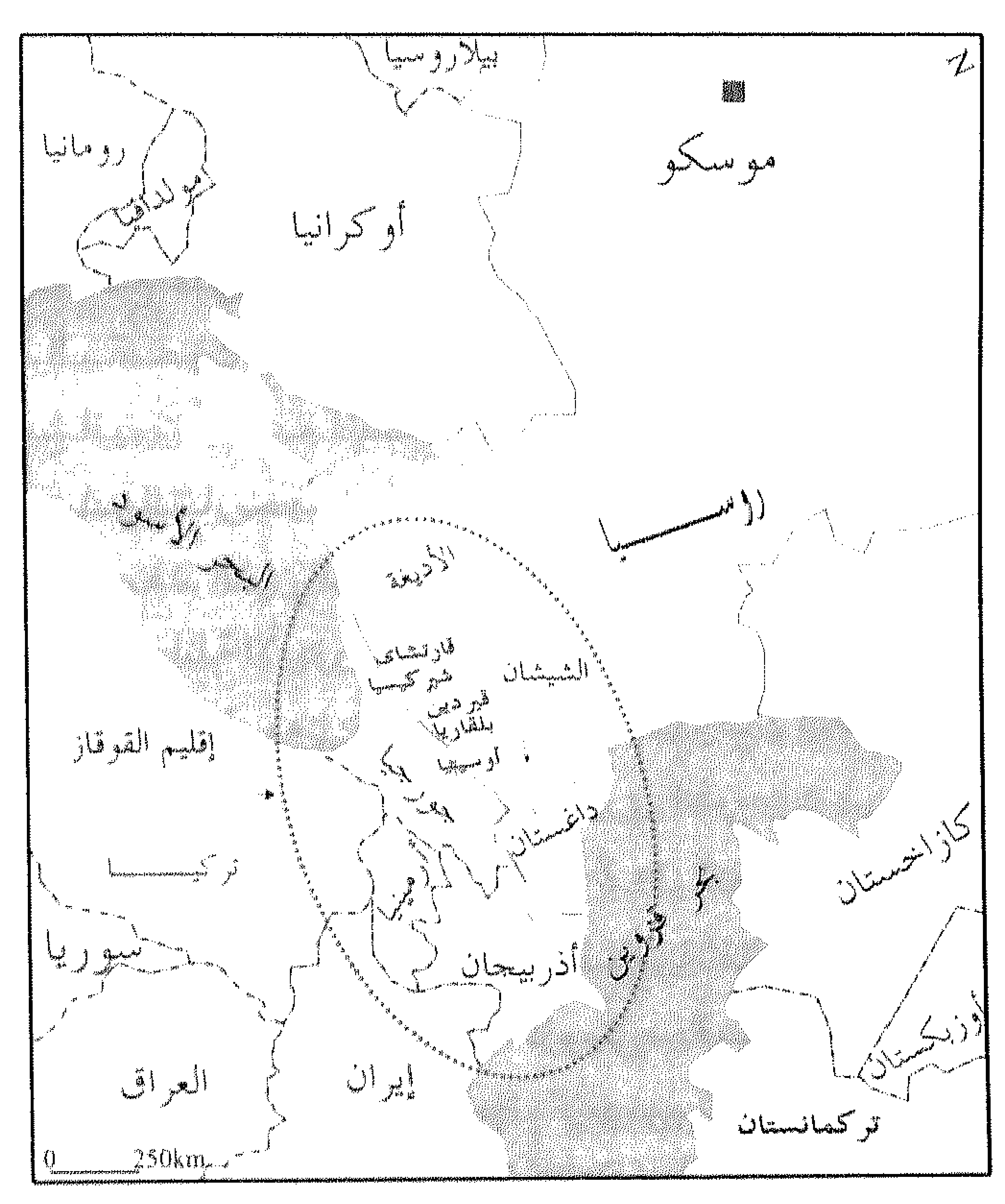
والشيشان اسم أطلقه الجيش الروسى على هذا الشعب نسبة لاسم قرية تقع على نهر أرجون جنوب شرق موضع مدينة جروزنى الحالية، حيث وقع أول صدام مسلح بين الجانبين. ويسمى الشيشانيون أرضهم «إتشكيريا» وتعنى الأرض الداخلية. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الشيشانيين عرفوا كشعب له تميزه الحضارى منذ القرن الرابع الميلادى على الأقل، ويتحدثون لغة الناخ المنتمية للعائلة الأيبرو-قوقازية. وينتمى الشيشانيون إلى مجموعة الفايناخ العرقية، وهى واحدة من كبرى مجموعات العائلة القوقازية الشمالية. وتمثل القومية الشيشانية كبرى القوميات فى الجمهورية الحالية حيث ينتمى إليها أكثر من ٨٥٪ من إجمالى السكان[1].

وقعت الشيشان وبقية المناطق الإسلامية فى القوقاز قبيل تفكك الاتحاد السوفيتى داخل «البيت الروسى» بعيدة نسبيًا عن الحدود

(1) Cornell. S. Undeclared War : The Nagorno-Karabakh Conflict Reconsidered. Journal of South Asian and Middle Eastern Studies, vol. 20, no. 4 1997(internet data).

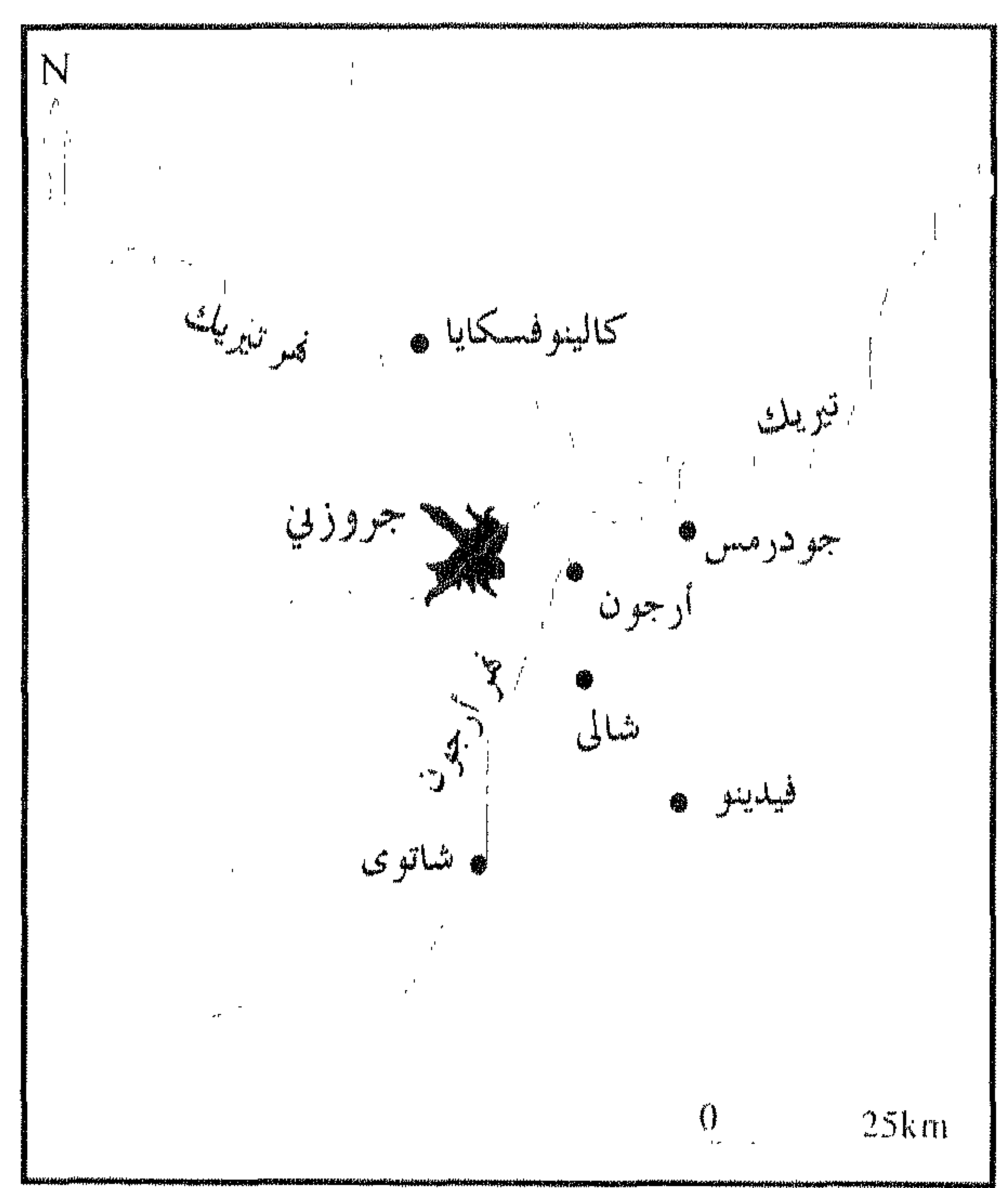
الروسية–التركية ، والروسية–الإيرانية بوجود كل من أرمينيا وأذربيجان وجورجيا كمناطق تخوم داخل «البيت السوفيتى».

أما الآن فإن جمهوريات القوقاز الشمالى فى جنوب روسيا باتت تمثل، والشيشان فى مركزها، الحدود الدولية لروسيا. ومن ثم تعتبر المناطق الأكثر أهمية فى الوزن الاستراتيجى لروسيا منذ تفكك الاتحاد السوفيتى (شكل ١٣).



شكل (١٣) جمهوريات القوقاز الشمالى

وعلى الرغم من شهرة الصراع فى هذه المنطقة فإن أرض الشيشان لا تمثل سوى ٠,٥٪ من إجمالى مساحة روسيا (شكل ١٤)، ولا يزيد الشيشانيون عن ٠,٧٪ من إجمالى سكان روسيا. كما أن مليون النسمة الذين يقطنون هذه الجمهورية لا يمثلون من إجمالى عدد المسلمين فى روسيا –الذين يزيدون على ٢٢ مليون نسمة– سوى ٤٪. ومن ثم تبدو الشيشان على خريطة روسيا أشبه بجزيرة قزمية فى وسط محيط ضخم من اليابس الروسى الذى يمتد على مدى ١١ منطقة زمنية ويتألف من ٨٩ إقليمًا إداريًا.



شكل (١٤) جمهورية الشيشان

لكن تواضع المساحة والعدد يخفى أهمية كبرى للشيشان. فروسيا التى تطل على اثنى عشر بحرًا يتعرض معظمها للتجمد فى فصل الشتاء تدرك جيدًا الوزن النوعى للموقع الذى تترامى فيه جمهوريات القوقاز الشمالى – والشيشان فى قلبها– فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين.

وإذا كانت الشيشان قد مثلت موقعًا بالغ الأهمية فى العهد السوفيتى، فإن الموقع البحرى للقوقاز يفوق اليوم ما كان عليه قبيل تفكك الاتحاد السوفيتى نتيجة اقتراب الشيشان وجمهوريات القوقاز الشمالى من المياه المفتوحة فى البحر الأسود والحقول الغنية بالنفط والغاز فى بحر قزوين.

وهى مواقع حيوية كانت تحققها أوكرانيا بسواحلها الطويلة فى شمال البحر الأسود، وجورجيا بسواحلها فى جنوب شرق هذا البحر، وأذربيجان بإشرافها على الركن الجنوبى الغربى لبحر قزوين.

ومع الحرمان الروسى من النوافذ الساحلية التى فقدتها مع استقلال أوكرانيا وجورجيا وأذربيجان، باتت روسيا غير مستعدة للتضحية بأى قدم بحرى حتى ولو كان على بحر مغلق كبحر قزوين أو بحر شبه مغلق كالبحر الأسود.

لعب هذا الموقع الجغرافى دورًا رئيسيًا فى مخيلة زعماء الحركة القومية الشيشانية عبر قرنين من الزمان، وتزايد ذلك حضورًا مع السنوات الأخيرة من عمر الاتحاد السوفيتى.

وفى الوقت الذى ساهم انعزال الموقع وانحباسه فى حالة جمهورية تترستان فى «تهدئة» مطالب الاستقلال، تجنبًا لخيار الصدام المسلح، شعر زعماء الحركة القومية فى الشيشان بأهمية

موقعهم الواعد الذى يمكن أن يكفل لهم إقامة دولة ذات مكانة على الخريطة السياسية، وبصفة خاصة كدولة مرور للسلع والثروات الاستراتيجية بين دول الإقليم.

لم يكن الشعب الشيشانى وقادته لينسوا تاريخ الصراع الطويل مع الروس الذى بدأ منذ القرن الثامن عشر. ففى القوقاز الشمالى تحولت الشيشان وداغستان إلى معاقل لمقاومة القياصرة، فشهد عام ١٧٨٥ إعلان الجهاد ضد الغزو الروسى على يد الإمام منصور، ثم تبعه الإمام محمد اليرغلى، فالإمام الغازى مولا، فالإمام شامل فى فترة امتدت من ١٧٨٥ إلى ١٨٦٥م. وهى فترة قادت المقاومة فيها الحركات الصوفية التى تعرف فى أدبيات القوقاز بجماعات المريدين. وحسبما يلاحظ بادلى فإن المريدية كانت حركة دينية متلبسة بحركة سياسية. وكانت الحركتان متساويتى القوة، وإن كان بدهيًا أن يركز الروس على الناحية الدينية فيها بينما يركز الكتاب الغربيون على الناحية السياسية. فعند الغربيين كانت المريدية حركة كفاح بطولى من أجل الحرية، تعززها اعتبارات سامية؛ بينما كانت فى نظر الروس «انتفاضة للتعصب الدينى لمهاجمة الحكم الروسى المستنير»[1].

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تتوقف ثورة الشيشان وداغستان حتى قيام الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧. ومع نشوب ثورة ١٩١٧ واضطراب الأحوال السياسية فى كل الأراضى الروسية وتنافس قوى سياسية متباينة، سعى

(1) Baddeley. The Russian conquest of the Caucasus. London.1908 p 21.

البلاشفة إلى استمالة الشيشانيين. وما إن استتب الأمر لهم حتى أحكموا القبضة على الشيشان وباقى القوقاز[1]. وفى فترات الحكم الستالينى عانى الشيشانيون كغيرهم من سكان القوقاز الشمالى الكثير، فتم نفى أعداد كبيرة منهم إلى كازاخستان بحجة تعاونهم مع الألمان فى الحرب العالمية الثانية. وتمت فى ذات الوقت إعادة توزيع السكان عملاً بمبدأ خلخلة التجمع الإسلامى فى القوقاز ، بسحب عشرات الآلاف من سكان الإقليم وتوزيعهم على مناطق أخرى لتعمير سيبيريا. وفى ذات الوقت زرع سكان من أصول سلافية فى الإقليم لضمان الولاء والتبعية.

بهذا المخزون التاريخى وتلك الخصوصية الجغرافية دخل الشيشانيون عهدًا جديدًا بتفكك الاتحاد السوفيتى فى ديسمبر عام ١٩٩١، ساعين إلى الانفصال وإقامة جمهورية إسلامية مستقلة. وفى سبيل ذلك وقعت حربان شرستان كانت الأولى بين عامى ١٩٩٤و١٩٩٦ والثانية بين عام ١٩٩٩و٢٠٠٤. ويوضح الجدول التالى المحطات الرئيسية فى تاريخ علاقة روسيا بالشيشان خلال الخمس عشرة سنة الماضية.

---

(١) لينا جونسن ومراد أيسينوف، مكانة الإسلام السياسى فى النزاعات الأوراسية. دورية آسيا الوسطى والقوقاز، العدد الرابع لسنة ١٩٩٩. (الإصدار الإلكترونى على الإنترنت، باللغة الروسية).

جدول (١) مسلسل العلاقات الشيشانية الروسية ١٩٩١-٢٠٠٦

١٩٩١	تأسيس مؤتمر الشعب الشيشانى وإعلان الاستقلال وانتخاب الجنرال الشيشانى جوهر دوداييف رئيسًا، الذى أعلن الاستقلال عن روسيا فى نوفمبر ١٩٩١.
١٩٩٢	موسكو تحاصر الشيشان اقتصاديًا، وسيادة الفوضى فى الجمهورية .
١٩٩٤	اجتياح روسيا للشيشان ونشوب الحرب الأولى .
١٩٩٦	مصرع جوهر دوداييف، وخلافة سليم خان يندرباييف، الذى وقع فى أغسطس من نفس العام اتفاقية سلام ترجئ البت فى استقلال الشيشان حتى نهاية عام ٢٠٠١ .
يناير ١٩٩٧	انسحاب القوات الروسية وإجراء انتخابات رئاسية فاز فيها أصلان مسخادوف ووقع مع الرئيس الروسى بوريس يلتسين اتفاقية سلام بين روسيا والشيشان.
سبتمبر ١٩٩٩	اجتياح روسيا للشيشان ونشوب الحرب الشيشانية الثانية.
٢٠٠٢	معارك شرسة فى الشيشان بين المقاتلين والقوات الحكومية الروسية.
٢٠٠٣	أحمد قاديروف المفتى السابق للمقاتلين الشيشان يفوز برئاسة الشيشان مدعومًا من الكرملين .
٢٠٠٤	اغتيال أحمد قاديروف رئيس الشيشان وانتخاب على ألخانوف خلفًا له.
٢٠٠٥	اغتيال الرئيس الشيشانى سليم خان يندرباييف فى العاصمة القطرية الدوحة، واغتيال أصلان مسخادوف زعيم المقاتلين الشيشان، واختيار سعداللايف خلفا له .
٢٠٠٦	اغتيال سعداللايف، ثم اغتيال قائد جماعات المقاتلين الأشهر شامل بساييف وإحكام موسكو قبضتها على الشيشان وهدوء حذر فى الجمهورية.

هكذا اقترنت روسيا خلال السنوات الخمس عشرة التى تلت سقوط السوفيتية بالحرب فى الشيشان، حتى إن «ثنائية» الزعماء صارت مميزاً إعلاميًا لروسيا فى الخارج، فصرنا نقرن روسيا والشيشان بزعامات وقيادات الحرب مثل جوهر دوداييف وبوريس يلتسين وأصلان مسخادوف وإليكسندر ليبيد ثم شامل بساييف وفلاديمير بوتين.

وترك الغبار الكثيف الذى تولد عن الحرب رؤية ضبابية لما جرى فى الشيشان والمعاناة الإنسانية والتدمير الكثيف الذى أصاب المدن والقرى فى تلك الجمهورية الصغيرة. وبالمثل تركت هذه الحرب أمراضًا نفسية لجيل كامل من الشباب الروسى الذين اشتركوا فى الحرب أو انتظروا – مرتجفين– دورهم فى التجنيد إلى تلك الجمهورية التى وصفت بأنها «ركن صغير فى جهنم».

نبع خوف روسيا من خيار الشيشان الانفصالى من مبدأ الدومينو الذى تقع بموجبه سلسلة من التداعيات تؤدى إلى مطالب بانفصال مزيد من الجمهوريات، اعتمادًا على نفس الحجج الشيشانية، كالقومية الغالبة فى الوحدة الإدارية، والتمايز الثقافى والدينى، والثروات الطبيعية، والأهمية الاستراتيجية، وتاريخ الصدام.

وفى المقابل كانت روسيا تراهن على فشل خيار الانفصال بالتأكيد على قلة حيلة الشيشان بسبب تواضع المقومات السكانية والمساحية، وضعف الموارد وقلة الإمكانات الاقتصادية، ومن ثم توقعت لها الاعتماد على المساعدات الخارجية والتحالف مع أعداء روسيا على المستويين الإقليمى والدولى.

لم تكن مشكلة روسيا فى انفصال الشيشان جغرافية فحسب، بل فى مزاوجة الشيشانيين بين ما هو قومى وما هو دينى. فسرعان ما أتت المزاوجة بين الدين والانفصال بعد إعلان استقلال الشيشان بثلاث سنوات حينما لجأ الجنرال جوهر دوداييف رئيس الشيشان الأول والضابط السابق فى الجيش السوفيتى إلى الجماعات الإسلامية فى الشيشان عام ١٩٩٤ لمجابهة ضغط موسكو عليه وتأليب جماعات داخل الشيشان للقفز إلى السلطة(١).

هكذا ألقت «أسلمة» الصراع زيتاً على نار المجابهة بين روسيا والحركة الانفصالية فى الشيشان لدرجة أوقعت بين صفوف الشيشانيين ٣٠,٠٠٠ قتيل وشردت أكثر من ربع مليون نسمة خلال أولى سنوات الحرب التى دارت رحاها بين عامى ١٩٩٤و١٩٩٦(٢).

وفى الوقت الذى توجهت فيه الهيئات الدولية بالنقد اللاذع لممارسات روسيا فى الشيشان لدرجة دعت دولاً غربية ومنظمات حقوق الإنسان إلى تنبيه روسيا إلى خطورة «التطهير العرقى» الذى يرتكبه الجيش الروسى فى الشيشان كانت روسيا تعتبر أن ما تقوم به ليس سوى دفاع عن الحضارة الإنسانية ضد البربرية وأن وقوفها ضد «الإرهاب» الذى يسعى إلى بلقنة أراضيها لم يختلف عن وقوفها ضد انتشار الحرب الأهلية التى بدأت فى طاجيكستان عام ١٩٩٢

(١) انظر للتفصيل مراد بطل الشيشانى الحركة الإسلامية فى الشيشان والصراع الشيشانى–الروسى(١٩٩١–٢٠٠٠). عمّان. مركز القدس للدراسات السياسية ٢٠٠٢.

(2) Cohen. A. The "new great game": Pipeline politics in Eurasia. Caspian Crossroads magazine. Volume 2, Issue No.1, Spring-Summer 1996 (Online edition).

وكـان بـوسـعـهـا الانـتـقـال إلـى بـاقـى الفضـاء الـجـغرافـى لـمـا بـعد السـوفـيـتـيـة. بـل إن مـوسـكـو رأت أن وقـوفـهـا الصـلب فـى الـحـرب الشيشانية كان حماية لأوربا من انتشار الفوضى وعدم الاستقرار وهو يشبه وقفتها الصلبة أمام الغزو المغولى التترى والغزو النازى، ومن ثم فقد انتظرت الشكر لا النقد[1].

وبـعـد مـرور ١٥ سـنـة عـلـى الصـراع الـروسـى الشيشـانـى (١٩٩١-٢٠٠٦) وسقوط نحو مائة ألف قتيل شيشانى نجحت روسيا بقبضتها الـحـديـديـة فـى إيـقـاف انـتـقـال عـدوى الـعـصـيـان فـى الشيشـان إلـى بـاقـى الـجـمـهـوريـات الـقـوقـازيـة، مـمـا جـعـل الـشـيـشـانـيـيـن يـقـفـون منعزلين فى خيارهم، و أعطى درسًا قاسيًا ورسالة بليغة لباقى القوميات فى روسيا على العموم وفى القوقاز على الخصوص أن أى انتقاص من خريطة روسيا الحالية سيلقى ردًّا داميًا على غرار ما شهدت الشيشان.

لا يمكن استبعاد تكرار حدوث الأزمة الشيشانية فى المستقبل، فعمر هذه القضية يزيد اليوم عن قرنين من الزمان ويبدو أن الحل الأمثل يكمن فى تفعيل قوانين الفدرالية التى تقوم عليها الدولة الروسية، بما يضمن حصول الشيشان على برلمان خاص ونظام إدارى ومالى وقضائى مستقل مع وجود ممثل عام للحكومة الروسية إلى جانب الحكومة المحلية، ولا يكون للجيش الروسى فى الجمهورية وجود. وفى المقابل لا تقوم الشيشان ببناء جيش إلا بعدد رمزى وعلى ألا تمثل فى المحافل الدولية ككيان سياسى[2].

---

(1) Trenin. Op cit. P 280.

(2) Jamestown foundation. Chechnya weekly- news and analysis on the crisis in Chechnya.2002. www.jamestown.org/.

وفي المستقبل تعول الشيشان على استعادة شهرتها كمركز لتكرير النفط. فرغم استنزاف إنتاجها خلال الحقبة السوفيتية وتوقف عمليات التكرير فيها منذ اشتعال الحرب الروسية الشيشانية فإن مستقبل الشيشان الاقتصادى يعتمد على استعادة البنية الأساسية لتكرير النفط.

وقبل الحربين المدمرتين اللتين عانتهما الشيشان كان لدى الشيشان ثلاث مصافٍ للنفط هى الأكبر في كل جنوب روسيا بطاقة تكريرية مقدارها ٣٠ مليون طن سنويًا. وبإعادة إعمار القطاع النفطى فى الشيشان ستستفيد روسيا من موقع الشيشان على طول خط الأنابيب باكو- نوفارايسيسك لصناعة تكرير النفط القزوينى[١].

وتعمل روسيا على أن تقدم لمنطقة القوقاز النموذج التترستانى أو النموذج الداغستانى على أقل تقدير. فقد بدا لافتًا للانتباه ذلك الهدوء الذى تعيشه جمهورية داغستان فى وقت تشتعل فيه الحرب فى الشيشان المجاورة. لا تقل داغستان أهمية عن الشيشان، بل هى فى ميزان الجغرافيا السياسية أكثر أهمية بوقوعها مباشرة على بحر قزوين الثرى بالنفط ومصائد الأسماك والكافيار ومحطة عبور أنابيب النفط القزوينى إلى جنوب روسيا، ومع خصائصها الإثنية والديموغرافية المعقدة لم تلفت داغستان الانتباه الدولى على نحو ما فعلت الشيشان.

يعود السبب الرئيسى إلى أن داغستان، وإن سكنها ضعف سكان الشيشان (٢ مليون نسمة)، إلا أنه لا توجد بها قومية مسيطرة تمثل

(١) عاطف عبد الحميد . الصراع الروسى الشيشانى فى ضوء الرؤية الجغرافية لنزاعات القوقاز. القاهرة. دار الحريرى ٢٠٠٤ ص ١٩٦.

غلبة ديموغرافية. فالسكان موزعون على ٣٤ مجموعة عرقية لغوية وتنقسم كل مجموعة منها - مثل الآفار والأذر والشيشان والليزجين والنوغاى - إلى مجموعات إثنية فرعية. وعلى المستوى الدينى، فإن كان الإسلام هو الدين الغالب فى الجمهورية إلا أن السكان (المختلفين إثنولغويًا) منقسمون أيضًا تجاه التوجهات الإسلامية المتباينة بين نزعات صوفية وأصولية(١).

طالت الحرب الشيشانية الأجزاء الغربية من داغستان لدرجة أن الشرارة الأولى للحرب الثانية قد اشتعلت فى أغسطس ١٩٩٩ من غرب داغستان، حينما حاول فريق من المسلحين الشيشان إقامة «دولة إسلامية» فى غرب داغستان تمهيدًا لتوحيد جمهوريتى داغستان والشيشان كنواة لإقامة دولة القوقاز الإسلامية بين بحر قزوين والبحر الأسود.

وقد دفعت هذه الأحداث موسكو إلى تقوية قبضتها فى داغستان والانتباه إلى كافة التفاصيل وفى مقدمتها اللعب على التوازنات السياسية بين مختلف الأحزاب والحركات السياسية بما يضمن لها الولاء والتبعية. وقد تم ذلك من خلال إجراء تعديلات فى دستور الجمهورية بما لا يسمح بظهور تكتلات عرقية على المسرح السياسي، ويضمن لا مركزية فى ظهور ممثلين سياسيين عن الجماعات العرقية فى الجمهورية، وهو ما نسخ حالة الفسيفساء العرقية إلى فسيفساء سياسية(٢).

(1) Kisriev. E & Ware. R. Russian hegemony in Dagestan. Post-Soviet Affairs, 2005.21, p 26.

(2) Kisriev. E . Why is there stability in Dagestan but not in Chechnya?. In Koehler. J & Zurcher. C (eds) Potentials of disorders. Manchester Univ. Press. .2003 p121.

وقد ضمنت مثل هذه القوانين الانتخابية والإدارية الحفاظ على قبضة روسيا قوية فى داغستان رغم ما كانت مهيأة له من اضطراب بسبب ارتفاع نسبة البطالة، وتدفق ٤٠٠ ألف مهاجر من الشيشان والجمهوريات المضطربة المجاورة، ومحاولات أذربيجان التدخل فى شئونها الداخلية، وتدفق جماعات إسلامية مسلحة إلى الجمهورية لدفعها نحو الانفصال[1].

وعلى المستوى العسكرى، ترتبط القضية الشيشانية فى ذات الوقت بقضية لا تقل أهمية وهى حالة الجيش الروسى الذى خاض معارك الشيشان وأبلى بلاء سيئًا، وشوه سمعة التاريخ العسكرى الروسى الذى عرف بقدراته الفائقة، وبصفة خاصة لتلك الفترة التى يفتخر بها كل روسى وهى فترة الحرب العالمية الثانية، حين دحر الغزو النازى وأوقف الزحف الألمانى على أوراسيا.

لم تبدأ مشكلات الجيش الروسى مع أزمة الشيشان فى عام ١٩٩٤ بل قبل ذلك بنحو ست سنوات. ففى عام ١٩٨٨ وفى خلال سعيه لجعل سياسة إعادة البناء شاملة عمل ميخائيل غورباتشوف على تخفيض حجم الجيش وتقليص الميزانية لصالح الحياة المدنية وبناء الإنسان، الأمر الذى شجع على ظهور أولى المظاهرات فى الاتحاد السوفيتى لأمهات الجنود اعتراضًا على تدهور حالة التغذية لأبنائهن المجندين فى الجيش، فى مشهد لم تكن الحياة السوفيتية تتوقعه. لكن حدث انشقاق كبير فى قيادة الجيش بين مؤيد لسياسة غورباتشوف الساعية إلى الحفاظ على كيان الاتحاد السوفيتى ورئيس روسيا بوريس يلتسين الساعى إلى تفكيك ذلك الاتحاد، وقد

(1) Kisriev. E & Ware. R. op cit p 28 .

أدى هذا الانقسام إلى أن تزعم وزير الدفاع السوفيتي المارشال دميتري يازوف محاولة الانقلاب على غورباتشوف (المتهم آنذاك بالهرطقة السياسية) في أغسطس ١٩٩١ والتي لم تؤت ثمارها بسبب عدم وقوف قادة الجيش في موقف واحد بشأن الانقلاب[1].

ومع تفكك الاتحاد السوفيتي عاش الجيش الروسي أصعب اللحظات ليس فقط بسبب تخفيض ميزانيته بنحو ٦٥٪ لكن أيضًا بسبب ذلك التضارب بين قيادات الجيش في موسكو ونظرائهم في الجمهوريات الأربع عشرة الباقية، فقد سعت كل جمهورية إلى بناء جيش وطني على حساب الجيش الروسي بطريقة مربكة ومتداخلة. وقد عبر وزير الدفاع الروسي آنذاك الجنرال بافل غراتشيف عن سلوكيات الدول المستقلة تجاه الترسانة العسكرية السوفيتية بقوله: «لقد أخذوا كل شيء ولم يتركوا لنا سوى الحطام والمخلفات»[2] .

بدأ الجيش السوفيتي يشهد مزيدًا من التدهور والارتباك، فقد قبل الجيش الروسي خفض ترسانته النووية تبعًا لاتفاقية ستارت ٢ التي وقعت بين يلتسين وجورج بوش الأب في يناير ١٩٩٣؛ ثم اضطر للموافقة على التعاون العسكري مع حلف الناتو تحت مسمى «الشراكة من أجل السلام» ولم يكن بوسعه سوى رصد اقتراب الحلف من الدول المستقلة في شرق أوربا والبلطيق، وزاد الموقف تدهورًا سكوت الجيش الروسي عن وصول قوات أجنبية من الدول الأوربية للمشاركة

(1) Holloway. D & McFaul. M. Demilitarization and defense conversion. In Lapidus. G (ed) The New Russia: troubled transformation San Francisco. Westview Press.1995. P 194.

(٢) صحيفة النجمة الحمراء بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٩٢ (نقلاً عن:
. (Holloway. D & McFaul. M (1995)

فى حل النزاعات العرقية التى أصابت الدول المستقلة فى القوقاز وآسيا الوسطى وأوربا الشرقية وهى مناطق كان الجيش يعتبرها «خطوطًا حمراء» فى الوقت الذى كان يستعد فيه لسحب قواته وتفكيك قواعده العسكرية من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق[1].

فى العام الذى اندلعت فيه حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤) كان ١٠٠,٠٠٠ ضابط قد ترك العمل فى الجيش إلى أعمال أخرى، واشتكى بعض قطاعات الجيش من عجز فى الفنيين والضباط المتخصصين. أما من بقى فى المؤسسة العسكرية فقد عانى كثير منهم من تردى الأوضاع المعيشية لدرجة أن ١٨٠,٠٠٠ عسكرى روسى كانوا فى انتظار المساعدات الألمانية (نظير انسحاب القوات الروسية من ألمانيا الشرقية) للحصول على شقق للسكن والإيواء. الكارثة الكبرى كانت الفساد والرشاوى وسرقة المعدات العسكرية وارتباط بعض العسكريين بالمافيا الروسية. ولم يكن ذلك أمرًا قابلاً للكتمان، فقد أعلن رئيس الوزراء الروسى فى عام ١٩٩٤ عن خطة جديدة لإيقاف السرقة والفساد فى الجيش الروسى، وذلك فى أجواء تظاهرات شعبية اعتراضًا على اغتيال صحفى روسى فضح عمليات الفساد الكبرى التى شهدتها القوات الروسية فى ألمانيا[2].

ومع تنامى هذه الأوضاع، بدأ الجيش الروسى يعيش حالة من الانقسام الداخلى بين ضباطه الذين عاشوا فى تلك الفترة فى فئات

(1) Holloway. D & McFaul. M. op cit. P 198.

(2) Allison. R. The Russian armed forces : structures, roles, and policies. in Baranovsky. V (ed) op cit. p 167.

طبقية، وساءت معاملة العسكريين لبعضهم البعض ورفض بعضهم تنفيذ الأوامر العسكرية، وهرب من الجيش عشرات الآلاف كل عام[1].

على الجانب الآخر كان هناك انقسام بين بعض قادة القوات المسلحة والقيادة السياسية. فالجنرال البارز إليكسندر ليبيد قارن غزو الشيشان فى عام ١٩٩٤ بالغزو السوفيتى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩ وهو ما أدى إلى انقسام حاد بين ضباط الجيش وجنوده[2].

وحين هُزم الجيش الروسى فى عام ١٩٩٦ فى الشيشان، فوض الرئيس بوريس يلتسين إليكسندر ليبيد للتفاوض مع الرئيس الشيشانى آنذاك أصلان مسخادوف فى إحدى مدن داغستان ووقعا اتفاقية سلام بين روسيا والشيشان. لكن ليبيد الذى كان شخصية سياسية وعسكرية كاررمية قُتل فى حادث غامض حين تحطمت طائرته المروحية فى مايو ١٩٩٨.

كانت هزيمة روسيا فى حرب الشيشان الأولى جرس إنذار لضرورة إصلاح الجيش. وقد تركزت عمليات الإصلاح على محاور أساسية أهمها تخفيض عدد الجيش من ٣ ملايين جندى إلى ما بين ١,٥ – ٢ مليون جندى، والسعى إلى إقامة جيش حديث يعتمد على ثنائية التجنيد والاحتراف، وإعادة ترتيب قيادته، وتكوينه الهرمى، والنهوض بمستوى الخدمات الطبية والاجتماعية التى وصلت إلى مستوى متدن[3].

(١) صحيفة موسكوفسكى كومساموليتس بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٩٤ (نقلاً عن: Allison.R (1997)

(2) Konovalov. A. The Changing role of the military factors. In Baranovsky. V (ed) op cit. P 200.

(٣) سيريريانكوف. مرجع سابق. ص ٢٧١ .

وبينما لم تؤت هذه الإصلاحات تحسنات كبيرة فى النصف الثانى من التسعينيات، بسبب أزمة الانهيار الاقتصادى الذى شهدته روسيا فى أغسطس ١٩٩٨، إلا أن غزو الجيش الروسى الشيشان من جديد فى نهاية عام ١٩٩٩ قد أظهر أن تحسنًا كبيرًا قد أدخل على الجيش، وقد بدأت خطوات الإصلاح تؤتى ثمارها منذ تولى الرئيس فلاديمير بوتين رئاسة روسيا فى عام ٢٠٠٠، وبصفة خاصة مع الجهود التى قام بها وزير الدفاع سيرجى إيفانوف ورفع المخصصات المالية التى صارت توجه لتطوير الجيش وإصلاحه ودعم إقامة جيش احترافى[١].

لكن هذا التحسن يجب فهمه من خلال مقارنته بالحالة التى كان عليها وقت تفكك الاتحاد السوفيتى، ولا يعنى للمراقبين أن الجيش الروسى قد وصل إلى المستوى الذى يتناسب مع مكانة روسيا كدولة عظمى، فما زالت المشكلات الكبيرة قائمة وتحديث الأسلحة والمعدات والتقنيات يلاقى عقبات التمويل وعدم كفاية الميزانية السنوية[٢].

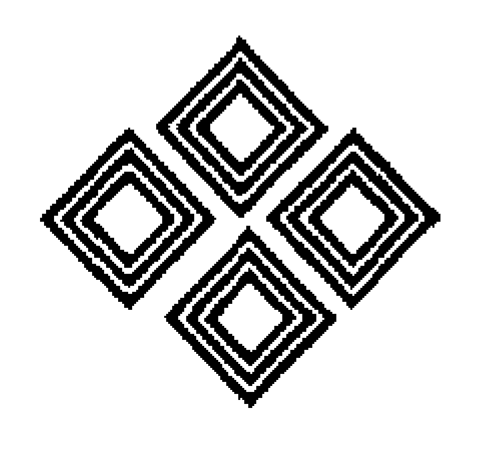
وفى ذات الوقت سيتوقف مستقبل الشيشان على مستقبل المسار الديموقراطى وتفعيل قوانين الفدرالية والحقوق الإدارية داخل الاتحاد الروسى. فالاختلاف فى منهج الحكم بين الرئيسين يلتسين وبوتين قد انعكس على درجة الانفصال والتحدى الذى أظهرته

(1) Beasley. K . Russian military reform from perestroika to Putin: implications for U.S Policy. U.S Air Force Fellows, Alabama. Maxwell Air Force Base,.2004 P 56-60

(2) De Haas. M. Russia's Military Strategy: Preparing for the Wrong War? The Power and Interest News Report (PINR).2006 www.pinr.com/report.php?ac=view_report&report_id=478.

الشيشان. فالرئيس يلتسين قبل التفاوض فى عام ١٩٩٦ ومن ثم تم تجميد المشكلة، بينما رفض الرئيس بوتين التفاوض مع أية جهة شيشانية متبعًا منهج القبضة الحديدية التى أعادت الشيشان إلى روسيا، وإن بسيل من الدماء.

هذه كانت قصة الجغرافيا والتاريخ والسياسة فى روسيا خلال ألف السنة الماضية، وهى قصة لا تكتمل حلقاتها دون فهم الدائرة الجغرافية الأوسع المحيطة بها فى كل من أوراسيا الجنوبية والغربية.



الفصل الثالث
على طـــــريق الحرير
آسيا الوسطى والقوقاز

«حين انهار الاتحاد السوفيتى عاشت آسيا الوسطى والقوقاز لحظات مدهشة، كان أبرزها تلك المشاهد التى أزيحت فيها فجأة كل أفكار ماركس ليفسح الطريق من جديد لتعاليم محمد، كما تقدم الرؤساء الذين ترعرعوا فى أحضان الشيوعية ليقسموا يمين الرئاسة على القرآن».

ديليب هيرو ١٩٩٣

نظرة إلى الماضى

تعود معرفتنا بآسيا الوسطى والقوقاز إلى القرن السادس قبل الميلاد، حين تعاقب عليهما التوسع الفارسى ثم اليونانى قبل أن تعبرها جيوش الإسكندر[1]. ورغم أن ملوك الفرس الساسان أعادوا الإقليمين لسيطرتهم فإن صفة العبور لم تتغير فيهما حتى القرن الثالث الميلادى، حين تحولت إلى الوظيفة التجارية لخدمة طريق الحرير، أعقبها تمدد الإمبراطورية الرومانية التى خاضت حروبًا مع الفرس للهيمنة والسيطرة[2].

ولقربه من نفوذ الإمبراطورية الرومانية شهد إقليم القوقاز تأثيرًا متناميًا للرومان حتى اعتنق قيصر الأرمن المسيحية. وفى خضم سلسلة متتابعة من الحروب الرومانية الفارسية شهدت الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين تقسيم الإقليم بين سيطرة فارس وسيطرة بيزنطة. وإن حافظت بيزنطة على سيادتها فى شمال شرق البحر الأسود وبحر آزوف حتى نهاية القرن السابع الميلادى[3].

دخل الإقليمان تاريخًا جديدًا بالفتح الإسلامى الذى امتد فيما وراء النهر، وإن تحولت فيما بعد إلى سيادة اسمية. ففى القرن التاسع الميلادى حكمت ما وراء النهر الدولة الطاهرية ثم السامانية تحت سيادة اسمية للعباسيين، ثم بسطت الدولة الغزنوية سيادتها فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين على آسيا الوسطى.

(1) Melvin. N. Uzbekistan, Transition to authoritarianism on the Silk Road. Amsterdam. Harwood Academic Pub. 2000. p2

(2) Barrowclough. op cit. p23-25.

(٣) جادجييف.مرجع سابق. ص ١٤.

وقسمت دولة الخلافة الإسلامية القوقاز إلى أربع ولايات هى: أذربيجان والران وجرزان وأرمينية. ويختتم التاريخ الإسلامى فيما وراء النهر والقوقاز بإقامة ممالك الأتراك السلاجقة فى القرن الثانى عشر الميلادى[1].

تغيرت خريطة آسيا الوسطى والقوقاز مع اجتياح التتر، فقسم الإقليمان بين القطيع الذهبى ودولتى جغتاى وهولاكو بين القرنين ١٤و١٥، قبل أن يتفتت إلى إمارات صغيرة متناحرة لتصبح هدفا مغريًا للروس[2].

توسعت روسيا فى آسيا الوسطى عبر مرحلتين، الأولى بدأت فى القرن الـ ١٨ وأوائل القرن الـ ١٩ بالانطلاق من جنوب سيبيريا وجبال الأورال فى اتجاه الإستبس الكازاخى متنكرة فى صورة التوسع الزراعى وبتهجير موجات متتالية من الفلاحين الروس والأوكرانيين نحو الإقليم. وبدأت المرحلة الثانية فى النصف الثانى من القرن الـ١٩ بالاحتلال العسكرى لجنوب كازخستان ومنها إلى قلب آسيا الوسطى، فأسقطت إمارات بخارى وخيوة وخوقند، التى كانت تستنجد بالروس لقتال بعضها بعضًا[3].

وفى القوقاز تم التوسع عبر مرحلتين متشابهتين من خلال الانطلاق من المعاقل الحصينة التى شيدتها الإمبراطورية الروسية فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود بالتعاون مع قبائل القوزاق التى

(1) Giffen. L. Central Asian Societies and the Oral Literature of epic heroes. In Erturk. K (ed) Rethinking Central Asia. Reading. Ithaca Press. 1999 P65

(2) Melvin.N. op cit. p6-8.

(٣) العيلة: محمد حسن. أواسط آسيا الإسلامية بين الانقضاض الروسى والحذر البريطانى. الدوحة.دار الثقافة ١٩٨٦ ص٢٣.

تحالفت مع الروس، وكانت الشيشان وجورجيا وأرمينيا هى المحطات المهمة فى تاريخ التوسع[1].

لم تفلح المقاومة التركمانية فى عرقلة سقوط آسيا الوسطى لروسيا فى عام ١٨٩٥ بناء على اتفاقية أبرمتها مع بريطانيا صاحبة المستعمرات فى آسيا الجنوبية. ومع قيام الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧ ظن الشيوعيون أن الأمر سيمضى لهم فى آسيا الوسطى دون مقاومة، لكن ثورة «البسماتشى» خالفت توقعاتهم. كانت البسماتشى انتفاضة للفلاحين الذين وصفتهم موسكو بالغوغاء بعد أن امتدت ثورتهم إلى أجزاء واسعة من التركستان تحت قيادة الزعيم التركى الأصل أنور باشا، أحد قادة حزب العدالة والترقى، الذى كان يسعى إلى إقامة الاتحاد الطورانى مع تركيا[2] ، وكانت البسماتشى ثورة شعبية رفضت التجنيد الإجبارى وتمردت على تسخير الفلاحين لزراعة القطن وارتبط زعماؤها بقادة حركة مقاومة الاستعمار البريطانى فى البنجاب وأفغانستان [3].

ويرى بعض المؤرخين [4] أن جزءًا أساسيًا من النجاح السريع الذى حققته ثورة البسماتشى جاء من خلال التحالف مع القوات الروسية القيصرية (البيض) فى محاربة الشيوعيين (الحمر) فضلاً عن دعم

(1) Gammer. M Muslim resistance to the Tsar: Shamil and the Conquest of Chechnya and Dagestan. Frank Cass & Co., London.1994.p 13.

(2) Fierman. W. The Soviet "Transformation". In Fierman.W (ed) Soviet Central Asia, The failed Transformation. Boulder. Westview Press. 1991. P15.

(3) Paksoy. H. Basmachi movement from within: account of Zeki Velidi Togan. Published in "Nationalities Papers" Vol. 23, No 2. June 1995. pp. 373-399.

(4) Melvin. N. op cit. p 14-17.

البريطانيين الذين كانوا فى جنوب المنطقة فى كل من الهند وأفغانستان وكانوا يتصارعون مع روسيا على السيادة فى المنطقة فيما عرف تاريخيًا باسم اللعبة الكبرى.

كانت البسماتشى قد طالت بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٦ كل التركستان رغم مقتل أنور باشا فى عام ١٩٢٢، ولم يملك الشيوعيون إلا الإقرار بهزيمتهم وكادوا يصرفون عن التركستان الأنظار قبل أن يحدث تحول فى قوة البسماتشى يعيد السوفيت ثانية. فقد وقعت البسماتشى فى اشتباكات بينية أضعفت من قوتها، مما سمح للبلاشفة بقمع الثورة فى عام ١٩٢٦ من خلال عمليات قاسية أجبرت عشرات الآلاف على هجرة وطنهم، كما استسلم البعض تحت وعود شيوعية بإصلاح السياسة المتبعة تجاه احتكار ملكية الأرض الزراعية والاضطهاد الدينى[١].

وبعد الثورة الشيوعية قسمت أواسط آسيا إلى جمهوريات سوفيتية على أساس القومية السائدة[٢]. لكن المقاومة الشعبية للسوفيت عادت من جديد مع الاختلال الذى عاشه الجيش السوفيتى إبان الحرب العالمية الثانية. وقد تزعم الثورة فى عام ١٩٣٩ هذه المرة فايزالله خودشييف رئيس أوزبكستان وأحد علماء التجديد الدينى والوعى القومى فى آسيا الوسطى بهدف تحقيق الاستقلال عن القبضة الشيوعية[٣] كما لعب القائد البارز سلطان غالييف دورًا مهمًا فى إحياء فكرة الاتحاد الطورانى على أسس عسكرية قبل أن يلقى حتفه على يد ستالين[٤].

(1) U.S. Library of Congress.The Basmachi. (http://countrystudies.us).
(2) Clem. R. The new Central Asia: Prospects for developments. . in Bradshaw.M (ed) op cit. P 169.
(3) Myer. W. Islam and colonialism, western perspectives on Soviet Asia. London. Routledge Curzon. 2002. p82-84.
(4) Haghayeghi. M. Islam and politics in Central Asia. New York. St. Martins Press. 1995.p181.

وقد نجحت الوسائل القسرية للقبضة الشيوعية فى عزل النخب المثقفة ذات الوعى القومى والدينى عن الجمهور، وحالت بمراقبتها الأمنية الصارمة دون ظهور القوة الأكبر وهى قوة المد القومى الطورانى التى كان بوسعها تحقيق ثورة شاملة تسقط الشيوعية وتحرر أرض التركستان من قبضة السلافيين[1]، لكن المنطقة بقيت فى حالة ركود إجبارى لنحو أربعة عقود حتى فوجئ سكان المنطقة بالموت المفاجئ للمارد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١.

ومع الاستقلال عام ١٩٩١ ورثت آسيا الوسطى حدود الجمهوريات السوفيتية، فأصبحت دولا مستقلة، بينما قسم القوقاز بين أربع دول، ثلاث فى القوقاز الجنوبى تحولت حدودها أيضًا من حدود جمهوريات سوفيتية إلى حدود دولة مستقلة (أذربيجان وجورجيا وأرمينيا) بينما احتفظت روسيا بالقوقاز الشمالى، بما يشمله من جمهوريات داخل جمهورية روسيا وهى: داغستان، والشيشان، وأنجوشيا، وقابردين بلقاريا، وأوسيتيا الشمالية –ألانيا، وكارتشييف شيركيسيا، والأديغة.

جدول (٢) مجمل التاريخ السياسى لآسيا الوسطى والقوقاز

الفترة الزمنية	الدولة المهيمنة	نمط خريطة الإقليم
من القرن السادس ق.م إلى القرن الرابع الميلادى	فارس	منطقة توسع هامشى
من القرن الرابع إلى القرن السابع	إمارات صغيرة محلية	منطقة عبور
من السابع إلى الثالث عشر	الخلافة الإسلامية	منطقة شبه مركزية للخلافة
من الثالث عشر إلى القرن السابع عشر	المغول	منطقة مركزية
من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين	الروس	منطقة هامش للمركز
القرن العشرون	السوفيت	منطقة هامش للمركز
القرن الحادى والعشرون	الاستقلال	الدول الوطنية

(1) Myer. W. ob cit. p 89.

استقلال لا مفر منه[1]

لم يكن انهيار الاتحاد السوفيتى موتًا مفاجئًا للنظم الحاكمة فى دول آسيا الوسطى والقوقاز فحسب، بل كان موتًا غير مرغوب فيه لتلك النظم التى خشيت التغير المجهول. ولهذا فقد تباطأت دولة مثل كازاخستان التى انتظر رئيسها نورسلطان نزاربييف إلى آخر لحظة علّ الاتحاد السوفيتى تعود إليه الأنفاس من جديد. فالموقع المهم بالنسبة لموسكو، وما بحوزة كازاخستان من ترسانة نووية، ومحطة إطلاق المركبات الفضائية، والثروة النفطية، وأكثر من ثلث سكانها من السلافيين جعل كازاخستان آخر من أعلن الاستقلال فى ١٦ ديسمبر ١٩٩١، بعد أسبوع كامل من إعلان تفكك الاتحاد السوفيتى رسميًا[2].

كما كانت أوزبكستان من الدول التى شعر رئيسها إسلام كريموف – والذى صار رئيسًا بعد الاستقلال كنظيره الكازاخى– أن الموقع الحبيس لدولته لا يصنع له موقعًا مشجعًا إن استقل عن روسيا التى كانت تضمن له مزية الارتباط بقوة عظمى.

---

(١) بُنى جزء من هذا الموضوع على دراسة للمؤلف نُشرت فى موقع (الجزيرة. نت) بعنوان «١٥ سنة من الاستقلال.. ماذا جنت آسيا الوسطى؟» بتاريخ نوفمبر ٢٠٠٦.

(2) Olcott. M. Central Asia's New States : Independence,Forein policy, and regional security.United States Inst. of Peace Press. Washington.1996. p 4.

جدول (٣) البيانات الأساسية لدول آسيا الوسطى والقوقاز

الدولة	المساحة (مليون كم٢)	٪ من مساحة الاتحاد السوفيتى السابق	عدد السكان (مليون نسمة)	٪ من سكان الاتحاد السوفيتى (لحظة الاستقلال)	نسبة المسلمين	أكبر مجموعة عرقية	أهم الأقليات
أوزبكستان	٠,٤٥	٢,٢٥	٢٧	١٠	٨٩٪	الأوزبك ٨٠٪	روس ٨٪
تركمنستان	٠,٤٩	٢,٤٥	٤,٩	٢	٨٩٪	التركمان ٨٥٪	روس ٣٨٪ - أوكرانيون ٥٪
طاجيكستان	٠,١٤	٠,٧	٧,١	٤	٩٠٪	الطاجيك ٦٥٪	روس ٢٢٪ - أوزبك ١٢٪
قرغيزيا	٠,٢	١	٥,٢	٢	٧٥٪	القرغيز ٦٤٪	أوزبك ٢٣٪ - روس ٧٪
كازخستان	٢,٧	١٣,٥	١٥,١	٥	٤٧٪	الكازاخ ٦٤٪	روس ٦٪ - أرمن ٦٪
جورجيا	٠,٠٧	٠,٤	٥	٢	١٥٪	الجورجيون ٧٠٪	الأبخاز الأوسيت والماسخيت
أرمينيا	٠,٠٣	٠,٢	٣,٥	١,٣	١٪	الأرمن ٩٣٪	الأكراد ٤٪، الأذر والروس ٣٪
أذربيجان	٠,٠٩	٠,٦	٨	٣,٢	٩٤٪	الأذر ٩٠٪	الداغستان ٣٪ والروس ٣٪.

وقد أثبتت السنوات الطويلة التى أعقبت الاستقلال أن ما كانت تخشاه كازاخستان وأوزبكستان كان له ما يبرره، فقد وقعت هاتان الدولتان بين المطرقة والسندان، حين ثارت عليهما القوى الأيديولوجية من الداخل ساعية إلى إقامة حكم إسلامى ، والقوى الخارجية التى غزت أفغانستان وسعت لإقامة القواعد العسكرية.

ولقد أدى هذا إلى تردد موقف الحكومة الأوزبكية بين موسكو وواشنطن، تخاصم هذه تارة وتصالح تلك تارة أخرى، غير أنه منذ

عام ٢٠٠٥ – مع اشتداد النقد الأمريكى للقبضة الداخلية ضد المعارضة – عادت أوزبكستان من جديد إلى الفلك الروسى.

الوضع فى تركمانستان كان لافتًا للغاية، فالاستقلال الذى أعلن عنه فى أكتوبر ١٩٩١ حمل تغيرات رمزية بدت جد لافتة. فكما اُعتبر تغيير أسماء الشوارع فى كازاخستان من أسماء شيوعية إلى أسماء محلية خطوة معتبرة على طريق تدعيم القومية الكازاخية[1] غير الرئيس الشيوعى السابق صابر مراد نيازوف لقبه – حين أصبح رئيسًا لتركمانستان المستقلة– إلى «تركمنباشى» أى «أبو الشعب التركمانى». وفى الوقت الذى تخلى فيه نيازوف عن الرموز الشيوعية، غازل ملامح قومية أخرى ليست أقل رمزية، حين قرر أعيادًا وطنية كيوم العَلَم ويوم السجاد ويوم البطيخ[2].

وإذا نقلنا هنا وجهة النظر الشيوعية، لرأينا للسوفيتية بعضًا من الحسنات حين قامت بدور القابلة التى استلمت المولود التركمانى من حالة شبه قبلية ونصف بدوية تقوم على الرعى وزراعة الواحات قبل الثورة الشيوعية إلى دولة حديثة تعتمد الزراعة النقدية، والصناعة، واستخراج الخامات المعدنية، وذلك حين انهار الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٩١.

على الزاوية الأخرى من الخريطة خاضت قرغيزيا مخاضًا صعبًا بسقوط الاتحاد السوفيتى، ولم تكن تبعات الترويس الثقافى أقل صعوبة، حتى أن الرئيس القرغيزى عسكر عكاييف قد اجتاز اختبار

(1) Oka. N. Nationalities policy in Kazakhstan. In Sakai. K (ed) Social protests and nation building in the Middle East and Central Asia. Instit. of developing economics. Chiba- Japan. 2004. p 183.

(2) Edgar. A. Tribal Nation, The making of Soviet Turkmenistan. New Jersey. Princeton University Press.2004. p 1-2.

اللغة القرغزية -كشرط للترشح لمنصب رئيس البلاد في عام ٢٠٠٠- بصعوبة بالغة، كما لم يكن زعيم المعارضة فيلكس كولوف يتحدث لغة وطنه ولا يجيد كتابتها حين اختير نائبًا للرئيس القرغيزى مطلع التسعينيات [١].

في النصف الأول من التسعينيات حاول الرئيس عسكر عكاييف[٢] المرور بقرغيزيا إلى طريق الديموقراطية، قبل أن تسقط بلاده في مشكلات الفساد والاضطراب الذى أدى إلى اشتعال انتفاضة شعبية عرفت بثورة مارس في عام ٢٠٠٥، وأتت بالمعارض كرمان بك باكييف رئيسًا، والذى كان عكاييف قد أودعه السجن[٣].

الدولة التي دفعت ثمنًا غاليًا لسقوط الاتحاد السوفيتي في أوراسيا كانت طاجيكستان والتي وقعت في حرب أهلية امتدت من العام التالي للاستقلال (١٩٩٢) حتى عام ١٩٩٧ قبل أن تبدأ الأوضاع فيها في الاستقرار منذ عام ٢٠٠٠، ذلك العام الذى يعد بداية لعلاج ما تخلف عن الحرب من مشكلات.

وفي مجمل الأمر تعيش دول آسيا الوسطى - التي ورثت حدود الجمهوريات السوفيتية السابقة- مرحلة انتقالية عند المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويصنفها كثير من المتابعين ضمن دول العالم الثالث. وان كان الفرق بين هذه الدول ودول العالم الثالث أن الأخيرة حصلت على استقلالها نتيجة صراع قومي تحررى طويل لمواجهة الإمبريالية، وكما يشير ماليشيف فإنه أثناء عملية الصراع ضد الإمبريالية تصعد تنظيمات سياسية وتنتشر

(1) Anderson. J. Kyrgyzstan : Central Asia's island of democracy? Harwood academic publ. Amesterdam.1999. P25.

(٢) شغل منصب الرئيس من أكتوبر ١٩٩٠ حتى مارس ٢٠٠٥.

(٣) نيزافيسميا غازيتا بتاريخ ٢٩ مارس ٢٠٠٥.

أيديولوجيات وسياسات، وتبزغ قيادات كارزمية. وهو ما حُرمت منه دول القوقاز وآسيا الوسطى نتيجة نيل الاستقلال فجأة ودون صراع فى السنوات الأخيرة من البيروسترويكا [1].

كما تعانى هذه الدول من غياب تحرك شعبى قادر على تغيير الأوضاع التى توصف داخليًا وخارجيًا بالمتردية ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بمستوى الفقر والفساد. وحين نقارن بين التحرك الشعبى للمطالبة بالحقوق خلال بداية العهد السوفيتي وفترة ما بعد الاستقلال سنجد مرحلة ما بعد السوفيتية تعيش سكونًا راكدًا سببه الخوف من القبضة الشديدة التى تهيمن على مناهج التعامل مع الانتفاضات الشعبية. وللمقارنة شهدت كازاخستان وحدها ٣٧٢ حالة تمرد فى الفترة الشيوعية بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣١ وشارك فيها ٨٠,٠٠٠ شخص اعتراضًا على أوضاع الفقر والتسخير الجماعى [2].

وعلى المستوى الاقتصادى خرجت عديد من دول آسيا الوسطى بقاعدة اقتصادية زراعية شكّلت النسبة الكبرى من العمالة فى هذه الدول، وإن لم تسهم سوى بنحو ٢٠٪ من إجمالى الناتج القومى. وكانت دول آسيا الوسطى السوفيتية تعتمد على نوع بعينه من السلع للتصدير، فبدت أحادية النظام الاقتصادى، مثل الغاز التركمانى، والنفط والمعادن من كازاخستان، والقطن فى أوزبكستان وطاجيكستان.

بل إن الأحادية فى الاعتماد على موارد بعينها بدت حين انهيار الشيوعية جد لافتة، فقد كانت طاجيكستان تحصل على ٤٠ ٪ من

(١) ماليشييف. النزاعات فى العالم الثالث : روسيا ودول الكومنولث، موسكو. ١٩٩٧. ص ٧ (باللغة الروسية) .

(2) Uyama.T. Why are social protest movements weak in Central Asia. In Sakai.K (ed) op cit. p 47 -50.

دخلها القومى من مصنع واحد هو مصنع «تورسونزاده» للألومنيوم[١].

كما عرفت بعض جمهوريات آسيا الوسطى بجمهوريات القطن، المحصول النقدى الذى سخر الاتحاد السوفيتى ثلثى الأراضى الزراعية الغنية فى هذه البلاد لإنتاجه. وفى ظل هذه الأحادية لم يُشرك اقتصاد آسيا الوسطى فى المركب الاقتصادى السوفيتى بنصيب ذى قيمة، بل ترك متأخرًا يقدم فقط المواد الخام. وحين انهار الاتحاد السوفيتى واجهت دول آسيا الوسطى مشكلة أحادية الاقتصاد، فى الوقت الذى كانت معدلات النمو السكانى تتزايد بدرجة شارفت على أن تشكل قنبلة موقوتة.

وقد أدت المتطلبات المائية الكبيرة لمحصول القطن إلى استنزاف موارد مياه نهرى سير داريا (سيحون) و أمور داريا (جيحون) وهما النهران الرئيسان بالمنطقة . وقد أدى استنزاف موارد مياه هذين النهرين إلى عدم وصول مياههما إلى بحر آرال ومن ثم انخفاض منسوبه بشكل كبير. وإذا استمر الوضع فمن المتوقع أن يختفى بحر آرال مع منتصف القرن الحادى والعشرين وما يرتبط بذلك من أمراض و تناقص المياه الصالحة للشرب[٢].

وعقب انهيار الاتحاد السوفيتى صارت زراعة وتصنيع القطن مقسمة بين الدول المستقلة الجديدة، ولم تستطع المصانع الروسية

(1) Gleason.G. Markets and politics in Central Asia, Structural reform and political change. London. Routledge.2003. P 24.

(2) Kulchik. Central Asia after the Empire: Ethnic Groups, Communities and Problems. Eiesnhower Instit.2006. http://www.eisenhowerinstitute.org/programs/globalpartnerships/securityandterrorism/coalition/regionalrelations/ConflictBook/Kulchik.htm.

شراء القطن الأوزبكى بأسعاره الجديدة، ففضل القائمون عليها إغلاقها. وأدى التحول المفاجئ عن زراعة القطن واستبدال محاصيل أخرى به إلى حالة تشبه الانهيار الاقتصادى وخسائر فادحة فى الحصول على العملة الصعبة. إضافة إلى الكساد الذى شهدته المصانع والمراكز التقنية التى كانت قد خصصت لتصنيع القطن.

وأظهرت الإحصاءات أن البون ما زال شاسعًا بين رغبة الاندماج فى النظام الاقتصادى المعولم وبين استعداد اقتصاديات هذه الدول فعليًا لمتطلبات الرأسمالية واقتصاد السوق. وكانت الأسباب متعددة، أهمها هيمنة العلاقات القبلية وروابط الدم على المصالح السياسية والاقتصادية ، وانتشار ثقافة الفساد دون محاسبة، فضلاً عن التعامل بمنهج حلول الوسط لاقتسام المصالح والنفوذ. لكن هذا التعميم يخفى درجات متفاوتة من الإخفاق والنجاح بين دول الإقليم الخمس، والتى يمكن إجمال أهم ملامحها على النحو التالى[1]:

١- حققت كازاخستان خطوات متقدمة على طريق الإصلاح الاقتصادى وتعد نموذجًا يحتذى بالمقارنة بباقى دول الإقليم وبصفة خاصة فى إقرار نظام ٍمالىٍّ وضرائبىٍّ فعَّال مع الحفاظ على تماسك العملة المحلية، والسماح للقطاع الخاص بالمشاركة فى قطاعات فعالة كقطاع الطاقة، كما فتحت الأبواب تدريجيًا للاستثمار الخارجى. لكن يعيب الاقتصاد اعتماده الأحادى على عائدات النفط فى الوقت الذى يتدهور فيه القطاع الزراعى واستمرار قطاعات اجتماعية فى تلقى إعانات مالية من منظمات دولية.

(1) Gleason. G. ob cit. P 34,-36, 99-119 .

٢- تلقى الاقتصاد القرغيزى صدمة كبرى بانهيار الاتحاد السوفيتى ولم يتمكن من التعافى منها سوى منذ عام ١٩٩٦ ، وأصبحت أولى دول الاتحاد السوفيتى السابق التى تنضم إلى منظمة التجارة العالمية فى عام ١٩٩٨ . وإن كان لا يزال القطاع الصناعى غير قادر على العودة إلى ثلث ما كان ينتجه إبان الفترة الشيوعية.

٣- تمثل طاجيكستان واحدة من أكثر الدول التى تضرر اقتصادها بتبعات انهيار الاتحاد السوفيتى وبصفة خاصة خلال فترة الحرب الأهلية (١٩٩٢-١٩٩٧) ، حيث انهار تصدير القطن، المحصول النقدى الرئيسى فى البلاد، لنصف ما كان عليه إبان الشيوعية، وشهد قطاع الحبوب الزراعية تدهورًا مماثلاً، ولم يخرج القطاع الصناعى من شرنقة اعتماده على المصنع الوحيد للألمنيوم فى البلاد. الذى انخفض بمعدلات كبيرة بالمثل. وتزايد اعتماد طاجيكستان على روسيا وأوزبكستان وعلى الإعانات الدولية.

٤- تعد تركمنستان دولة الاقتصاد الأحادى فى الإقليم بامتياز، حيث يشكل الغاز الطبيعى المصدر الأساسى للميزانية السنوية ، فالدولة تحتل المرتبة الرابعة فى احتياطات الغاز على مستوى العالم بعد روسيا والولايات المتحدة وإيران. ويعيب هذا النوع من الاقتصاد ارتهانه لشركة الغاز الروسية الكبرى غازبروم وما لذلك من آثار على التوجهات السياسية للدولة. ويحتاج الاقتصاد التركمانى إلى توجيه الاهتمام أكثر إلى القطاع الزراعى. ومما يبشر بمستقبل أفضل لتركمانستان بدء الدولة فى اتباع سياسة الحياد الإيجابى فى التعامل مع الأطراف الكبرى

اقتصاديًا فى الإقليم وبداية تفكيرها فى فتح الباب لاستثمارات أجنبية للحد من هيمنة القطاع الحكومى.

٥- احتلت أوزبكستان موقعًا من المواقع المتأخرة فى اقتصاديات آسيا الوسطى بسبب اعتماد اقتصادها قبل سقوط الشيوعية على ٥٧ ٪ من عائداته من السلع الخام وفى مقدمتها القطن. وقد استغرقت أوزبكستان السنوات التى تلت الاستقلال فى تحويل القطاع الزراعى إلى الحبوب الغذائية وتخفيف الاعتماد على القطن. ورغم الخطوات التدريجية لإصلاح الاقتصاد فى أوزبكستان، فإنها تبدو متأخرة بالمقارنة بكازاخستان وقرغيزيا وأقرب لطاجيكستان.

هكذا تتضح فرضية الاستقلال الذى أتى على حين غرة، والأشبه باستقلال لا مفرَّ منه نتيجة الصعاب التى واجهت دول آسيا الوسطى بعد أكثر من عقد من استقلالها، فقد وقعت هذه الدول فى مشكلات عدة أبرزها تدهور مستوى الرعاية الطبية والتعليمية وتناقص الدخل الفردى ونزيف العقول إلى خارج البلاد، فضلا عن معاناة البيئة من أخطار التلوث الإشعاعى والكيميائى التى تركتها المراكز الحربية والتقنية الروسية بعد الاستقلال دون صيانة أو رعاية.

وعلى الرغم من أن آسيا الوسطى حين استقلت كانت أفضل من دول العالم الثالث التى حصلت على استقلالها عن القوى الاستعمارية من حيث نسب التعليم التى كانت موزعة على كافة قطاعات الشعب بينما كانت دول العالم الثالث ذات فئات نخبوية عالية التعليم وسط أغلبية أمية، فإن الإحصاءات تشير إلى تدهور واضح فى نسبة التعليم والبحث العلمى بعد أكثر من ١٥ سنة منذ

الاستقلال. وذلك فى منطقة يحمل أربعة من رؤساء دولها الخمس درجة الدكتوراه فى العلوم، حصلوا عليها فى العهد الشيوعى[1].

الصراع الدينى والسياسى

هناك جملة من الملابسات والظروف أدت إلى صعود العامل الدينى فى آسيا الوسطى والقوقاز، أهمها ميراث الشيوعية، والاضطراب الذى شهدته المنطقة عند سقوط السوفيتية، والاستبداد السياسى، والتغلغل العسكرى الأمريكى، وتأخر المستويات الاقتصادية، والاضطرابات العرقية.

ورغم أن جذورًا بعيدة للحركات الإسلامية يمكن أن نجدها فى تاريخ الاستعمار القيصرى للمنطقة، فإن التطور الحديث للظاهرة قد بدأ مع التاريخ السوفيتى. فقد عانت الحياة الدينية فى آسيا الوسطى والقوقاز – كما فى الداخل الروسى– من التهميش والحظر، مع سياسة منظمة لسفيتة الشعوب الإسلامية بتقسيمها إلى وحدات إدارية انفصالية وإحلال الأبجدية اللاتينية ثم السيريالية محل العربية[2].

إضافة إلى ذلك كان النفى والإبعاد لإعادة التوزيع السكانى، من خلال سحب عشرات الآلاف من سكان الإقليم وتوزيعهم على مناطق أخرى، كالأقاليم الشرقية من سيبيريا. وفى ذات الوقت زرع سكان من أصول سلافية فى المدن الكبرى والعواصم ومنحهم الوظائف الإدارية الحيوية على حساب سكان المنطقة [3].

(1) Sievers. E. The Post- Soviet decline of Central Asia. London. Routledge Curzon. 2003. p 63-65.

(٢) سليم ، محمد السيد. الإحياء الإسلامي : دراسة فى حالة المسلمين السوفيت . مجلة العلوم الاجتماعية. الكويت ، العدد الأول. ١٩٨٢. ص ١١٦.

(3) Anderson. J. op cit. P45-49.

وقد لعب هذا الخلل الديموغرافى المتعمد دوراً مهمًا بعد الاستقلال، إذ ارتبطت هجرة السلافيين من الإقليم بتوتر الأوضاع السياسية، حين تم تفريغ المدن من نسبة معتبرة من سكانها، وحل محلها الشباب القادم من الريف محملاً بالأفكار الدينية التى كانت بعيدة نسبيًا عن أعين السلطة المركزية.(١) هذا فضلا عما تركته الحروب الأهلية بعيد الاستقلال من أثر على الاختلال الديموغرافى والتوتر فى دول الإقليم (٢).

ومع هذا، تفيد الدراسات التى أجريت بعد تفكك الاتحاد السوفيتى أن القبضة السوفيتية على الأديان لم تحل دون ممارسات إسلامية تمت بشكل سرى، خاصة من قبل التجمعات الدينية غير المسجلة أو غير القانونية وذلك منذ بداية عقد الستينيات. ففى عام ١٩٦٣ على سبيل المثال، كان هناك ٣٢٥ مسجدًا مسجلاً رسميًا فى كل أنحاء الاتحاد السوفيتى مقابل ٢٠٠٠ مسجد غير مسجل تمارس شعائر «غير قانونية» لمراسم الزواج والدفن، وأداء صلوات الجماعة فى الأعياد والمناسبات فى المناطق المفتوحة (٣).

وفى ذات الوقت ساهم غموض كثير من مفاهيم الماركسية ، وما لحق بها من تعديلات إضافية –فيما عرف بالماركسية اللينينية– فى الإبقاء على المفاهيم الإسلامية حية بين سكان المنطقة. وفى المقابل كانت الأفكار البسيطة التى تطرحها الرؤية الدينية قريبة من الاقتناع والقبول. بالإضافة إلى بعض العوامل الجغرافية، أهمها أن غالبية الحركات الإسلامية التى ظهرت بعد

(١) الشيشانى، مراد بطل.مرجع سابق ص ٦٤–٦٥.

(2) Mukomel.V Demographic consequences of ethnic and regional conflicts in the CIS. Russian Review. vol.42.no 3, May-June 2001. pp 22-31.

(3) Ro'i.Y. op cit. 10-15.

الاستقلال جاءت من منطقة وادى فرغانة الذى يعد نموذجًا حقيقيًا لمجتمع زراعى سخر لزراعة القطن، وهو مجتمع يتسم فى ذات الوقت بالقبلية ويعانى تأخر التنمية الاقتصادية.

كانت فترة البيروسترويكا (١٩٨٥-١٩٩١) فترة مثالية للتوجهات الدينية التى انتهزت غض السلطة المركزية الطرف عن المتابعة، مما جعل المنتمين للتيارات الدينية يستغلون الفرصة فى وقت لم يكن هناك منافس. إذ لم تحقق الحركات القومية فى المنطقة نجاحًا يذكر، بسبب تنوع الخريطة العرقية وتشابكها. وكانت الحركات الإسلامية تنادى بأن «الإسلام دين فوق القوميات» ومن ثم كانت أكثر قدرة على الوصول إلى قطاع أكبر من الفسيفساء التى استهدفتها حركات المد القومى.

لم يكن بوسع الليبرالية والعلمانية أن تحققا نجاحًا فى إقليم ظل بعيدا عن المفاهيم الغربية التى لم يكن الستار الحديدى يسمح بوصولها، وحالت السلطات الشيوعية التى «ورثت» الحكم فى هذه الجمهوريات دون وصول هذه المفاهيم «الدخيلة».

هكذا تم الترحيب بالحياة الدينية من جديد، ففتح المزيد من المساجد، وتوالت الاحتفالات الدينية، وسيرت رحلات الحج والعمرة ، وصارت برامج الإذاعة والتلفاز تعيد إلى الناس تاريخهم الدينى القديم، وتقدم لهم إجابة مهمة عن قضية البحث عن الهوية المفقودة بعد سقوط الشيوعية، بل وتكللت الصورة بقسم الرؤساء الجدد - الشيوعيين سلفا- يمين الرئاسة على القرآن[1].

(1) Hiro.D. Between Marx and Mohammad, the changing face of Central Asia.Harper Collins Publishers.1994. p317-318.

كانت هذه الملابسات ممهدة للطريق لظهور توجهات دينية متضاربة الوسائل ومتقاطعة المقاصد، أثرت فى التطور السياسى والاجتماعى لآسيا الوسطى. وقد نجحت ثلاث حركات إسلامية فى السيطرة على الخمس عشرة سنة التى تلت الاستقلال وهى: حزب النهضة، والحركة الإسلامية الأوزبكية، وحزب التحرير الإسلامى. هذا بالإضافة الى الحركات الصوفية وميراث التجديد الدينى.

كان حزب النهضة أول أشكال الحركات الإسلامية السياسية فى آسيا الوسطى، فقد ظهرت بداياته قبيل انهيار الاتحاد السوفيتى فى طاجيكستان. وجمع أطيافا لأعضاء متنوعى التوجهات الفكرية رغبة فى صياغة استقلال الدولة من منظور إسلامى، مؤكدا على التفاهم بين المسلمين السوفيت وتعاونهم مع النظام السياسى فى الدولة. وينتمى حزب النهضة فى آسيا الوسطى إلى الحزب الأب الذى ولد فى أستراخان بجنوبى روسيا فى يونيو ١٩٩٠ ، وأقام فروعا له فى كل من داغستان وطاجيكستان وأوزبكستان وقرغيزيا [١] ولم يكن يهدف إلى تفكيك الاتحاد السوفيتى، بل إلى توحيد مسلمى الاتحاد تحت مظلته[٢] من خلال المطالبة ببناء مزيد من المساجد ومنع بيع الخمور، وإعادة تسمية الشوارع بأسماء وطنية بدلا من أسماء روسية[٣].

وعلى الرغم من شهرة الحزب فى النصف الأول من التسعينيات فى آسيا الوسطى فإن جذوره تعود إلى السبعينيات على يد محمد رستموف الهندستانى الذى درس فى مدارس ديوباندى الهندية

(1) Yemelianova. G. Islam and power, op cit. p 102

(2) Malashenko.A. Does Islamic fundamentalism exists in Russia. in Roy.Y(ed) Muslim Eurasia: Conflicting legacies. London. Frank Cass. 1995.pp 42-47

(3) Rashid. A. Jihad: The Rise of Militant Islam in Central Asia. 2002. p 100.

وجمع من هناك أفكارا إسلامية عربية وباكستانية. وبعد عودته افتتح مدرسة دينية ضمت مجموعة من الدارسين أطلقوا على أنفسهم اسم «الملالى الشبان».

كانت أفكار الهندستانى وأتباعه أكثر نزوعًا تجاه الفكر الإصلاحى التجديدى وكانت أبرز سلوكياتهم انتقاد رجال الدين الموالين للدولة ومحاولة السيطرة على بعض المساجد مما أدى إلى حالات من الصدام بين الملالى الشبان ورجال الدين الرسميين ، كان أكثرها حدة ما وقع للسيطرة على المساجد المركزية فى مناطق متفرقة من طاجيكستان.[١]

ورغم موت الهندستانى فى أحد سجون سيبيريا فإن أفكاره قد حملها أحد تلامذته من بعده ويدعى عبد الله سيدوف (والشهير بسيد عبد الله نورى) فى نشاط سرى حتى عام ١٩٨٧ حينما قاد تظاهرة لدعم المجاهدين الأفغان فى مقاومتهم للغزو السوفيتى قبل أن يودع السجن أيضًا ويؤسس بعد خروجه فى نهاية الثمانينيات، مع محمد همت زاده، فرعًا لحزب النهضة الذى كان قد تشكل للتو فى روسيا.[٢]

لم تكن الأفكار الأولى للحزب ذات نزعة انفصالية، بل تجنب زعماء الحزب منذ البداية المنهج الراديكالى، وان لم يمنع هذا من وقوع تناقضات محورية بين الراديكاليين والمعتدلين فضلا عن الانقسام داخل قيادة الحزب بين أصحاب النزعة التترية الذين يقودون الحزب وأصحاب الرؤية «فوق القومية» التى لا ترى الحزب مرتبطًا بتتر أو ترك أو غيرهم.[٣]

(1) Mullojonov. The Islamic clergy in Tajikstan since the end of Soviet period, In Dudoignon.S & Hisao.K (eds) Islam in politics in Russia and Central Asia , early eighteenth to late twentieth centuries. New York. Kegan Paul.. 2001. p 226-227.

(2) The journal of Turkish weekly. Islam in Tajikistan, Interview with Abdullo Hakim Rahnamo. 10/02/2005.

(3) Malashenko.A. Does Islamic fundamentalism exist in Russia. Op cit. p 42-47.

ومع تفكك الاتحاد السوفيتى ووقوع طاجيكستان فى حالة من الفوضى السياسية اشترك حزب النهضة مع حركات المعارضة القومية والليبرالية بمظاهرات مهدت للقتال البينى الذى بدأ فى العاصمة دوشانبيه بفوضى عارمة، اختلطت فيها عمليات الخطف والاغتيال والقتل العشوائى مما أوقع البلاد فى مستنقع الحرب الأهلية [١].

حين اشتدت الحرب الأهلية فى طاجيكستان فر كثير من أتباع حزب النهضة إلى باكستان وروسيا وأفغانستان، وفى الأخيرة أقاموا قواعد فى قندز وطالوقان فى شمال شرق البلاد برعاية القادة الأفغان الطاجيك أمثال الرئيس برهان الدين ربانى ووزير دفاعه أحمد شاه مسعود. غير أن الصورة تغيرت مع استيلاء طالبان على العاصمة كابول وأخرجت منها الحكومة الأفغانية ذات الأصل الطاجيكى [٢].

أقنعت حالة الانهيار الاقتصادى والتردى الأمنى فى طاجيكستان مع جهود الوساطة الدولية فى إيقاف الحرب وتم تشكيل حكومة ائتلافية وأدمج جزء كبير من الجناح العسكرى لحزب النهضة ضمن الجيش الحكومى قبل أن يتفكك الحزب ويتلاشى من الخريطة السياسية منذ عام ٢٠٠٠.

القراءات المتعددة لمسيرة الصراع فى طاجيكستان تظهر تشتت حزب النهضة وتمزقه إلى فصائل غير مترابطة لم يعد لها تأثير. وتكاد تكون الصورة قد عادت أدراجها إلى ما قبل الاستقلال حينما كان هناك تعاطف مع الدين، لكن لا حماسة للثورة من أجله، فقد أكلت الحرب الأهلية كل ما تبقى.

---

(1) Mirahmadi. H. The Islamic Renaissance of Uzbekistan. "The Muslim" 1& 2 Winter/Spring 1999 (Internet data).

(2) Rashid.A. Jihad. op cit p103-105.

في المقابل احتلت الحركة الإسلامية الأوزبكية مقعد المقدمة في زخم الصراع الداخلي في أوزبكستان بين السلطة وحركات المعارضة الإسلامية. وقد نشأ أنصارها في كنف حزب النهضة الإسلامي ثم انشقوا عنه مشكلين حزب العدالة، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي فر أنصاره إلى طاجيكستان أمام مطاردة الحكومة الأوزبكية وانخرطوا هناك في الحرب الأهلية. وتتابع تنقلهم بين أفغانستان وباكستان وغرب آسيا قبل أن يعلنوا في ١٩٩٨ عن تشكيل حركتهم المسماة بالحركة الإسلامية الأوزبكية [١].

ورغم أن نشاط الحركة تركز منذ عام ١٩٩٩ في عمليات انتقامية ، فإن الحركة لم تسجل حضورا فاعلا منذ عام ٢٠٠١ منذ مقتل زعيمها يولدشيف في معارك أفغانستان إبان الغزو الأمريكي في أعقاب أحداث سبتمبر. وقد غيرت الحركة اسمها منذ عام ٢٠٠١ إلى «الحركة الإسلامية التركستانية»، رغبة في توسعة النشاط وزيادة الأتباع. وقد قامت عديد من الدول ،مثل الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا، بحظر وتجريم التعامل مع الحركة الإسلامية الأوزبكية [٢]. كما تردد اسم الحركة من جديد في الصدامات الدامية

(1) Mann. P. Islamic Movement of Uzbekistan: Will it Strike Back? Strategic Analysis: A Monthly Journal of the IDSA.
Apr- atad June 2002 (Vol. XXVI No. 2) (internet).

(٢) أعلنت وزارة الخارجية الأسترالية – في نشرتها على موقع الوزارة على الإنترنت – هذا الحظر بتاريخ ١١ أبريل ٢٠٠٣ وأعادت تجديده في ١١ أبريل ٢٠٠٥، كما أعلنت الولايات المتحدة مبكرا عن ذلك الحظر في ٢٠٠١ ثم أعادت تأكيد الحظر في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤، انظر لتفصيل بيان البيت الأبيض:

Adam Ereli, A Deputy Spokesman, "Foreign Terrorist Organization: Redesignation of Islamic Movement of Uzbekistan and Alias. www.state.gov/r/pa/prs/ps/2004/36488.htm accessed on 24 September 2004.

بين القوات الحكومية والمتمردين فى منطقة أنديجان فى مايو ٢٠٠٥ [١].

أما حزب التحرير الإسلامى فقد اعتمد فى بداية ظهوره فى آسيا الوسطى على أسلوب كانت قد اتبعته طالبان فى بداية نشأتها ، وهو تبليغ أفكار الحزب عبر منشورات توزع فى جنح الليل بدسها تحت أبواب المنازل ، ثم تطور الأمر إلى تعليق ملصقات ومنشورات تحوى عداء للصهيونية ، والرأسمالية ، والشيوعية، والمفهوم الغربى للديموقراطية [٢].

ولدى الحزب (أو بمعنى أدق الحركة، إذ لا يمثل الحزب كيانًا سياسيًا) أتباع فى عديد من دول المشرق العربى ودول غرب أوربا. وتعتبر العاصمة البريطانية واحدة من المراكز الإعلامية المهمة. وإن كان الحزب يعزف عن المشاركة السياسية فى أى من دول آسيا الوسطى نتيجة عدم اعترافه بالنظام السياسى القائم على الانتخابات.

وبناء على ما سبق فإن الحركات الثلاث – حزب النهضة والحركة الإسلامية الأوزبكية وحزب التحرير– انتهى مصيرها إلى التجريم والعمل تحت الأرض، وستبقى محظورة وخارج المشاركة السياسية فى معظم الحالات ، وبالتالى فلابد من البحث عن بدائل أخرى من

(١) لمتابعة الأحداث التفصيلية لأحداث أنديجان الأوزبكية راجع التغطية الإخبارية فى الصحف الروسية لفترة منتصف مايو ٢٠٠٥، ولتفاصيل أدق انظر صحيفة كومرسانت الروسية فى تغطيتها بتاريخ ١٤ مايو ٢٠٠٤ فى مقال بعنوان «الإسلاميون ضد إسلام» ، والمقصود بإسلام فى العنوان إسلام كريموف الرئيس الأوزبكى.

(2) Rashid. A. Jihad. Op cit. p 118-123.

داخل المرجعية الدينية لملء الفراغ فى منطقة يمثل الدين جزءا مهما من صيرورتها التاريخية والسياسية، ومن ثم فقد أعيدت الأنظار إلى الإسلام «الثقافى» وليس السياسى، والذى تقدمه الحركات الصوفية.

تعتبر منطقة آسيا الوسطى إحدى المراكز الرئيسية لانتشار الصوفية فى العالم الإسلامى. وقد ساهمت فى نشر الأفكار الإسلامية على نطاق واسع بين البدو وسكان الصحارى. وقد لعبت الطرق الصوفية فى آسيا الوسطى دورًا تاريخيًا مهما فى مقاومة الاحتلال القيصرى والسوفيتى. وأهم هذه الطرق النقشبندية ومركزها بخارى فى أوزبكستان ونشأت فى القرن الرابع عشر الميلادى[1]. إضافة الى الطريقة الكبراوية ومنتشرة فى تركمانستان ونشأت فى القرن الثانى عشر الميلادى، والطريقة الياسوية فى جنوب كازاخستان ونشأت فى القرن الثانى عشر الميلادى. والطريقة القادرية ومركزها وادى فرغانة [2].

وتعتبر الطريقة النقشبندية أهم الطرق الصوفية فى المنطقة، وترجع أسباب هيمنتها فى آسيا الوسطى إلى القدرة على التأقلم والتغير حسبما تقتضى الظروف السياسية والاجتماعية، وتأقلمها لغوياً حسب الموقع الجغرافى الذى تتواجد فيه ، فضلا عن اللامركزية الواسعة التى تسمح بقيام خلايا حرة الحركة لا ترتبط بمركز وإن اشتركت معه فى الشعائر والطقوس. كما تلفظ النقشبندية أصحاب الأفكار الراديكالية وتمنع اندماجهم معها،

(1) Adshead. S. Central Asia in World History. New York. St.Matin. 1993. P163.

(2) Haghayeghi. M. op cit. ,.p77.

بينما تمزج داخلها عديدا من الطرق الصوفية الأخرى (كالياسوية والكبراوية)[1].

كما تتجاوز النقشبندية البعد العرقى فى المرجعيات الدينية، فالمريد الطاجيكى يمكن أن يكون شيخه أوزبكيًا والعكس ، بغض النظر عن بعد المسافات الجغرافية التى تحول بينهما. كما تشترك النقشبندية مع غيرها من الطرق فى إعلاء قيمة الأضرحة وزيارات الموتى من شيوخ الطريقة. وقد تمكنت من عبور مساحات جغرافية واسعة، فوصلت بشيوخ أنديجان ونامانجان فى وادى فرغانة إلى تركستان الشرقية فى غربى الصين اليوم، فتغلبت على ما قبلها من موروثات ، وصارت الطريقة الأكثر تأثيرا بين مسلمى الأيغور فى الإقليم[2].

ومع انهيار الاتحاد السوفيتى بدأت الحياة تدب فى هذه الطرق التى يمكن أن تملأ جزءا من الفراغ الأيديولوجى من خلال تدعيم النهوض الثقافى لشعوب آسيا الوسطى حتى تستدعى موروثاتها وتقاليدها ذات التفسيرات المحلية، فلا تترك بلا دفاع أمام الأفكار الآتية من خارج الإقليم[3].

(1) Bennigsen. A & Wimbbush. E. Mystics and commissars: Sufism in the Soviet Union ,Berkeley ,Univ. of California..1985. p 8-9

(2) Zarcone. T . The Sufi networks in Southern Xinjiang during the Republican regime (1911-1949) : An Overview. In Dudoignon.S & Hisao.K (eds) Islam and politics in Russia and Central Asia (early eighteenth to late twentieth centuries). London. Kegan Paul Publ.2002. pp 119-125

(3) The Nixon Center. Understanding Sufism and its Potential Role in US Policy. Nixon Center Conference Report, edited by Zeyno Baran. Washington.2002.

على الجانب الآخر من التوجهات الدينية يتم البحث الآن عن مفاهيم الاعتدال التى مثلتها أفكار التجديد الدينى Jadidism والتى تعود إلى النصف الثانى من القرن الـ١٩ حين نشطت فى مواجهة التيار الدينى التقليدى Qadimism.

اعتمد أغلب المجددين من تتر قازان، الذين ارتبط نشاطهم الإصلاحى بمفهوم "الإسلام الروسى" أو " الإسلام الأوربى" ، على مفاهيم اختلفت عما كان سائدا فى القوقاز وآسيا الوسطى. وتمكن هؤلاء التتر – لاشتغالهم بالتجارة واستخدام القياصرة لهم فى الإدارة– من الوصول إلى أماكن بعيدة عن عاصمتهم قازان وتوصيل مفاهيم التعايش والتفاهم بدلا من الصدام والانفصال، قبل أن تصفى الشيوعية حركتهم. ويعد إسماعيل جسبرينسكى (١٨٥١م– ١٩١٤م) رائد هذا التيار الذى انتشر فى القرم وآسيا الوسطى وروسيا. وقد اعتمد على دور الصحافة فى تشكيل وعى مسلمى روسيا والتركستان حين أصدر صحيفة الترجمان "Turjman" [١].

ويعتبر تطوير التعليم أوضح مشاهد مشروع جسبرينسكى الذى هدف إلى النهضة بالشعوب الناطقة بالتركية فى آسيا الوسطى والقوقاز والقرم من خلال إنشاء سلسلة من المدارس الدينية التحديثية. وقد رأت الشيوعية فى مشروع جسبرينسكى محاولة لإذكاء الروح القومية والدينية بالتواطؤ مع النظام القيصرى، أو بعبارة أخرى كان مشروعه فى نظر الشيوعيين ابنًا شرعيًا

(١) لتفصيل مشروع الترجمان راجع:

Lazzaerini E. Ismail Bey Gasprinskii's perevochik: a clarion of modernism.in Paksoy (ed) Central Asian Monuments, Istanbul. Isis Press. 1992. p143-156.

«للبرجوازية الاستغلالية»، وهو ما دفن منهجه الإصلاحى منذ منتصف القرن العشرين ، ولم يعد إليه الاعتبار إلا فى نهاية عام ١٩٩١م . ويمكن القول إن هذه الحركة الفكرية ناظرت ما عرف فى العالم العربى باسم حركة الإصلاح الدينى التى انتشرت فى نهاية القرن الـ ١٩ ومطلع القرن الـ٢٠ وهى مشاريع تجديدية متصالحة مع الحداثة [١].

لكن الملاحظ أنه بعد تفكك الاتحاد السوفيتى لم يتحقق قدر من الاهتمام بهذا الوجه التجديدى بسبب انشغال حكومات دول المنطقة بالمواجهة مع الحركات الإسلامية ، وعدم وجود فرصة لدعم التيار التجديدى فى تلك الفترة الحرجة، التى يسهل أن يرمى خلالها القائمون بمثل هذه المشاريع بتهم العلمنة والموالاة للسلطات الحاكمة، كما أن حكومات المنطقة ركزت فى تعاملها مع قضايا الحركات الدينية على البعد الأمنى، اعتقادًا بأنه الأسرع خطى والأكبر أثرا.

ويعتمد مستقبل الحركة التجديدية على مقدار ما سيتحقق من استقرار فى دول المنطقة، سواء جاء هذا الاستقرار نتيجة تطور ديموقراطى يسمح بتمثيل كافة الأطياف الفكرية فى الدولة، أو جاء نتيجة إحكام السلطة المركزية قبضتها بالطريقة القيصرية أو السوفيتية، بحيث يتم تغذية هذا التيار ليجد لنفسه مكانًا وفرصة للعمل.

(1) Williams. B. Reinterpreting Ismail Gaspirali's Legacy. Crimean Ataturk, Russian Collaborator or Pan-Turkist Threat to the Russian Empire? Center of information and documentation of Crimean Tatars. 2002. www.cidct.org.ua/en/studii/2-3/13.html.

النزاعات العرقية

عاشت آسيا الوسطى والقوقاز على مدى قرون عديدة دون مفهوم الدولة القومية Nation-state التى عرفتها دول غرب أوربا. بينما كان النظام السائد هو الخانات والإمارات والتى لم تكن تؤلفها مجموعة عرقية أو لغوية واحدة. كما أن وجود الصفوة الحاكمة لم يكن مبنيًا على معيار إثنى. وقد تخطى الاستعمار الإدارى الروسى للمنطقة الخلفية الإثنية واتجه إلى الاعتماد فى التقسيم الإدارى للسكان المحليين على المتغير الدينى .

لكن فى المقابل جلب التنوع العرقى كارثة على الإقليم حين انهار الاتحاد السوفيتى. فقد وقع العديد من الاشتباكات والحروب على أسس عرقية فى أغلب الدول المستقلة، فكما شهدت روسيا حربين فى الشيشان عانى القوقاز ثلاث اشتباكات وحروبًا فى كل من كارباخ وأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا.

لم تنج آسيا الوسطى من الكارثة، فقد قتل فى طاجيكستان خلال السنوات الثلاث الأولى من تفكك الاتحاد السوفيتى عشرات الآلاف إضافة إلى اشتباكات دامية فى كل من قرغيزيا وأوزبكستان، وقد تركت النزاعات العرقية فى الفضاء الجغرافى المتفكك عن البناء السوفيتى نحو نصف مليون قتيل وجريح، فضلا عن تأثر نحو ١٠ ملايين إنسان طالتهم تبعات الحروب والاشتباكات بخسائرها المادية والنفسية.

الحرب الأهلية فى طاجيكستان

ليس هناك من حرب مهلكة نشبت بعد انهيار الشيوعية كالحرب الأهلية الطاجيكية، التى كانت كبرى الكوارث التى سببها تفكك

النظام السوفيتى، تبدأ قصة هذه الحرب فى نهاية عام ١٩٩١م مع الاستعداد للاستقلال عن الاتحاد السوفيتى، حينها اختار البرلمان الطاجيكى ،مدعومًا بتحالف موالٍ للشيوعية وجماعات المصلحة عرف باسم «الجبهة الشعبية الطاجيكية»، رحمان نابييف رئيسًا للبلاد، فى ذلك الوقت كانت طاجيكستان تغلى بنشاطات الراغبين فى الاستقلال عن الروابط الشيوعية من الديموقراطيين وأنصار حزب النهضة (١).

لم يفلح إجراء انتخابات رئاسية جديدة –فاز فيها أيضا نابييف– فى امتصاص التوتر وإخماد التمرد ضد الحكومة، فاشتعلت الشرارة الأولى للحرب الأهلية فى يونيو ١٩٩٢ بقتال بين القوات الحكومية والثوار الذين تقدمهم أنصار حزب النهضة، ووقعت مذابح عارمة بين الجانبين وبدأت عديد من المناطق تعمل على الانفصال عن جسد الدولة الطاجيكية الحديثة الاستقلال، واضطر نابييف، الذى كان قد لجأ إلى الجيش الروسى، إلى الاستقالة فى سبتمبر من نفس العام. وبعد سبعة أشهر من الحرب التى شهدت عمليات إبادة جماعية سقط نحو مائة ألف قتيل، وأضرمت النيران فى آلاف القرى، ولجأ أكثر من نصف مليون إلى الدول المجاورة خاصة فى أفغانستان وأوزبكستان (٢).

لم تكن الأسباب الأيديولوجية وحدها تقف خلف الحرب وتقسيم الأتباع إلى شيوعيين لجئوا إلى موسكو وإسلاميين فروا إلى أفغانستان، فالأبعاد الجهوية والمناطقية كان لها دور. فسكان المناطق الشمالية من طاجيكستان كانوا يوالون التحالف الموالى للشيوعيين بينما كان الجناح الدينى بقيادة حزب النهضة يستند على تحالفات قبلية وعشائرية فى الجنوب والشرق.

---

(1) Mullojonov. P. op cit. P 226-227.

(2) Mukomel. V. op cit. p 23-24.

كما لم تقف الحرب عند حدود العرق الطاجيكى، فقد دفع البرلمان الأوزبكى كتائب من جيشه إلى طاجيكستان تحت مظلة كومنولث الدولة المستقلة لمساعدة الحكومة الطاجيكية ضد المعارضة التى تريد الاستيلاء على السلطة، ونجح الجيش الأوزبكى فى إعادة الشيوعيين السابقين إلى المسار السياسى، وترجيح كفتهم ضد المعارضة التى يقودها حزب النهضة.

وفى ذات الوقت كانت القوات الروسية على الحدود الطاجيكية الأفغانية تشن هجمات جوية من وقت لآخر بعد أن استُهدفت من قبل الإسلاميين الذين رأوا فيها دعمًا للحكومة الشيوعية السابقة، أما القوى الغربية فكانت حائرة ، فإن هى دعمت المعارضة ضد الشيوعيين ستقدم هدية لحزب النهضة وتعيد سيناريو طالبان فى طاجيكستان، وإن هى ساعدت الحكومة الشيوعية ستقدم دعمًا جديدًا لروسيا التى لا يفضل أحد استعادة نفوذها من جديد[1].

تغيرت الصورة للطاجيك الذين عسكروا فى شمال أفغانستان بعد تقدم طالبان وإحكام سيطرتها تدريجيا على أفغانستان، وتمكنها من إخراج تحالف الشمال الطاجيكى واستيلائها على العاصمة كابول، هنا وقع حدثان مهمان: الأول انكشاف غطاء المجاهدين الطاجيك من أتباع حزب النهضة بعد تراجع مكانة تحالف الطاجيك فى أفغانستان، والثانى شعور موسكو بأن طالبان ستكمل إجهازها على أفغانستان لتبدأ بالتوغل فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق وستكون طاجيكستان موقعتها الأولى، ومن ثم فقد رعت

(1) Gapisani. C . The Handbook of Central Asia. A comperhensive survey of the new republics.London. I.B Tauris Publ. 2000. p169-171.

موسكو اتفاق سلام بين الحكومة الطاجيكية والمعارضة الإسلامية بهدف توحيد الصف أمام الخطر الطالبانى القادم، فعُقد اتفاق سلام بين كافة الأطراف فى يونيو ١٩٩٧[١].

ساهمت العوامل السابقة فى استقرار مبدئى للأمور، وإن لم يجر الأمر دون انتكاسة، قد نشب فى عام ١٩٩٩ قتال بين الجيش الحكومى وقوات حزب النهضة أعيدت فيه عمليات الاغتيال والخطف، ثم أجريت انتخابات فى فبراير ٢٠٠٠ حصل فيها حزب النهضة على ٧,٥ ٪ بعد أن تعرض لانقسامات بين صفوفه [٢].

وما تزال بقايا الحرب الأهلية عالقة فى المسار السياسى لطاجيكستان، ففى يناير ٢٠٠٤ حكم على زعيم حزب النهضة خلال الحرب الأهلية شمس الدين شمس الدينوف بالسجن ١٦ سنة بتهم قيادة جماعات إجرامية [٣]. ثم مع وقوع تفجيرات مفخخة فى فبراير ٢٠٠٥ فى العاصمة دوشانبيه عادت أصابع الاتهام مرة أخرى إلى الفلول المتخلفة عن الحزب وبقايا الحرب الأهلية[٤]. وهو ما يجعل الفترة الانتقالية ما زالت طويلة قبل بلوغ طاجيكستان الاستقرار.

---

(1) Gapisani. C ob cit. p173.

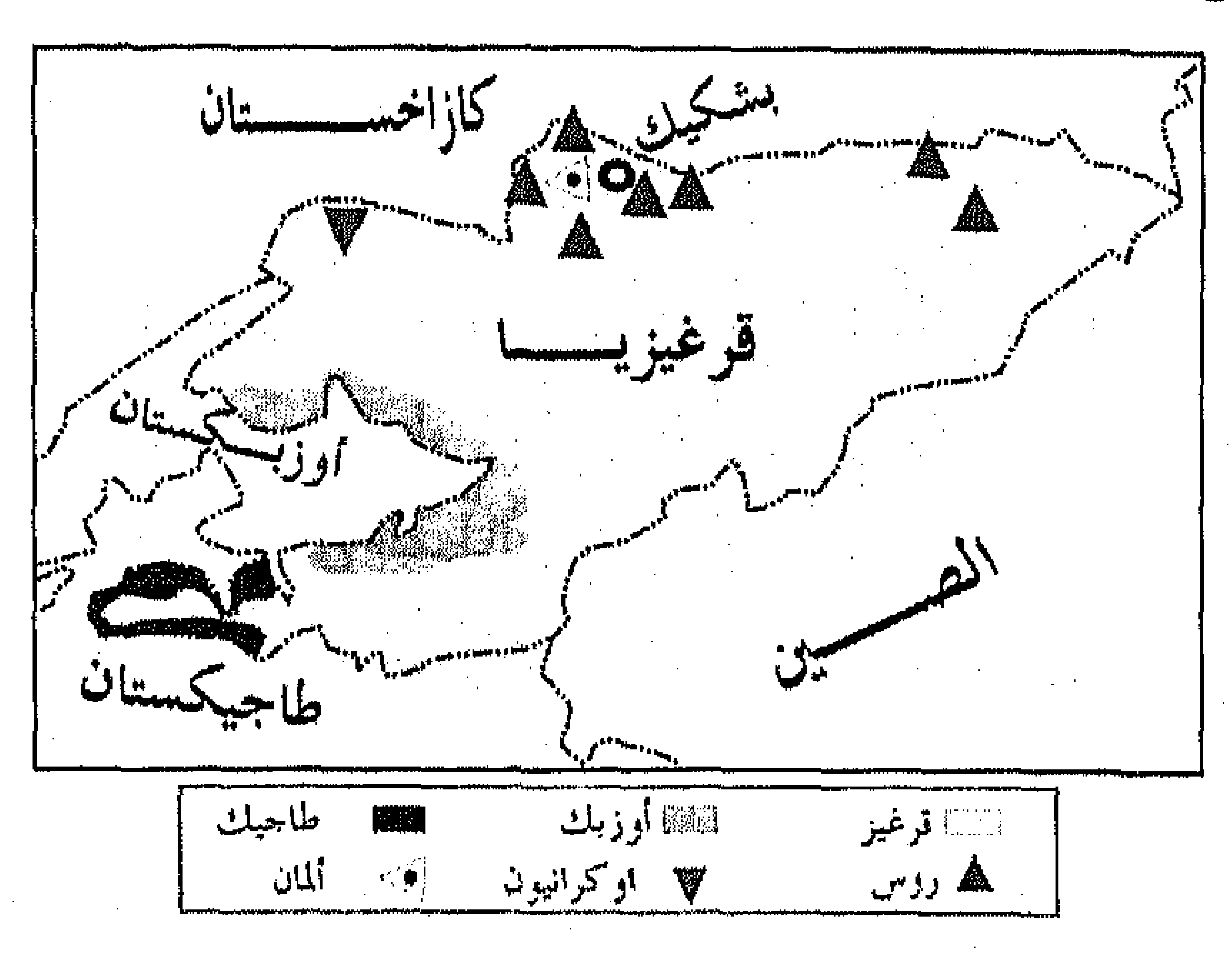
(٢) صحيفة برافدا الروسية بتاريخ ١٣/٧/٢٠٠٢.

(3) Radio Free Europe. Tajikistan: Islamic Renaissance Party Leader Sentenced To 16 Years In Prison. (internet data) .

(4) The Jamestown Foundation. Terrorist strikes on Tajikistan. Volume 2, Issue 3 (February 03, 2005).

التوتر العرقى فى قرغيزيا وأوزبكستان

كانت الخريطة العرقية لقرغيزيا (شكل ١٥) مؤهلة للاشتباكات الدامية قبيل سقوط الاتحاد السوفيتى، ففى عام ١٩٩٠ اشتبكت الأقلية الأوزبكية مع القرغيز لأسباب اقتصادية جاء أغلبها نتيجة احتكار الأقلية الأوزبكية لمواقع حساسة فى الاقتصاد القرغيزى خاصة فى التجارة والنقل والصناعات اليدوية.



شكل (١٥) الخريطة العرقية لقرغيزيا

يشكل الأوزبك فى قرغيزيا ١٤٪ من سكان الدولة، وفى المقاطعات الجنوبية شكلوا الأقلية الأكثر بروزا حيث بلغت نسبتهم ٢٥٪ من إجمالى سكان إقليم أوش، و٤٠٪ من إجمالى سكان جلال آباد، ورغم هذه النسب الكبيرة ينتاب الأوزبك شعور متزايد بالتوتر والقلق لأسباب أهمها توجه الحكومة منذ الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١ إلى تقليص نسبة الأوزبك فى الوظائف الإدارية فى الدولة حتى فى الأقاليم التى يشكلون فيها أقلية معتبرة، فضلا عن إهمال الحكومة لمطالبهم المنادية بالاعتناء

بالحقوق الثقافية وخاصة ما يتعلق باللغة الأوزبكية، فى ظل تكرار الشكوى من أن بشكيك تعتنى باللغة الروسية بينما تهمل اللغة الأوزبكية رغم تفوق أعداد الأوزبك على الروس فى البلاد، ومع تدفق الشباب القرغيزى من الريف المحدود فى فرص عمله إلى المدن والحضر الذى تنتعش فيها تجارة الأوزبك وقعت صدامات عام ١٩٩٠[1].

وتتفاوت مواقف الأقلية الأوزبكية تجاه هذه الأوضاع بين التعايش والعنف، وأخطر شعارات الأجنحة المتشددة فى الأقلية الأوزبكية تلك التى تطالب بحكم فدرالى، أو الانفصال بالمقاطعات الجنوبية عن قرغيزيا، أو الانضمام إلى أوزبكستان الأم المجاورة. هذا على الرغم من أن المطالب الأوزبكية فى أراضٍ قرغيزية يسكنها الأوزبك كان قد تم تجنب إثارتها منذ اعتلاء الرئيس إسلام كريموف للسلطة فى أوزبكستان مطلع التسعينيات.

يأتى الروس فى المرتبة الثانية فى مشكلات قرغيزيا العرقية بنسبة ١٣٪ من إجمالى السكان، وقد ظلت الأقلية الروسية قبل استقلال قرغيزيا تعيش وضعًا مثاليًا حين تمتعت بأفضل الوظائف الإدارية والتعليمية وتمركزوا فى أفضل المناطق الحضرية فى العاصمة بيشكيك ومدن الشمال. لكن مع الاستقلال تعرَّضت الأقلية الروسية لضغوط متزايدة خاصة مع تبنى الدولة قانون اللغة القومية، والذى فرض التحول إلى استخدام اللغة القرغيزية فى الإدارة والتعليم بدلا عن الروسية.

---

(1) Anderson, J. . op cit. p42-43.

وبينما اتخذ غالبية الروس مواقف معتدلة، وسعوا نحو التهدئة بزعامة حركتي «المؤسسة السلافية» و«اتفاق» اللتين نادتا بالجنسية المزدوجة واعتماد اللغة الروسية كلغة رسمية ثانية للبلاد، إلا أنه في المقابل بزغت حركات روسية متطرفة خاضت صراعًا متواصلاً من أجل اعتراف السلطة بها، ورفع بعضها شعارات راديكالية نادت باستعادة حدود روسيا العظمى وإخضاع قرغيزيا لحكم موسكو[1].

وبات الروس يلعبون منذ عام ١٩٩٥ دور اللوبي الانتخابي، فأعلنوا أكثر من مرة أنهم سيعطون أصواتهم للمرشح الرئاسي الذى سيحقق مصالحهم، وقدمت الحكومة القرغيزية لهم ضمانات كبيرة مراعاة لدور موسكو العسكرى والسياسى.

وإضافة إلى الأقليتين الأوزبكية والروسية ثمة نسب أقل للأقليات من الدول المجاورة خاصة الطاجيك والأيغور. ولعل الأقلية الأيغورية من سكان إقليم التركستان الشرقية على درجة كبيرة من الأهمية للصين التى تعقد اتفاقيات مع بيشكيك بشأن الأمن الجماعى فى المنطقة، وتنسيق مكافحة الحركات المتطرفة.

ورغم اجتياز قرغيزيا مخاضًا صعبًا للتعايش بين الأقليات منذ منتصف التسعينيات، فإن بذور التوتر ظلت قائمة وكادت تنقلب إلى حرب أهلية حين اجتاحت قرغيزيا فى مارس ٢٠٠٥م ثورة شعبية أدت إلى قلب نظام الحكم ، وفر الرئيس عسكر عكاييف لاجئا إلى موسكو. غير أن قرغيزيا نجحت ثانية فى اجتياز الأزمة واستولت المعارضة على الحكم ووقع نوع من الاتفاق مع كل من موسكو

(1) Anderson. J . ibid. p47.

وواشنطن اللتين تمتلكان قاعدتين عسكريتين فى الأراضى القرغيزية.

أما أوزبكستان فتعتبر أهم دول آسيا الوسطى، لوزنها الديموغرافى وحدودها المشتركة مع الدول الأربع الباقية، وعتادها العسكرى، والامتداد العرقى الممتد خارج الحدود. إذ يشكل الأوزبك أهم الأقليات العرقية فى دول الجوار. وتتراوح نسبتهم بين ٢٤٪ من سكان طاجيكستان، و١٤٪ من سكان قرغيزستان، و١٠٪ من سكان كل من تركمانستان وأفغانستان.

لكن الأعداد المطلقة فى أفغانستان تعبر عن حجمهم الحقيقى، حيث يزيدون على ٢ مليون نسمة، وقد وصلوا أفغانستان مع السنوات الأولى للصدام مع السوفيت، وخاصة فيما بين عامى ١٩٢٦و١٩٣٦. ويشكلون أغلبية سكان مدن كبرى مثل دوشى ومزار الشريف. وحظيت الأقلية الأوزبكية بمكانة معتبرة مع وصول أحد أبنائها - محمد خان جلالار- إلى منصب وزير المالية والتجارة فى أفغانستان، الذى شغله من عام ١٩٧١م وحتى سقوط حكومة نجيب الله فى ١٩٩٢.

كان الأفغان الأوزبك قد تلقوا بعد انسحاب السوفيت من أفغانستان فى ١٩٨٩ الدعم من قبل الحكومة الأفغانية الموالية لموسكو، وصاروا جزءا من قواتها المسلحة، وهو ما تبلور فى إقامة جيش صغير بقيادة الأفغانى الأوزبكى رشيد دستم فى شمال البلاد، متلقيا الدعم فى ذات الوقت من أوزبكستان، بهدف دعم «الإخوة الأوزبك فى الجنوب»، وذلك سعيًا لتحقيق حلم إقامة «أوزبكستان الكبرى» من طشقند إلى مزار الشريف[1].

(1) Gapisani. C. op cit. p 97.

لكن الغزو الأمريكى لأفغانستان بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ، ونجاح واشنطن فى إقامة قاعدة عسكرية على الأراضى الأوزبكية قد قلص إلى حد كبير من الدور الإقليمى لأوزبكستان وحبسه داخل حدود الدولة الوطنية. وهنا بدأت المشكلات الداخلية فى الصعود، وأهمها الصدام بين الحركات الإسلامية والحكومة.

مضت السنوات من عام ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٥ فى مسلسل متوال من التفجيرات التى أشارت أصابع الحكومة فيها إلى الحركة الإسلامية الأوزبكية وحزب التحرير الإسلامى. حتى كانت أحداث أنديجان فى مايو ٢٠٠٥ - والتى اشتبك فيها المتظاهرون مع القوات الحكومية وسقط نحو ٥٠٠ قتيل وألف جريح - نقطة تحول فى العلاقة بين أوزبكستان وروسيا والولايات المتحدة، فالنقد الذى وجهته واشنطن للحكومة الأوزبكية بسبب انتهاكات حقوق الإنسان دفع بالحكومة الأوزبكية إلى الاقتراب أكثر من موسكو والانسحاب من اتحاد غوام المدعوم أمريكيًا، بل مطالبة الولايات المتحدة بتفكيك قاعدتها العسكرية من الأراضى الأوزبكية.

كانت أحداث أنديجان فى وادى فرغانة حلقة فى سلسلة التوتر الذى عاشته آسيا الوسطى بعد أحداث الثورة الصفراء فى قرغيزيا فى مارس ٢٠٠٥ حين حاول الثوار فى أوزبكستان بعد شهرين من الثورة القرغيزية تكرار نموذج الثورات الملونة فى شرق أوزبكستان، لكن السلطات الحكومية كانت لها بالمرصاد.

النزاع على كاراباخ

لم تتخل جورجيا التى احتلتها روسيا منذ عام ١٨٠١ عن روح الاستقلال عبر قرنين من الزمان ، وتمكنت بعد مسلسل متوالى الحلقات

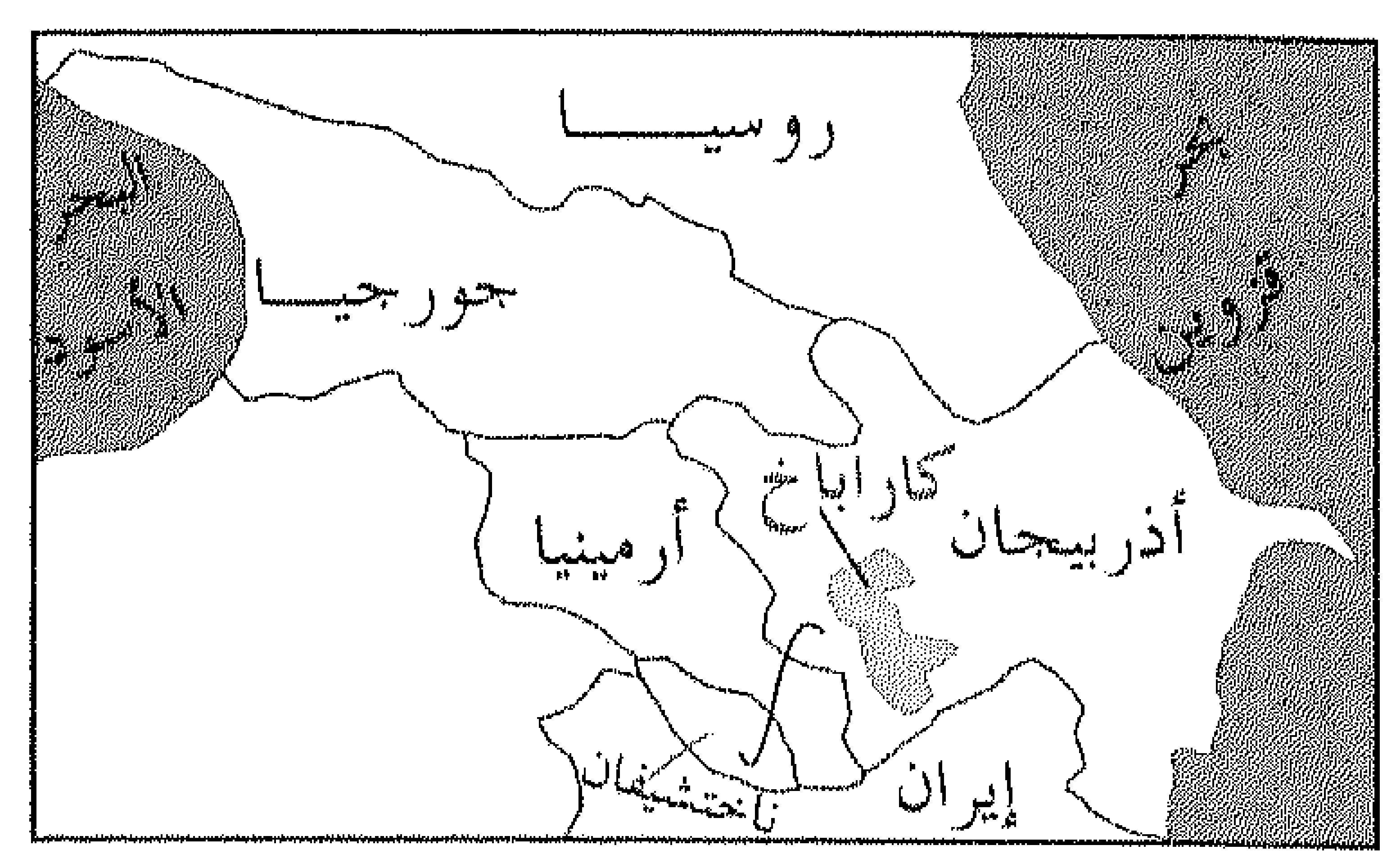
من الأحداث الدرامية أن تكون ثانية جمهورية (بعد لاتفيا) تعلن خروجها عن الطوق السوفيتي، حين أعلنت استقلالها قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتى رسميًا بنحو ثمانية شهور وذلك فى ٩ إبريل ١٩٩١.

كما كانت الهوية القومية الساعية للاستقلال فى أرمينيا نشطة منذ مطلع القرن العشرين على الأقل وقد زاد من درجة سخونتها الصراع الذى خاضه الأرمن حين كانوا خاضعين للتبعية العثمانية وما آل إليه مصيرهم بعد صدامات عام ١٩١٥، التى يسميها الأرمن بمذابح المليون ونصف المليون قتيل، وتنكرها تركيا، وحتى بعد انتقال تبعية أرمينيا لروسيا – طبقا لاتفاقية لوزان فى ١٩٢٣– إلا أن الرغبة فى التحرر لم تتوقف حتى نالته مع تفكك الاتحاد السوفيتى، وسرعان ما أعرب المد القومى عن نفسه فى النزاع على إقليم كاراباخ الذى انتزعته من أذربيجان[1].

لم ينقطع النزاع بين الأرمن والأذر حول مرتفعات كاراباخ منذ العهد القيصرى، وزاد تعقيد المشكلة تعمد السلطة السوفيتية فى عام ١٩٢٣ ضم الأقلية الأرمينية التى تسكن كاراباخ داخل حدود أذربيجان، وفى المقابل أبقت على الأقلية الأذربيجانية فى إقليم «ناختشيفان» معزولة داخل جمهورية أرمينيا، بل إن السلطة السوفيتية منحت «كاراباخ» صلاحية الحكم الذاتى داخل جمهورية أذربيجان، وهو ما كان أشبه بقنبلة موقوتة، ميعاد انفجارها تفكك الاتحاد السوفيتى[2] (شكل١٦).

(١) جادجييف (٢٠٠١) ص ١٢٢.

(2) Zverev. A. Ethnic Conflicts in the Caucasus 1988-1994. In Coppieters. B (ed.) Contested Borders in the Caucasus. Brussels, Belgium. 1996. p 25.



شكل (١٦)موقع كاراباخ فى القوقاز الجنوبى

وحين تراخت القبضة السوفيتية فى عهد جورباتشوف، وسعى قادة كاراباخ فى فبراير ١٩٨٨ إلى ضم الإقليم إلى أرمينيا، اشتبك الأذر مع الأرمن فى «كاراباخ» ، ليتحول الاشتباك الى حرب كاملة، تركت عشرات الآلاف من القتلى والجرحى واللاجئين على كلا الجانبين، وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى أعلن الانفصاليون فى مطلع ١٩٩٢ الاستقلال عن أذربيجان. وأمدَّت أرمينيا مقاتلى «كاراباخ» بالسلاح والرجال، بل توغلت قواتها داخل أذربيجان، واحتلت ٢٠٪ من إجمالى أراضيها فى منتصف ١٩٩٣[١].

وفى مايو ١٩٩٤ قبلت جميع الأطراف اتفاقًا لوقف إطلاق النار، والاحتكام إلى المفاوضات السلمية حقنًا للدماء[٢]، وكان الوسيط الرئيسى فى المفاوضات منظمة الأمن والتعاون فى أوربا وهى إحدى المنظمات المنبثقة عن الاتحاد الأوربى وتعمل على حل النزاعات ومراقبة وقف إطلاق النار فى المناطق التى دارت فيها

(1) Cornell. S. op cit. (internet data).

(٢) ميلكوميان. ن. ناجورنو كاراباخ : البحث عن سلام عادل ومتوازن ، دورية آسيا الوسطى والقوقاز ،العدد الرابع لسنة ١٩٩٩. (باللغة الروسية، النسخة الإلكترونية).

الحروب وتنظيم اللقاءات والاجتماعات للأطراف المتنازعة بهدف إيجاد وساطة وتسوية للحل.

وقد لعبت هذه المنظمة دورًا إيجابيًا فى متابعة مشكلة ناجورنو كاراباخ وذلك بعد أن فشلت قرارات مجلس الأمن المطالبة بانسحاب القوات الأرمينية من أراضى أذربيجان. وشكلت منظمة الأمن والتعاون الأوربى منذ عام ١٩٩٢ لجنة متابعة أسمتها «مؤتمر منسك» نسبة إلى العاصمة البيلاروسية. وضمت هذه اللجنة ١١ دولة محيطة بالمشكلة وبرئاسة فرنسا والولايات المتحدة وروسيا(١).

لكن مشكلة كاراباخ تتدخل فيها أذرع خارجية تعطل الوصول إلى حلٍّ نهائىٍّ، فتركيا لا تخفى دعمها أذربيجان بحكم الروابط العرقية والدينية واللغوية فى حصار أرمينيا، ويزيد من حساسية الدور التركى العداء بين الأرمن والأتراك بسبب اتهام الأرمن تركيا بارتكاب المذابح بحقهم خلال الحرب العالمية الأولى حين ثاروا على الدولة العثمانية(٢).

أما روسيا فتقف فى صف أرمينيا رغم أنها أحد الوسطاء الدوليين لحل الأزمة، لدرجة تساءل معها البعض عن مدى حقيقة

(1) Barseghyan. K & Karaev. Z. Playing Cat-and-Mouse: Conflict and Third-Party Mediation in Post-Soviet Space. OJPCR: The Online Journal of Peace and Conflict Resolution 6.1 Fall.2004. P 202.

(2) Smolansky. O. Russia and the Transcaucaia: The case of Nagorno-Karabakh. In Rubinstein.A and Smolansky.O (eds) Regional power rivalries in the New Eurasia : Russia, Turkey, and Iran. 1995. P 208.

الدور «المحايد» لروسيا فى الصراع الكاراباخى[1]. ويقوم التحالف الروسى الأرمنى على تطوير روسيا لأعمدة الاقتصاد الأرمينى، وعلى رأسها إنشاء محطات الطاقة، وتعاون عسكرى أقامت روسيا بموجبه قاعدة عسكرية فى العاصمة الأرمينية يريفان [2].

وبالنسبة لإيران فقد دعمت أرمينيا فى أزمة كاراباخ لأسباب اقتصادية، أولها أن أرمينيا تحتاج إلى النفط الإيرانى، بينما أذربيجان تبيع النفط كإيران. وثانيها أن أذربيجان، فى بداية استقلالها، تحالفت مع تركيا لترويج مشروع الجامعة الطورانية الذى كان يعنى نجاحه إزاحة إيران كلية عن المنطقة. هذا فى الوقت الذى تمثل فيه إيران شريان الحياة لأرمينيا فى ظل حصار الأخيرة من الشرق بأذربيجان ومن الغرب بتركيا [3].

وبغض النظر عن الإعلان الرسمى لإيران بدعمها القضايا الإسلامية فى العالم بأسره، فإن إيران تقف إلى جانب أرمينيا المسيحية على حساب أذربيجان المسلمة الشيعية. ومن جانب تعلن إيران عن دعمها للحق الإسلامى فى النزاع الكاراباخى، بينما من جانب آخر توسع من علاقاتها الوطيدة مع أرمينيا وتعطى للأرمن فى إيران مزايا كبرى مقارنة بالأذر[4].

(١) جاسبريان. أ. دينامية النزاع الكاراباخى ودور الاتحاد الروسى فى حله. دورية آسيا الوسطى والقوقاز، العدد الخامس لسنة ١٩٩٩. (باللغة الروسية، النسخة الإليكترونية).

(٢) خراميتشيفين.أ. باكو وتبليسى يهددان روسيا بحرب قوقازية جديدة، نيزافيسميا جازيتا (باللغة الروسية) ، بتاريخ ١٢ مايو ٢٠٠٣

(٣) بطرسيان. حوار الحضارات بين روسيا وأرمينيا وإيران. دورية آسيا الوسطى والقوقاز، العدد الخامس لسنة ١٩٩٩. (باللغة الروسية، النسخة الإليكترونية).

(4) Winrow. G. Azerbaijan and Iran. In Rubinstein.A and Smolansky.O (eds) op cit. P 68.

يتداخل هنا دور الأقلية الأذرية فى إيران والتى يفوق عددهم ٨ ملايين نسمة، وبصفة خاصة فى شمال إيران حيث يزيد عددهم على عدد سكان أذربيجان ذاتها (٦,٥ ملايين نسمة) ويطالبون بحقوق يصل بعضها إلى الحكم الذاتى، أو الانضمام للوطن الأم، وتتكرر من فترة لأخرى حوادث صدامهم مع السلطات الحكومية [١].

أما الدور الأوربى فيهتم بحل المشكلة الكاراباخية، أو على الأقل استمرار تجمدها، لضمان الأمن والاستقرار على هوامش أوربا من ناحية، وضمان وصول النفط من قزوين إلى السوق الدولية وبصفة خاصة بعد مد خط الأنابيب باكو –تبليسى –جيهان من ناحية ثانية[٢].

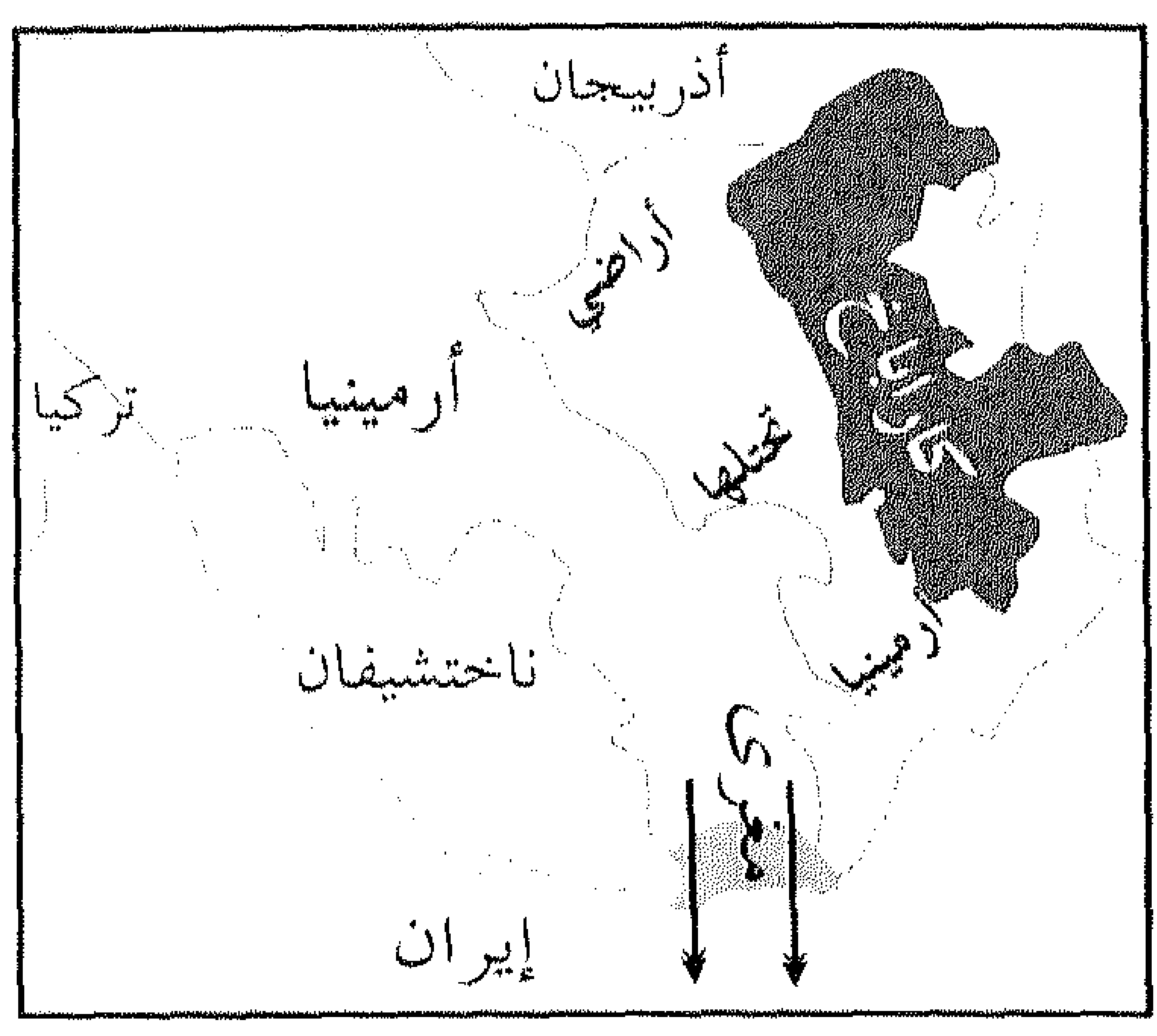
وفى ظل عدم الوصول لحل لتلك الأزمة، لا يتبقى سوى حل من حلول الوسط (شكل ١٧) يتم بموجبه تبادل الأراضى بين أذربيجان وأرمينيا من خلال اعتراف أذربيجان باستقلال «كاراباخ» كدولة، وأن يصبح ممر «لاتشين» الرابط بين «كاراباخ» وأرمينيا –الذى تحتله أرمينيا حاليا– أرضًا أرمينية خالصة. وفى مقابل خسارة «كاراباخ» وممر «لاتشين» يتم تعويض أذربيجان بمنطقة «مِغْرى» العازلة بينها وبين ناختشيفان[٣]. ومع رفض أذربيجان وأرمينيا

(١) أحدث هذه الحالات الاشتباكات التي وقعت بسبب رسم كاريكاتير صحافى سخر من الأذر وعرقهم التركى (نقلا عن نيويورك تايمز بتاريخ ١ يونيو ٢٠٠٦).

(2) U.S. Institute of Peace. Nagorno-Karabakh Searching for a Solution: www.usip.org/pubs/peaceworks/pwks25/chap3_25.html.

(٣) شيرينيان. ل. استقرار الوضع فى كاراباخ : نحو خيار المبادلة الأرضية. دورية آسيا الوسطى والقوقاز، العدد الثانى لسنة ٢٠٠٣. (باللغة الروسية، النسخة الإليكترونية).

لهذا النوع من حلول الوسط عُرف هذا الاقتراح بالمبادلة المستحيلة[1] ليبقى الوضع فى كاراباخ مجمدًا دون بوادر تحريكه.



شكل (١٧) المبادلة المقترحة بين أذربيجان وأرمينيا

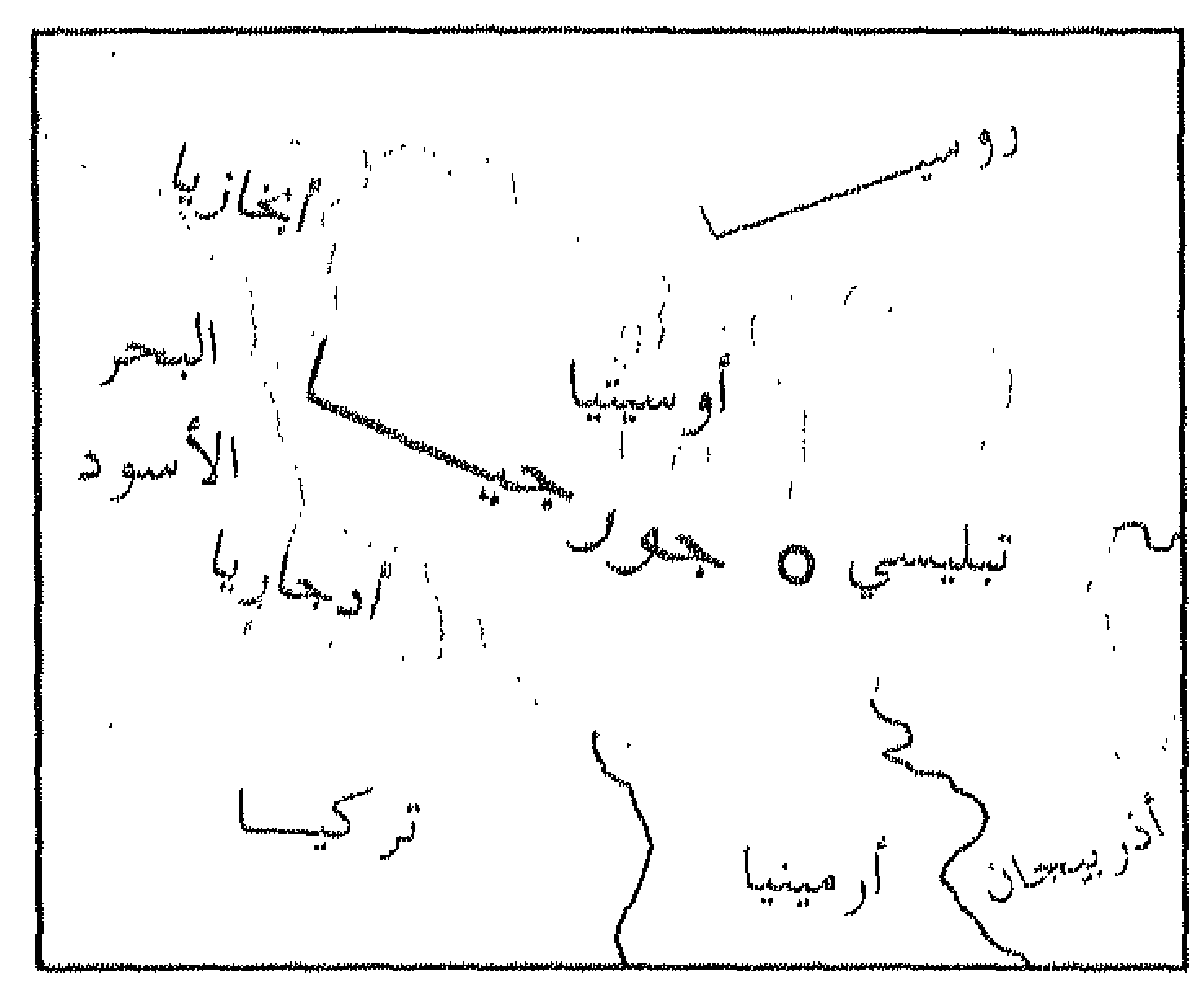
تفتت جورجيا

تعانى جورجيا من ثلاث نزعات انفصالية فى كل من أبخازيا، وأوسيتيا الجنوبية، وأدجاريا (شكل ١٨) . وتشكل الأقاليم الثلاثة ٢٣٪ من مساحة الدولة، ويعيش بها ما يزيد على ٢٠٪ من إجمالى سكان جورجيا (١٠٠ ألف نسمة فى أوسيتيا الجنوبية، وأكثر من نصف مليون نسمة فى أبخازيا، ونحو ٤٠٠ ألف فى أدجاريا).

فمع استقلال جورجيا وتولى زياد جامسخورديا الحكم بتوجهاته اليمينية، شُنت حملة شرسة على مطالب الأقليات، وتدهورت العلاقة بينهم وبين الحكومة الجورجية، فطالب الأبخاز والأوسيت بحقوق

(1) Gueyras. J. Southern Caucasus: corridor of power . le monde diplomatique May 2001 (English edition).

لغوية قوبلت بالتجاهل[1]. وحين أعلنت منطقة أبخازيا استقلالها عن جورجيا فى أغسطس ١٩٩٢ اجتاح الجيش الجورجى هذه المنطقة التى كانت تتلقى مساعدة القوقازيين الشماليين [2].



شكل (١٨) المناطق الساعية للانفصال فى جورجيا

وبعد اشتباكات دامية أوقعت ١٠ آلاف قتيل على الأراضى الأبخازية من الأبخاز والجورجيين تم التوصل لوقف إطلاق النار فى يوليو ١٩٩٣ بوساطة روسية، على أن تنسحب القوات الجورجية من أبخازيا ويتم نزع أسلحة الطرفين. وحين نفذ الاتفاق كان الوضع أشبه بإقرار رسمى بهزيمة جورجيا ونجاح أبخازيا فى الاستقلال وإن لم تعترف أية دولة بها [3].

---

(1) Cornell. S. Small Nations and Great Powers. Richmond. Curzon. 1999. P 154

(2) Damoisel. M and Genté. R. Abkhazia: stable but fragile. Le monde diplomatique,2004 English edition.

(3) Freese. T. Abkhazia: At war with itself. Eurasia insight. Eaurasianet.org 2004.

وتسير الأمور فى أبخازيا لصالح تكريس وضع الانفصال المجمد، والتفاهم من موسكو، أو فى أقصى تقدير الانضمام إلى الدولة الروسية، ويدعم من ذلك أن نحو ٨٠٪ من السكان مُنِحوا جوازات سفر روسية. وهو ما أدى إلى تدهور العلاقة بين جورجيا وروسيا[١] ويبقى الوضع مجمدًا على غرار نظيره فى كاراباخ.

وبالنسبة للأوسيت فقد بدأت أزمتهم فى نهاية فترة البيرسترويكا حين طالبوا بالانفصال والاتحاد مع أوسيتيا الشمالية التابعة لروسيا، فاشتعلت الحرب الأهلية وتمت مجازر جماعية خلفت أكثر من ٧٠٠ قتيل وآلاف الجرحى، قبل إيقاف إطلاق النار فى يونيو ١٩٩٢ [٢]. ويبقى الوضع بعد مرور ١٥ سنة مجمدًا، بعد أن أعلنت أوسيتيا استقلالها عن جورجيا من جانب واحد، وينتظر الأمر إجراء استفتاء على غرار اقتراح حل المشكلة الأبخازية.

وبالإضافة إلى المشكلتين السابقتين تعانى الأقلية الأدجارية فى جنوب غرب جورجيا من توتر بسبب مطالبتهم بالاستقلال عن جورجيا تحت اعتبارات عرقية ودينية، ويلقون بالمثل دعمًا من الجانب الروسى الذى يحتفظ بقاعدة عسكرية فى الإقليم[٣].

وتعتبر القواعد الروسية فى جورجيا على جانب كبير من الأهمية فى التنافس العسكرى بين موسكو وواشنطن. حيث تتركز القوات

---

(١) وكالة أنباء ريا فوستى ، بتاريخ ١٢ يناير ٢٠٠٤.

(2) Kasaev. A. U.S. and Russian Policy making With Respect to the Use of Force. RAND Corporation conference proceedings series.1995. http://www.rand.org/pubs/conf_proceedings/CF129/CF-129.chapter1.html.

(3) Cornell. S. (1999) op cit.p 175.

الروسية فى قاعدة أخالاكالاكى الواقعة فى أهم مدن الأقلية الأرمينية، وفى قاعدة باتومى فى أهم مدن الأقلية الأدجارية، كما كانت قاعدة جوداتى كذلك فى أبخازيا قبل الإخلاء مركزًا عسكريًّا مهمًّا لروسيا على البحر الأسود[1].

وإضافة إلى القواعد الروسية السابقة، تشترك القوات الروسية ضمن القوات الأجنبية فى جورجيا تحت مسمى قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ومنظمة الأمن والتعاون الأوربى وكومنولث الدول المستقلة. وتعمل هذه القوات للفصل بين الأطراف التى تحاربت خلال عقد التسعينيات وحماية اللاجئين فى أوسيتيا الجنوبية ولمراقبة وقف إطلاق النار فى أبخازيا[2].

هكذا كانت صورة الاشتباكات المتداخلة فى أوراسيا الجنوبية. ولعل تعقد هذه القضايا جعل أكثر الإنتاج البحثى الذى قدم عن الفضاء الجغرافى الذى خلفته السوفيتية قد وجه نحو تلك المنطقة التى تتداخل فيها عناصر صراع مختلفة الألوان، لكن انشغال العالم بتلك المنطقة لم يستنفد كافة طاقته، فقد كانت هناك منطقة أخرى تستأهل المتابعة وتستحق فهم ما يدور فيها، ألا وهى منطقة أوربا الشرقية، وهو موضوعنا فى الفصل القادم.

---

(1) Croissant. M. Georgia: Bridge or Barrier for Caspian oil. in Croissant. M & Aras.B (eds) Oil and Geoplitics in the Caspian Sea Region. Prager. London. 1999 p 279.

(2) Karagiannis. E. Energy and Security in the Caucasus.. Routledge Curzon. London. 2002. p 74-80.

الفصل الرابع
مخاض ما بعد الاستقلال
فى أوربـــــا الشرقيـــة

«إن عضويتنا فى حلف الناتو ستجعلنا نأوى إلى فراشنا آمنين، لن تنتابنا بعد اليوم هواجس قدوم زائر الفجر يطرق الباب بعنف ليرمى بنا فى قطار مرعب متجه إلى المنفى فى سيبيريا».

رئيسة وزراء لاتفيا (٢٠٠٢)

نشأت روسيا «كييف» على نهر الدنيبر فى وقت كانت أوربا الشرقية خالية من القوى الإقليمية والوحدات السياسية إلا من هنغاريا فى الغرب وبيزنطة فى الجنوب، وبعيدًا فى وسط الغرب الأوربى كانت ألمانيا وفرنسا . وقد استمر حضور الروس فى شرق أوربا من نهاية القرن العاشر حتى نهاية القرن الخامس عشر، إلى أن بدأت قوى إقليمية صغرى فى الظهور مثل ليتوانيا وبولندا، لكن روسيا عادت منذ القرن ١٨ إلى شرق أوربا من جديد، ولم تغادرها إلا فى عام ١٩٩١مع التفكك السوفيتى.

وفى خلال ذلك التاريخ تحول إقليم شرق أوربا إلى منطقة تكسر فى حروب روسيا مع الجيران. ويتألف نطاق التكسر من ست دول هى: إستونيا ولاتفيا وليتوانيا (المعروفة بدول بحر البلطيق) إضافة إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا ومولدوفا، ولكل دولة فى شرق أوربا تطور متميز فى مرحلة التحولات التى أعقبت انفراط العقد السوفيتى.

أوكرانيا وأزمة الهوية

بين نهرى الدون والدانوب امتدت حضارة أوكرانيا منذ ألفى عام قبل الميلاد حين استقرت فيها قبائل بلا تنظيم سياسى ملحوظ حتى القرن السادس الميلادى، وفى القرن السابع ظهرت إلى جوار الشعوب التى سكنت أوكرانيا قبائل الفرنجية الروسية التى شكلت فيما بعد «روسيا كييف» بعد إسقاط «كييف» عاصمة الأوكرانيين.

ومنذ ذلك الحين ارتبط تاريخ الأوكرانيين بتاريخ الإمبراطورية الروسية، ولم يتمكن الأوكرانيون من بلورة هويةٍ سياسية مستقلة عن الروس إلا مع القرن ١٦ الميلادى، حتى إن مسمى أوكرانيا قد استمد جذوره من الكلمة السلافية، والتى تعنى «أرض الحدود» أى

حدود بلاد الروس. وامتزجت الهوية الأوكرانية مع الهوية الروسية والكنيسة الأرثوذكسية(١).

استمرت الهوية الأوكرانية فى هذا الاشتباك ودون صياغة مستقلة حتى بعد أن سقطت الشيوعية وتفككت السوفيتية، وبدا الأمر مرتبكًا لدى قطاعات واسعة من السكان، فالبعض اعتقد أنه لكى تكون أوكرانيًّا فعليك أن تسكن أوكرانيا، والبعض الآخر يرى أن إتقان اللغة الأوكرانية شرط لكى تكون أوكرانيًّا. وفى المقابل هناك من يرى أوكرانيًّا ذات وجهين: أحدهما شرقى روسى سلافى، والآخر أوربى غربى ليبرالى.

وقد تأثرت السياسة الخارجية لأوكرانيا بهذا التضارب فى الهوية منذ الاستقلال، فالسلطة الأوكرانية تأرجحت خياراتها بين كسب الغرب دون خسارة روسيا، فيما يمكن تسميته بالمنهج البناء أو التوجه العقلانى ، والاقتراب من روسيا دون تضييع فرصة الاندماج مع الغرب(٢). واستمر التأرجح دون حسم بين التوجه الرومانسى الساعى لنقل أوكرانيا بالكامل إلى المناخ الأوربى، والتوجه البراغماتى الذى يتفهم تأثير روسيا الذى لا يمكن الفكاك منه، ومدرك أن أوكرانيا نموذج أوراسى لا يمكنه التخلص من روحه الشرقية أو أنفاسه الغربية(٣).

(1) Stebelsk y. National identity of Ukraine. In Hooson.D (ed) op cit. p 237.

(2) Miller. E. The changing face of Eurasia: Russian and Ukrainian foreign policy in transition. Comparative Strategy. 22. 2003. p 381.

(3) Miller. E. ibid. p383.

فبينما كان الرئيس الأوكرانى ليونيد كرافتشوك (١٩٩١-١٩٩٤) موجهًا للحركة القومية الرومانسية فى أوكرانيا كان الرئيس ليونيد كوتشوما (١٩٩٤-٢٠٠٤) من أنصار التوجه القومى البراغماتى. وقد بدا الرئيس الأوكرانى فيكتور يوشينكو الذى حكم البلاد مع مطلع عام ٢٠٠٥ فى السنتين الأوليين من حكمه قوميًا رومانسيًا إلى أن أدت العثرات الاقتصادية إلى تعديل توجهه، فاقترب من القومية البراغماتية وبصفة خاصة تجاه روسيا التى تتحكم فى أمن الطاقة فى بلاده.

وفى مجمل الأمر تبدو مشكلة الهوية المتداخلة بين روسيا وأوكرانيا فى مجملها مشكلة اعتراف روسى باستقلالية الهوية الأوكرانية، فحسب عديد من الشواهد والدلائل تتعامل روسيا مع أوكرانيا باعتبارها جزءًا من التاريخ والهوية الروسية، بحيث يصعب الفصل بين ما هو روسى وما هو أوكرانى، فأوكرانيا بالنسبة لروسيا كانت محطة أرضية فى تطور الإمبراطورية الروسية. وإن كانت هذه مشكلة لا تواجه أوكرانيا فقط وإنما تواجه عديدًا من الدول التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى [١].

وبالنسبة للأوكرانيين، فإن الفرق بينهم وبين روسيا كبير ، فهم أكثر قربًا للغرب الأوربى مقارنة بروسيا الأقرب للشرق الآسيوى. أو على حد تعبير ديرجاتشيف فإن أوكرانيا كيان أوربى قريب من الغرب بينما روسيا كيان أوروآسيوى [٢].

(1) Tolz. V. Rethinking Russian-Ukrainian relations : A new trend in nation - building in Post Communist Russia. Nations and Nationalism , vol. 8, No.2. 2002. p250.

(٢) دراجوفيتش. أوكرانيا في الجغرافيا السياسية الحديثة. دورية بوليس، العدد ٣. ١٩٩٨ ص ١٢٤-١٣٢ (باللغة الروسية).

تتسم أوكرانيا بخريطة إثنية ولغوية متعددة التوجهات ومختلفة الانتماءات، إذ تتألف الدولة من ٧٥ ٪ من الأوكرانيين و٢١ ٪ من الروس و٤ ٪ من إثنيات هاجرت من جمهوريات سوفيتية سابقة مثل البيلاروس (٠,٥ مليون نسمة) والمولداف (٠,٣٥ مليون نسمة) والبلغار (٠,٢٤ مليون نسمة) والبولنديين (٠,٢٢ مليون نسمة) والمجريين (٠,١٧ مليون نسمة) والرومانيين (٠,١٤ مليون نسمة)[١].

ولغويًا يتحدث بالأوكرانية ٤٠٪ من السكان وبالروسية ٢١ ٪ من ذوى الأصول الروسية، إضافة إلى ٣٢٪ من الأوكرانيين الذين يتحدثون الروسية نتيجة التأثر الثقافى الطويل للحكم الروسى.

وفى المقابل فإن هناك نحو ٢ ٪ من الأوكرانيين يعتبرون اللغة الروسية بديلا لهم عن الأوكرانية. ومن ثم فإن ٥٥ ٪ من سكان أوكرانيا يتحدثون بالروسية كلغة وطنية أو كلغة أولى بديلة، أما دينيًا فلا يعترف ٣٠ ٪ من السكان بالأديان ، وتتوزع النسبة الباقية من السكان بين الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية (٤٠٪) والكاثوليكية اليونانية (٨ ٪) والأرثوذكسية الروسية (٧,٥٪) والإسلام واليهودية (٤٪) وغير قادر على تحديد ديانته (٨٪) [٢].

تزداد الخريطة تعقيدًا حينما نعرف أن الأوكرانيين يتمركزون فى القسم الغربى من البلاد، بينما يتركز الروس والأوكرانيون

(1) Casanova. J. Ethno-Linguistic and religious pluralism and democratic construction in Ukraine. In Rubin.B & Snyder.J (eds) Post-Soviet Political Order. London. Routledge.. 1998. p 88

(2) Smith.G, et al. Nation-building in the Soviet borderlands, the politics of national identities. Cambridge. Cambridge University Press. 1998 P119.

المتحدثون بالروسية فى وسط وشرق البلاد، ويعيش المسلمون التتر فى أقصى جنوب البلاد فى شبه جزيرة القرم.

وتتعرض أوكرانيا لنوعين رئيسين من التهديدات، الأول يكمن فى مرابضة الأسطول الروسى فى مياه البحر الأسود أمام شبه جزيرة القرم، والتى كانت تابعة لروسيا قبل أن يضمها السوفيت لأوكرانيا فى ١٩٥٤. والتهديد الثانى محاولات بعض الأقاليم الأوكرانية الانفصال على أسس عرقية أو لغوية خاصة فى جنوب شرق وغرب أوكرانيا.

وتعتبر مشكلة القرم مع أوكرانيا على درجة كبيرة من الأهمية وهى تتحول بالتدريج إلى حالة جزيرة غوانتانمو فى كوبا أو القاعدتين العسكريتين لبريطانيا فى قبرص. فقد خضعت القرم لروسيا القيصرية فى عام ١٧٨٣ بعد أن كانت إحدى الخانات ذات الحماية التركية. وبعد أن طرد سكان القرم من التتر إلى أوزبكستان فى عام ١٩٤٤ عاد ما بين ربع إلى نصف مليون منهم إلى الوطن فى الثمانينيات ليواجهوا مشكلات البطالة والسكن وتهميش الحقوق السياسية.

ويرتبط بالقرم مشكلة بحر آزوف الذى لا تزيد مساحته على ٤٠ ألف كم٢، وكان مسطحًا سوفيتيًا خالصًا قبل ١٩٩١ حيث تزداد مخاوف روسيا من ترسيم الحدود بينها وبين أوكرانيا فى هذا البحر، نظرًا لإمكانية دخول طرف ثالث (الناتو) إلى البحر من خلال أوكرانيا، ومن ثم تعمل روسيا على الإبقاء على آزوف كبحر داخلى رغم ما فى ذلك من تجاهل لحقوق أوكرانيا باعتبار أن الخطأ الذى وقعت فيه روسيا بالموافقة على تقسيم بحر قزوين يجب ألا يتكرر.

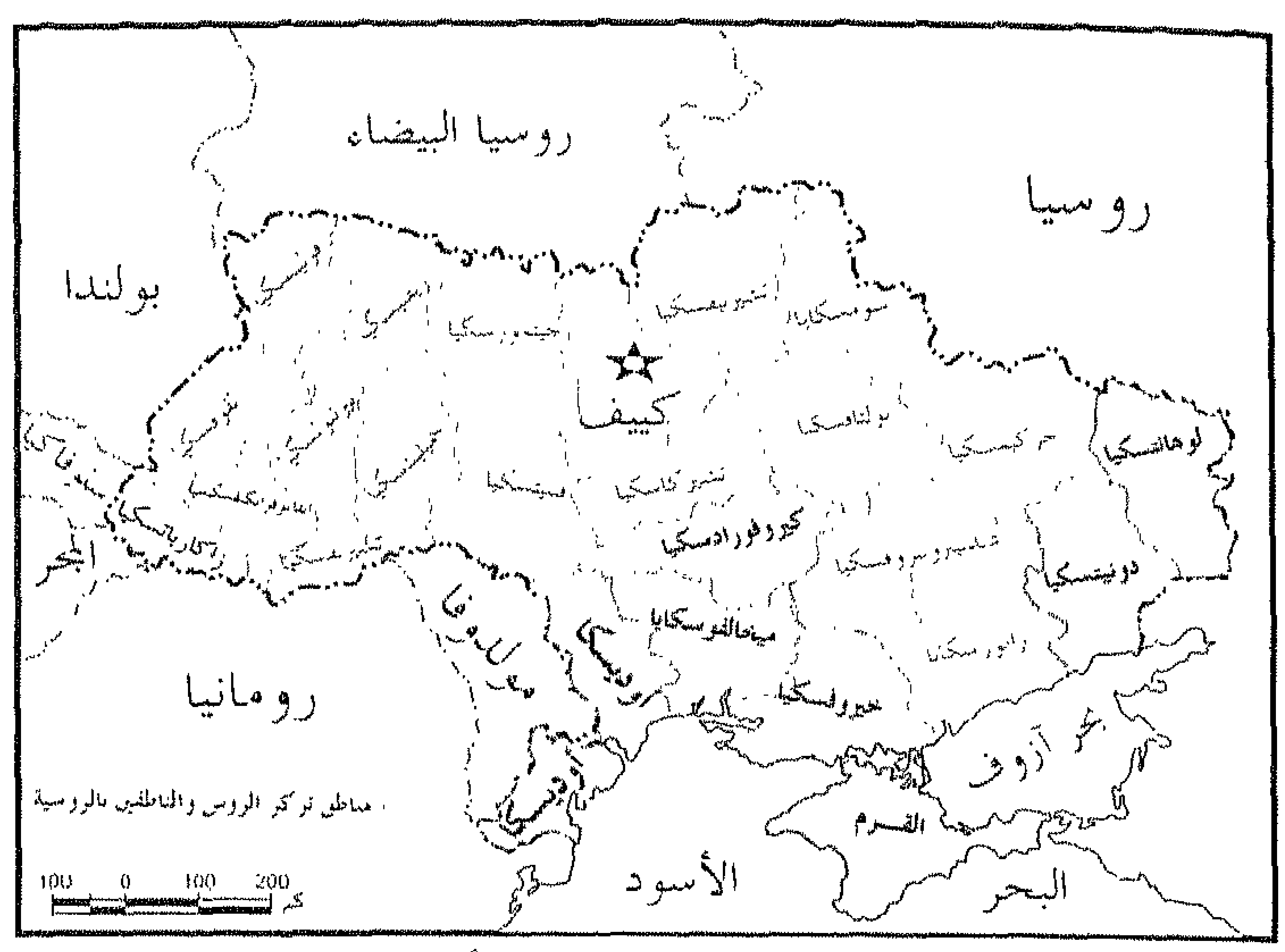
ومن زاوية أخرى فإن المناطق الشرقية من أوكرانيا ذات الأغلبية الروسية تعتبر مناطق على درجة عالية من الحساسية، حتى إن الرئيس الروسى السابق بوريس يلتسين أعلن بعد تفكك الاتحاد السوفيتى أنه لابد من مراجعة الحدود التى تفصل بين روسيا وأوكرانيا، كى تتمكن موسكو من ضم المناطق التى يعيش فيها الروس فى شرق أوكرانيا إلى الوطن الأم حماية لهم، وكان يلتسين يقصد تحديدًا منطقتين فى أوكرانيا هما شبه جزيرة القرم ومنطقة دونباس .Donbass

وقد انشغلت العلاقات بين روسيا وأوكرانيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى بقضية الانتماء ، ففى الوقت الذى كان القوميون الروس ينادون بضرورة انضمام الأقاليم الأوكرانية ذات الأغلبية الروسية كان القوميون الأوكرانيون يذكرون بأن «كييف» هى أم الدولة الروسية وليس العكس[1].

ويوضح شكل (١٩) الأقاليم الإدارية التى تتألف منها أوكرانيا. وعلى هذه الخريطة يتبين أن المناطق التى تهتم بها روسيا هى منطقة القرم ونسبة الروس فيها ٦٨٪ ، ومنطقة الدونباس ونسبة الروس فيها بين ٢٠ إلى ٤٠ ٪ (تتفاوت بين ٤٥ ٪ فى دونيتسك ولوهانس و ٢٠ ٪ فى خيرسون وميكولايف و ٢٨ ٪ فى أوديسا) .

ويمكن إدراك تداخل التأثير الروسى والأوكرانى على التخوم الشرقية لأوكرانيا، حيث تتسم العلاقات الاقتصادية بين الدولتين بحالة من التواصل وكأنهما فى دولة واحدة يتقاسم أهلهما

(1) Roman. S. The politics of state building : Center-Priphery relations in Post-Soviet Ukraine. Europe-Asia Studies vol 46, Issue 1 . 1994. P 22.



شكل (١٩) الخريطة الإدارية لأوكرانيا

الصفقات التجارية ، ويتصاهرون ويتملكون البيوت والمزارع على جانبى الحدود السياسية وينتمون إلى نفس الكنيسة الأرثوذكسية، فى ظل حرية كاملة تمنحها الدولتان للنظم المالية والجمركية بين البلدين، على الرغم من أن هذا الامتزاج والتعاون يخيف القوميين الأوكرانيين من ذوبان هذه المنطقة الحدودية أو وقوعها للهيمنة الروسية فى ظل رغبة كثير من السكان الانتقال إلى الجانب الروسى من الحدود ودعم التوجهات الانفصالية عن أوكرانيا والانضمام إلى روسيا، وبالتالى فإن التوجه نحو الاتحاد الأوربى يمثل لهؤلاء مخرجَ نجاة من التأثير الروسى (١).

(1) Zhurzhenko. T. Cross-Border Cooperation and transformation of regional identities in the Ukrainian-Russian Borderlands. Nationalities Papers. Vol 32, No 2. 2004. p 497-511.

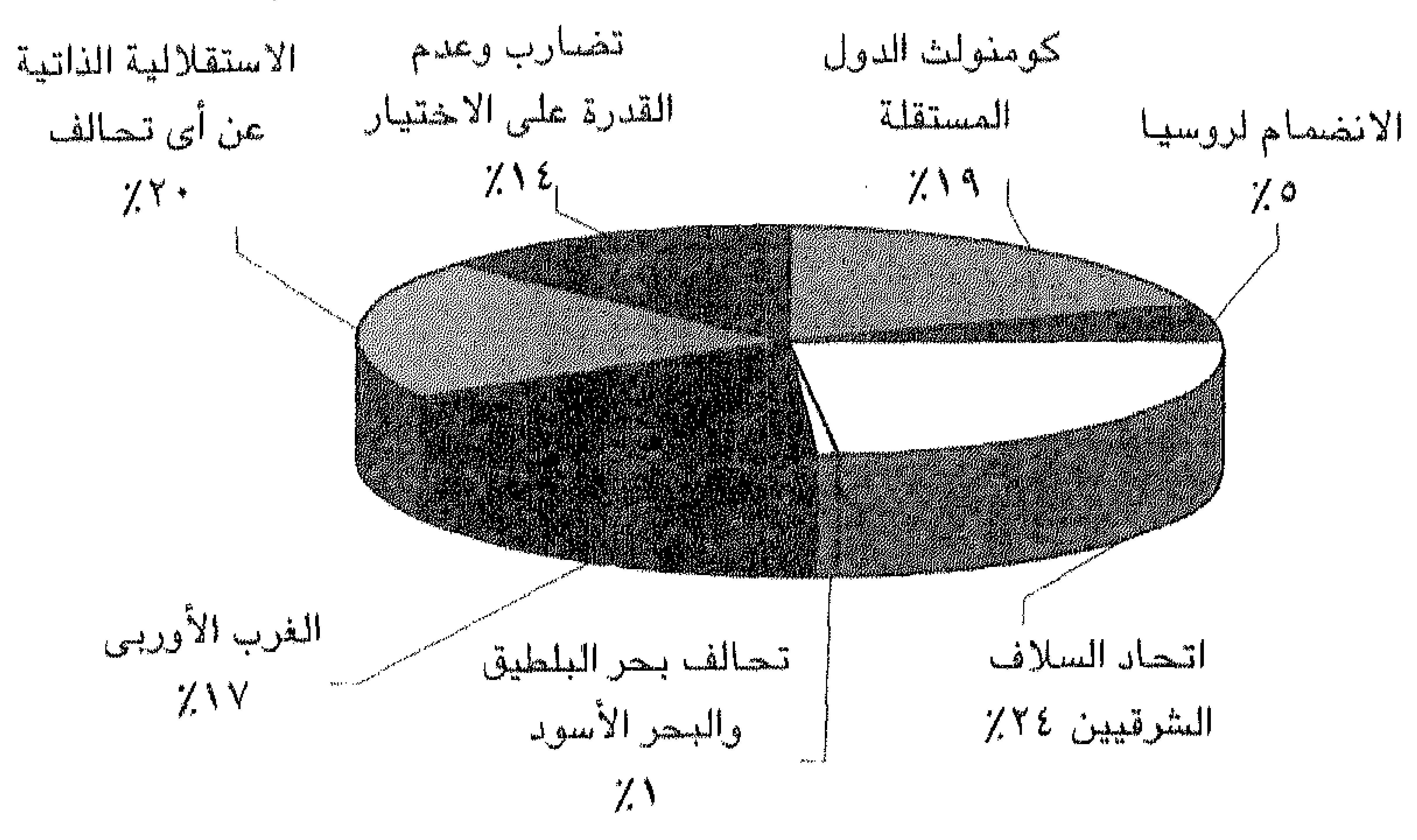
وفى ذات الوقت هناك توتر آخر بين أوكرانيا والمجر بسبب منطقة زاكارباتسكيا (شكل ٢٠) الواقعة على الحدود مع كل من المجر وبولندا وسلوفاكيا ورومانيا. ولقد تم سحب هذه المنطقة من المجر وضمها لأوكرانيا فى عام ١٩٤٥ بعد انتصار الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية. ويشكل الكاربات المجريون ذوو الأصول السلافية نحو ١٣ ٪ من إجمالى سكانه، بينما يمثل الأوكرانيون ٧٨٪ والنسبة الباقية لإثنيات شرق أوربية.



شكل (٢٠) المشكلة الحدودية بين أوكرانيا والمجر

وقبيل تفكك الاتحاد السوفيتي بعام تشكلت حركة الاستقلال بالإقليم وطالبت بإنشاء دولة مستقلة عن أوكرانيا، لكن أوكرانيا عالجت القضية بمنح صلاحيات حكم ذاتي وإنشاء منطقة تجارة حرة،كما طالبت رومانيا بإرجاع إقليم "تشيرنيفيستي" و"بيسارابيا الجنوبية" اللذين اقتطعهما الاتحاد السوفيتي من رومانيا ومولدوفا وضمهما إلى أوكرانيا[1].

وقد انعكست هذه التوجهات والانتماءات على تحديد الهوية المكانية التي يسعى السكان إليها. ويمكننا إدراك تضارب هذه الاتجاهات من خلال الدراسات الاستبيانية التي يعرض لنتائجها شكل (٢١).



شكل (٢١) آراء الأوكرانيين حول مستقبل الهوية الإقليمية التي يرغبون في أن تمثلهم
البيانات نقلا عن Dergachev (2000) p58 [2]

---

(1) Roman. S. op cit. p 30

(2) Dergachev.E Ukrainian-Russian relations- European and Eurasian contexts. Russian Politics and Law. Vol. 39, No. 6. 2000. p 57-73.

لكن الشكل السابق يخفى تفاصيل مهمة يعرضها جدول (٤) وتبين كيف تؤثر الاختلافات العرقية فى الخيارات المطروحة أمام الشعب الأوكرانى، فالروس يعنيهم بالدرجة الأولى اتحاد السلاف والانضمام إلى روسيا والكومنولث ، بينما يميل الأوكرانيون إلى الاستقلالية الذاتية أو الانضمام إلى الاتحاد الأوربى والغرب.

جدول (٤) آراء الأوكرانيين حول مستقبل الهوية الإقليمية حسب أعراقهم

الخيارات	أوكرانيون ٪	روس ٪	آخرون ٪	متوسط كل الأعراق٪
كومنولث الدول المستقلة	١٧	٢٢	٢١	١٨
الانضمام لروسيا	٤	٨	٣	٥
اتحاد السلاف الشرقيين	٢٠	٣٤	٣٣	٢٤
تحالف إقليم بحر البلطيق والبحر الأسود	١	١	٠	١
الغرب الأوربى	١٩	١١	١٢	١٦
الاستقلالية الذاتية عن أى تحالف	٢٣	١١	١٩	٢٠
توجهات متضاربة	٥	٥	٥	٦
عدم القدرة على الاختيار	١١	٨	٧	١٠

نقلاً عن Dergachev (2000) p59

ولعل ذلك التضارب والاختلاف فى الرؤى والتوجهات، الذى رصدته دراسة ديرجاتشيف عام ٢٠٠٠، قد تبلور فى الانتخابات الرئاسية التى أجريت فى أوكرانيا فى نوفمبر من عام ٢٠٠٤ وانقسم فيها الناخبون بين مرشح التحالف مع روسيا فيكتور يانوكوفيتش ومرشح الاستقلالية الأوكرانية والتقارب مع الغرب فيكتور يوشينكو.

وعلى الرغم من أن الفوز كان من نصيب مرشح التحالف مع روسيا - والذى كان يشغل بالفعل منصب رئيس الوزراء- وبفارق ضئيل لا يزيد على ٣ ٪ ، فإن الجماهير الأوكرانية خرجت بما يقرب من ربع مليون نسمة فى قلب العاصمة كييف معلنة تمسكها بفوز مرشحها ذى التوجه الغربى.

وفى تلك الفترة وجد الناخب الأوكرانى نفسه أمام خيارين متضاربين: اختيار يوشينكو الذى يعنى نجاحه تليين موقف الغرب تجاه انضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوربى وحلف الناتو واندفاع الاستثمارات الغربية المتأهبة للسوق الأوكرانية الضخمة (نحو ٥٠ مليون نسمة) وبالتالى رفع مستوى المعيشة وخلق اقتصاد سوق تحتاج إليه البلاد؛ أو اختيار يانوكوفيتش الذى يضمن الوحدة المنتظرة مع الروس، رفقاء التاريخ والثقافة، وذلك فى تجربة وحدوية يفترض أن تنضم إليها روسيا البيضاء وكازاخستان لتكوين جبهة أوروآسيوية لا تقل تقدمًا - هكذا المأمول- عن نظيرتها الغربية.

لم يكن بوسع أى سلطة فى أوكرانيا إغفال مطامح أى من الغرب أو روسيا، وكان المنتظر من المرشح المدعوم من الغرب عدم استبعاد مصالح روسيا فى بلاده، وبها أكبر أقلية إثنية، ويتحدث بلغتها أكثر من نصف السكان، وعليها يعتمد الإمداد بمصادر الطاقة من النفط والغاز.

ولم يكن بوسع المرشح الموالى لروسيا فى المقابل أن يتغاضى عن طموحات بلاده فى التقارب مع أشقائهم فى القارة الأوربية، بالسعى إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوربى، أو إهمال الطموحات الاستراتيجية الغربية فى عقد اتفاقيات عسكرية مع كييف تضمن لها

مجالاً حيويًا فى شرق القارة، ومن ثم فلم يكن هناك خيار فى المسار السياسى لأوكرانيا سوى حل من حلول الوسط يمكن من خلاله تدعيم الشراكة مع الغرب وترضية روسيا فى آن واحد.

النتيجة التى تحققت بعد التظاهرات الضخمة فى نوفمبر من عام ٢٠٠٤ والتى عرفت بالثورة البرتقالية - نسبة إلى الأعلام ذات اللون البرتقالى التى رفعتها الجماهير الحاشدة- تمثلت فى إعادة الانتخابات، وهو ما أثمر فوز المرشح القومى صاحب التوجهات الغربية، وإن واجهت هذه الثورة مشكلة بعد أقل من عامين من عمرها فشهدت انقسامات، واتهامات بالفساد، أدت إلى إعادة انقسام المواطن الأوكرانى سياسيًا، مما ألحق بها خسارة كبيرة فى الانتخابات البرلمانية التى جرت فى مارس ٢٠٠٦ وأدت إلى فوز القوى السياسية المتقاربة مع موسكو برئاسة «حزب الأقاليم» [1].

ورغم نجاح الثورة البرتقالية نسبيًا فى إعلان استقلالها عن التأثير الروسى، إلا أن موسكو لاتزال لديها القدرة على التأثير فى الاقتصاد الأوكرانى، بحكم الدور الوسيط الذى تلعبه أوكرانيا فى التجارة الخارجية لروسيا. إذ تمثل أوكرانيا محطة عبور مهمة للسلع الروسية إلى السوق الأوربية ، وبصفة خاصة النفط والغاز، وتحصل أوكرانيا على عائدات كبيرة من تجارة مرور السلع الروسية.

من زاوية أخرى، تستفيد أوكرانيا جغرافيًا من العجز الذى تعيشه الموانى الروسية على بحر البلطيق والبحر الأسود غير القادرة على التصدير إلى أوربا بأكبر من ٦٠ ٪ ، والباقى لابد أن يمر عبر

(1) Blagov. S. Ukraine , Belarus pursue different political paths.The Independent, 22 April 2006.

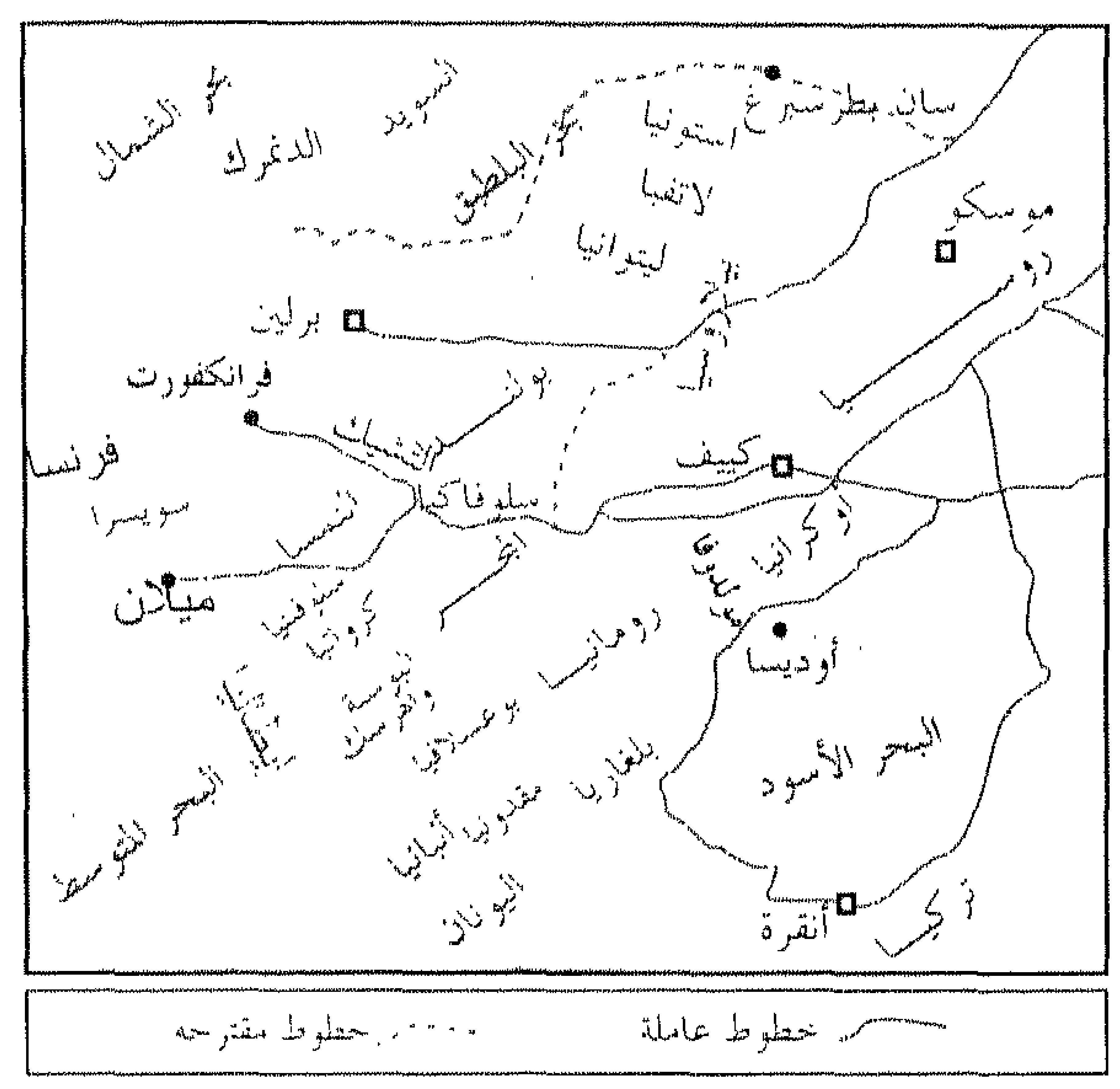
أوكرانيا. بل إن ٩٤ ٪ من إجمالى الغاز الذى تستهلكه أوربا من روسيا يمر عبر الأراضى الأوكرانية من خلال الخط المعروف بخط دروشبا (خط الصداقة). بينما يمر ٣ ٪ من الغاز الروسى المصدر إلى أوربا عبر أراضى بيلاروسيا. وفى ذات الوقت تمثل الصناعات الأوكرانية ميدانًا خصبًا للاستثمارات الروسية، لاسيما فى قطاع الصناعات الثقيلة والصناعات النفطية وبيوت المال والبنوك[1].

ومع مطلع عام ٢٠٠٦ أوقفت روسيا ضخ الغاز عن أوكرانيا بحجة عدم دفع «كييف» السعر المناسب عالميًا، لكن الأزمة سريعًا ما انتهت بتوافق موسكو وكييف على أن ترفع روسيا سعر بيع الغاز فى مقابل رفع أوكرانيا رسوم مرور أنابيب النفط الروسية عبر أراضيها. وحين قطعت روسيا الغاز عن أوكرانيا بدا جليًا للأوربيين أن موسكو تمارس ضغطًا سياسيًا - فى الذروة الشتوية لاستهلاك الطاقة للتدفئة – على حكومة الرئيس الأوكرانى فيكتور يوشينكو الذى دعمه الغرب ووصل إلى حكم أوكرانيا على غير رغبة الكرملين.

تمثل أنابيب النفط الروسية مع أوكرانيا جزءًا من خريطة كبرى للأنابيب تحمل النفط والغاز من روسيا إلى الشرق الأقصى، وعبر جورجيا إلى تركيا، وعبر البلطيق إلى شمال أوربا، وعبر البحر الأسود إلى جنوب أوربا، وعبر دول شرق أوربا إلى ألمانيا وإيطاليا. إضافة الى المشاريع التى تحضر لنقل النفط القزوينى عبر أفغانستان إلى باكستان ثم المحيط الهندى فأسواق جنوب شرق وشرقى آسيا.

(1) Puglici. R. Clashing Agendas? Economic interests, elite coalations and prospects for Co-operation between Russia and Ukraine. Europe-Asia Studies. vol. 55, No 6. 2003. p 832-834.

ومن شكل (٢٢) يتضح خريطة أنابيب النفط المتجهة من روسيا عبر أوكرانيا إلى السوق الأوربية، والتى ستتغير خلال عشر سنين حين يكتمل خط الأنابيب الجديد الذى سيطوق شرق أوربا من خلال مد أنبوب من غربى روسيا تحت مياه بحر البلطيق إلى ألمانيا مباشرة.



شكل (٢٢) أنابيب الغاز الروسية فى القارة الأوربية

كانت روسيا منذ انهيار السوفيتية وحتى عام ٢٠٠٦ تقدم أسعاراً تفضيلية لأوكرانيا وغيرها من دول شرق أوربا بهدف ضمان التأثير السياسي عليها، لكن مع انتشار الثورات الملونة المدعومة من الغرب سقطت أحقية جورجيا وأوكرانيا فى أفضلية الأسعار، ولا يتبقى لروسيا سوى دولتين تعتمدان على موارد الطاقة الروسية هما بيلاروسيا فى شرق أوربا، وأرمينيا فى القوقاز الجنوبى، وكلتاهما

تخضع لاحتمالات التغير، فسيناريو الثورة البرتقالية قابل للتكرار في بيلاروسيا، كما أن أرمينيا تعيد ترتيب علاقتها بالولايات المتحدة في شكل إيجابي.

الطريق الآمنة التي يمكن أن تخلق علاقة صحية بين روسيا وأوكرانيا وتحتفظ لكل منهما بعلاقات حسن الجوار والاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة هي ما يصطلح على تسميته بالعلاقات البراغماتية وليست الرومانسية ، تلك البراغماتية التي تفهم حدود كل دولة وتعرف أن ما كان من أيديولوجيا في التاريخ لم يعد صالحًا للممارسة اليوم [1].

بيلاروسيا والحنين السلافي

ليست هناك دولة استقلت عن الاتحاد السوفيتي عاشت في الظل وانشغل عنها المتابعون مثل بيلاروسيا، فموقعها الحبيس في شرق أوربا، وعدد سكانها الذي يبلغ ١٠ ملايين، ونظامها العتيد الذي يرفض أن يفتح ثغرة في بلاده للتأثير الليبرالي، والتصاقها بروسيا اقتصادًا وسياسة، جعل منها دولة تعيش في الظل، وتنزوي بعيدا عن الحراك الجغرافي السياسي الذي شهدته كافة أقاليم ومناطق ما بعد السوفيتية.

درج استخدام اسم بيلاروسيا بترجمته عن الإنجليزية White Russia استنادا إلى تكون الاسم في الأصل الروسي من مقطعين هما بيلو Belo وتعني أبيض و روس Russ ، هذا على الرغم من أنه لا يوجد أصل دقيق لمسمى «الروس البيض» في التاريخ البيلاروسي. ويشير الاسم إما إلى الثوب الأبيض الذي كانت ترتديه القبائل في

(1) Puglici. R. ibid. p 829.

هذه المنطقة، أو إلى اللون «الشاحب» قليلاً لدى روس هذه المنطقة مقارنة باللون الأحمر قليلاً لدى روس كييف وموسكو، وقد لا تعنى كلمة بيلا سوى اسم محلى قديم للمكان، وهو لايزال مستخدما فى أجزاء من أسماء الأنهار والبحيرات[1].

لم تنعم بيلاروسيا على مدار التاريخ باستقلالية سياسية واضحة، فالقوى الإقليمية المجاورة وجدت فيها على الدوام منطقة للتوسع وتأمين الحدود، فتبادل الليتوانيون والبولنديون والروس السيطرة عليها من قرن لآخر. فمنذ القرن الثامن تمكن الفرنجيون من السيطرة عليها وأخضعت لنفوذ الروس من القرن التاسع الميلادى، ثم سقطت تحت الحكم المغولى مع القرن ١٣، وحين عادت للروس بعد إسقاط حكم المغول كانت دولة ليتوانيا تمتد فى القرن ١٥ من البحر البلطى إلى البحر الأسود شاملة شرق أوربا بأسرها.

لكن الروس عادوا من جديد لينتزعوا ما يعرف اليوم ببيلاروسيا من الحكم الليتوانى البولندى الذى استمر حتى نهاية القرن ١٨. ثم أخضعت بيلاروسيا لحكم روسيا القيصرية خلال القرن ١٩، وعرفت بحدودها التى عليها اليوم منذ عام ١٩٢٢، حين ضمها البلاشفة إلى إمبراطوريتهم السوفيتية[2].

تتسم بيلاروسيا بتجانس عرقى كبير، حيث يؤلف البيلاروس ٨١٪ من إجمالى عدد السكان، ويأتى الروس كأكبر أقلية فى الدولة، حيث يشكلون نحو ١٢٪ ، تليهم أقليات شرق أوربية مثل البولنديين (٤٪) والأوكرانيين (٢,٥٪). وتدين الدولة بالمذهب الأرثوذكسى

(1) Batalden.K & Batalden. L. The New Independent States of Eurasia. Oryx. 1993. p47.

(2) Smith. G. et al. op cit. p 34-35.

للكنيسة الشرقية بنسبة ٨٠ ٪ وتشغل باقى المذاهب والديانات من – مسيحيين كاثوليك وبروتستانت ويهود ومسلمين – النسبة الباقية[١].

عرفت بيلاروسيا منذ استقلالها عن الاتحاد السوفيتى بـ «ثقب أسود» فى الحراك الديموقراطى الذى تشهده أوراسيا الغربية، إذ تبدو هذه الدولة بعيون الغرب حالة شاذة وقطيعًا ضالاً عن القافلة الأوربية التى تسير نحو الديموقراطية والوحدة. وفى الوقت الذى يدعم فيه الغرب جيران بيلاروسيا لتجاوز مخاض ما بعد السوفيتية، تبقى هذه الدولة غير قادرة على الاستقلالية عن روسيا، وحريصة على أن تتوارى فى عباءتها.

وتنحصر أغلب المشكلات المثارة حول بيلاروسيا فى المسار السياسى للرئيس فيكتور لوكاشينكو الذى كان عضوًا فى البرلمان البيلاروسى وصوَّت معارضًا على تفكك الاتحاد السوفيتى[٢] ، ثم صعد نجمه حين انتخب فى عام ١٩٩٤ بأغلبية كاسحة رئيسًا للبلاد. وقبل أن تنتهى فترته الرئاسية طرح استفتاء شعبيًا لتمديد حكمه إلى عام ٢٠٠١ الذى انتخب فيه من جديد رئيسا للبلاد. وفى مارس ٢٠٠٦ أعيد انتخابه لفترة ثالثة بعد أن قام فى أكتوبر ٢٠٠٤ بطرح استفتاء جديد لتغيير مواد الدستور بما أتاح له الترشيح لفترة ثالثة[٣].

---

(١) الإحصاءات السكانية لدولة بيلاروسيا لعامى ١٩٩٧ و١٩٩٩ (نقلا عن CIA Factbook- مايو ٢٠٠٦) .

(2) Christian Science Monitor. Troubled neighbors watch Belarus rush into Russia's arms. March, 29, 2006.

(3) CIA Factbook (2006) Belarus.

ما يثير الغرب فى المنهج السياسى للرئيس البيلاروسى هو حنينه للماضى السوفيتى، واستعادة الإمبراطورية المنهارة. ففى عام ١٩٩٥ وقع مع الرئيس الروسى بوريس يلتسين اتفاقية لإلغاء الحدود بين الدولتين، والتحضير لعملة موحدة، ونظام مالى مشترك، ودستور موحد. وفى عام ١٩٩٧ وقع الرئيسان على اتفاق لـ «وحدة بيلاروسيا وروسيا» وبدأ العمل فعليًا فى الاتحاد منذ إبريل ١٩٩٨ بسياسات اقتصادية وأمنية موحدة، وهو ما بدا خطرًا على وسط أوربا بسبب حصول روسيا بموجب هذا الاتفاق على الاقتراب بنحو ٧٠٠ كم غربًا نحو العمق الأوربى، كما أقرت هذه الاتفاقية إطالة أمد بقاء ٢٥,٠٠٠ جندى روسى فى بيلاروسيا ودمج سلاحى الجو فى البلدين(١).

وإذا كان ذلك قد سبب قلقًا للغرب بعمومه، فإنه أخاف دول الجوار على وجه الخصوص، وفى مقدمتها بولندا ودول البلطيق. فالوحدة التى سعت إليها بيلاروسيا وروسيا ودُعى إليها عديد من دول الاتحاد السوفيتى السابق مثل أوكرانيا وكازاخستان بل صربيا، قد أخافت الغرب من لملمة الإمبراطورية المنفرطة العقد.

ولأنه لم تكن هناك حماسة لفكرة «الاتحاد السلافى» فى أوكرانيا وبصفة خاصة فى الشطر الغربى منها، تزايدت المخاوف الغربية من موقف بيلاروسيا باعتبارها البلد الذى تجد الفكرة فيه رواجًا بحكم دعوة القوميين البيلاروس للاتحاد مع دولة عظمى مثل روسيا تضمن لهم مستقبلاً أفضل مما يمكن أن تحققه دولة صغيرة فى شرق أوربا ليست لها أية نوافذ بحرية على العالم الخارجى.

(1) Balmaceda . M. Myth and reality in the Belarusian - Russian Relationship. What the West must know. Problems of Post-Communism, Vol 46, No. 3 . 1999. p3-5.

لم تكن بيلاروسيا مخترعة لفكرة الاتحاد السلافى، فقد نبتت الفكرة فى روسيا، وعلى يد مفكرين مرموقين من أمثال سولجنتسين، ثم تدعمت من قبل أحزاب اليمين واليسار على السواء. وتعتمد فكرة الجامعة السلافية على وحدة العرق السلافى (رغم انتشاره جغرافيًّا بين سلاف الغرب وسلاف الشرق وسلاف الجنوب) والتاريخ المشترك والقيم الثقافية المتشابهة، والمذهب الدينى الأرثوذكسى الذى يجمع الشعوب السلافية تحت سقف كنيسة واحدة.

لكن فى الوقت الذى كانت فيه روسيا وبيلاروسيا وصربيا تتعاطف مع فكرة الاتحاد السلافى، كان الرئيس الأوكرانى ليونيد كرافتشوك يحذر فى النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين من خطورة إقامة اتحاد سياسى على أساس عرقى، معتبرًا أن لذلك عقبات شديدة السوء وبصفة خاصة على الأقليات السلافية التى تعيش فى عديد من دول أوربا وعلى تقسيم البلاد السلافية حسب الأقاليم والمناطق التى تعيش فيها أقليات سلافية وغير سلافية ، والأهم أن ذلك سيؤدى إلى قيام اتحادات سياسية أخرى معادية للاتحاد السلافى[1].

كانت المراقبة الغربية للحالة البيلاروسية تنظر بعين الاعتبار إلى مجموعة من العلاقات ذات الدلالة فى قضية الجامعة السلافية أهمها :

١- أن الاتحاد السلافى يمثل خطرًا على الاستقرار فى أوربا وبصفة خاصة حين يسعى هذا الاتحاد إلى ضم الصرب المعروفين

(1) ITAR - TASS. Kravchuk Terms Slav Union idea "Dengerous" (after Brzeznisi.Z & Sullivan.P (eds) op cit. p 322).

بتاريخهم السياسى العنيف، ولعل حروب البلقان التى نشبت فى النصف الأول من التسعينيات وتمت خلالها مذابح جماعية بحق الأقليات غير الصربية (وبصفة خاصة ضد مسلمى البوسنة والهرسك) مثالاً حيًا على ذلك. وقد اعتبر فلاديمير جيرونوفسكى زعيم الحركة القومية الروسية الداعمة للتحالف السلافى أن حرب البلقان شاهد إثبات على ضرورة الإسراع بتحقيق الوحدة السلافية لإنقاذ الصرب (السلاف الجنوبيين) من الأعداء [1].

٢- أن بيلاروسيا ما زالت تمثل مصدر خطر لاستعادة الإمبراطورية السوفيتية المنفرطة العقد، وأن لوكاشينكو لا يمثل فقط زعيمًا شيوعى التفكير والمنهج بل آخر الديكتاتوريين العظام فى القارة الأوربية.

٣- أن هناك احتمالاً كبيرًا لانتشار النموذج البيلاروسى فى دول الجوار وبصفة خاصة فى أوكرانيا التى تعتبر خسارتها فادحة لدولة تمثل أهم مفاتيح الجغرافيا السياسية فى أوراسيا.

٤- أن بيلاروسيا تمثل المعركة الأخيرة فى حرب الإرادات فى عالم ما بعد السوفيتية، فإما أن يتم امتصاصها وإمًا تحييدها، لكن الأكيد ألا تترك تسقط فى فلك الهيمنة الروسية من جديد، واعتمدت الرؤية الغربية فى ذلك على أن ما تسعى إليه بيلاروسيا ليس إلا مرحلة من ثلاث مراحل خطيرة تبدأ بالتحالف مع روسيا ثم تنتقل إلى الاتحاد السلافى بخسارة أوكرانيا لصالح موسكو وتختتم باستعادة الإمبراطورية الروسية سواء فى حدودها القيصرية أو السوفيتية. ويُستمد هذا المفهوم من فكرة راسخة فى

(1) Brzeznisi.Z & Sullivan.P (eds) op cit p 319.

الجغرافيا السياسية لأوراسيا، وهى أن روسيا بدون أوكرانيا «دولة وليست إمبراطورية».

٥- أن تفكك آخر اتحاد فى يوغسلافيا السابقة بانفصال جمهورية الجبل الأسود عن صربيا فى مايو ٢٠٠٦ وترك صربيا جمهورية وحيدة من بقايا جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى السابق ليعد خطوة ناجحة فى مواجهة الاتحاد السلافى وتحويله إلى ورقة فى صفحات التاريخ لعالم ما بعد السوفيتية.

كان رد الفعل الغربى أمام تهديد الجامعة السلافية قد اتخذه حلف الناتو الذى سارع بالاقتراب من الدول الواقعة تحت إغراء الوحدة مع روسيا وبيلاروسيا، أو تحت تهديد التمدد الروسى، ومن ثم اختار الناتو الدول المحيطة ببيلاروسيا وأوكرانيا ليدخلها كأعضاء جدد.

لم تكن روسيا قد أفاقت بعد من صدمة انضمام بولندا التى تمثل واحدة من أهم الدول التى خسرتها فى شرق أوربا، فالدولة التى كانت معقلاً للشيوعية بدأت منها نهاية الشيوعية فى الثمانينيات، ومنها اختير أول بابا للفاتيكان من الكتلة الشيوعية، وكانت أول دولة شيوعية تصل فيها الأحزاب المعادية للشيوعية إلى الحكم فى عام ١٩٨٩. وبعد أن تفكك حلف وارسو رسميًا فى ١٩٩١ لم تكمل وارسو عامين حتى أصبحت أول عاصمة شيوعية سابقًا تنضم إلى حلف الناتو. وهو ما مثل «خديعة» لموسكو التى تلقت وعودًا من الحلف بعدم ضم أية دولة سابقة فى حلف وارسو إلى عضويته. وقد وجد الناتو فى بولندا صيدًا ثمينًا لما لديها من قدرات عسكرية وبنية أساسية مجهزة، ممًا جعل الناتو قادرًا على استهداف أى جزء فى العمق الروسى حتى جبال الأورال.

ثـم جـاءت الـنـقـلـة الـثـانـيـة فـى الـحـدث الـتـاريـخـى الذى شهدتـه العاصمة التشيكية براغ فى نوفمبر ٢٠٠٢ حين ضم الحلف أربع دول من شرق أوربا هى رومانيا وبلغاريا وسلوفاكيا وسلوفينيا إضافة إلى دول البلطيق الثلاث: إستونيا ولاتفيا وليتوانيا. وعلى الرغم من أن الناتو لم يقدم العضوية لأوكرانيا لحساسية علاقتها بروسيا، فإنه لم يضع فرصة أخرى بإجراء مناورات عسكرية مع الـجـيش الأوكـرانـى، وبصـفـة خـاصـة مـنـذ أحـداث سـبـتـمـبـر وغزو أفغانستان والعراق[1].

وبينما كان حلف الناتو يتخذ هذه التدابير التاريخية، كانت روسيا تنتقل إلى مرحلة جديدة فى سياستها الخارجية حين انتخب فلاديمير بوتين خلفًا لبوريس يلتسين فى عام ٢٠٠٠. فقد آمن بوتين بالمنهج البراغماتى فى التعامل مع قضايا الأمن فى أوربا وعالج المشكلات الشائكة مع الغرب بمبادرات جريئة، قلَّلت إلى حد كبير من المخاطر التى أخافت أوربا والولايات المتحدة من مشروع اتحاد السلاف الذى انتعش فى عهد الرئيس السابق بوريس يلتسين.

وربما كانت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عاملاً مساعدًا فى تدعيم الاستعدادات البراغماتية فى السياسة الخارجية للرئيس الروسى، فحين اندفعت الولايات المتحدة فى أعقاب تلك الحادثة إلى وسط آسيا والقوقاز وشرق أوربا، تفهم بوتين الموقف الأمريكى وتعاون معها فى ملف الحرب على الإرهاب، فسكت عن إقامة الولايات المتحدة للقواعد العسكرية فى دول آسيا الوسطى والتعاون العسكرى

(١) راجع تاريخ انضمام الدول الأعضاء فى حلف الناتو ومراحل العضوية التى اجتازتها على موقع الحلف على شبكة الإنترنت www.nato.int .

بين الحلف وجورجيا فى القوقاز وزحف الناتو شرقًا نحو دول البلطيق.

النقلة الأكثر أهمية فى موقف روسيا من السياسات الغربية تجاه دول أوربا الشرقية ،وبيلاروسيا وأوكرانيا على وجه الخصوص، هى قبول الرئيس الروسى بعضوية بلاده فى حلف الناتو التى اتخذت صفة المراقب منذ مايو ٢٠٠٢. وهنا بدا أن الدور الذى كان يمكن أن تلعبه بيلاروسيا كحائط لصد توسع الناتو نحو الشرق قد فقد أهميته. ومن ثم انخفضت أهمية الوزن الجيوسياسى لبيلاروسيا فى مخططات الرئيس الروسى نحو مستقبل التعامل مع الأمن الأوربى.

وإضافة إلى المتغيرات الخارجية فى سياسة الرئيس بوتين كان تطور الأوضاع الداخلية يدعم خيار تهدئة مشروع الجامعة السلافية، فصعود طبقة رجال الأعمال فى روسيا فى منتصف التسعينيات وامتلاكهم لوسائل الإعلام ساهم فى نشر مقولة مهمة صارت لسان حال الشارع الروسى مفادها: «ما حاجتنا لـ(لوكاشينكو) الشيوعى؟ لسنا مستعدين للعودة إلى السوفيتية من جديد».

كما ساهمت هذه النخبة الاقتصادية فى التأكيد على أنه لا نفع لروسيا من التحالف مع دولة ضعيفة اقتصاديًا، محدودة السوق، حبيسة النظم الاشتراكية، بعيدة عن خطوات الخصخصة الواسعة التى قطعها الاقتصاد الروسى.

وبعد التغيرات التى شهدتها أوراسيا الغربية منذ سبتمبر ٢٠٠١ صارت التوقعات المتشائمة التى طرحتها بعض الدراسات[1] أقرب

---

(1) Balmaceda .M. op cit p 9.

للتحقق، فقد زادت انعزالية بيلاروسيا وصنعت ما يمكن تسميته كراهية البيلاروس للوحدة مع روسيا بشكل غير مباشر، وذلك حين انقسمت الدولة إلى معسكرين أحدهما موال للرئيس، والثانى مع المعارضة الكارهة للتهميش والساعية للانضمام للغرب.

تدرك الأغلبية فى بيلاروسيا ارتهان اقتصاد بلادها للطاقة المدعومة الآتية من حقول الغاز الروسى فى سيبيريا. إذ تعتمد بيلاروسيا فى نحو ٩٠٪ من استهلاكها للطاقة على الغاز الروسى وتحصل على أفضلية فى الأسعار تجعلها تدفع فقط ثلث قيمة السعر الفعلى الذى تدفعه دول أوربا الغربية. ومن ثم فإن طبيعة العلاقة التحالفية بين بيلاروسيا وروسيا لن تبقى فقط أسيرة المتغيرات الجيوسياسية بل والجيواقتصادية فى ذات الوقت، أو ما يمكن تسميته بالولاء المرتهن بالإعانات الاقتصادية.

ولعل الولاء لن يتوقف فقط على ما يمكن أن تقدمه روسيا لحكومة بيلاروسيا، بل على ما يمكن أن يقدمه الغرب من دعم مالى للمعارضة كذلك. فبدون هذا الدعم لن تتمكن المعارضة من فعل أى شيء لمستقبل تنتقل فيه بيلاروسيا إلى المسار الأوربى[1].

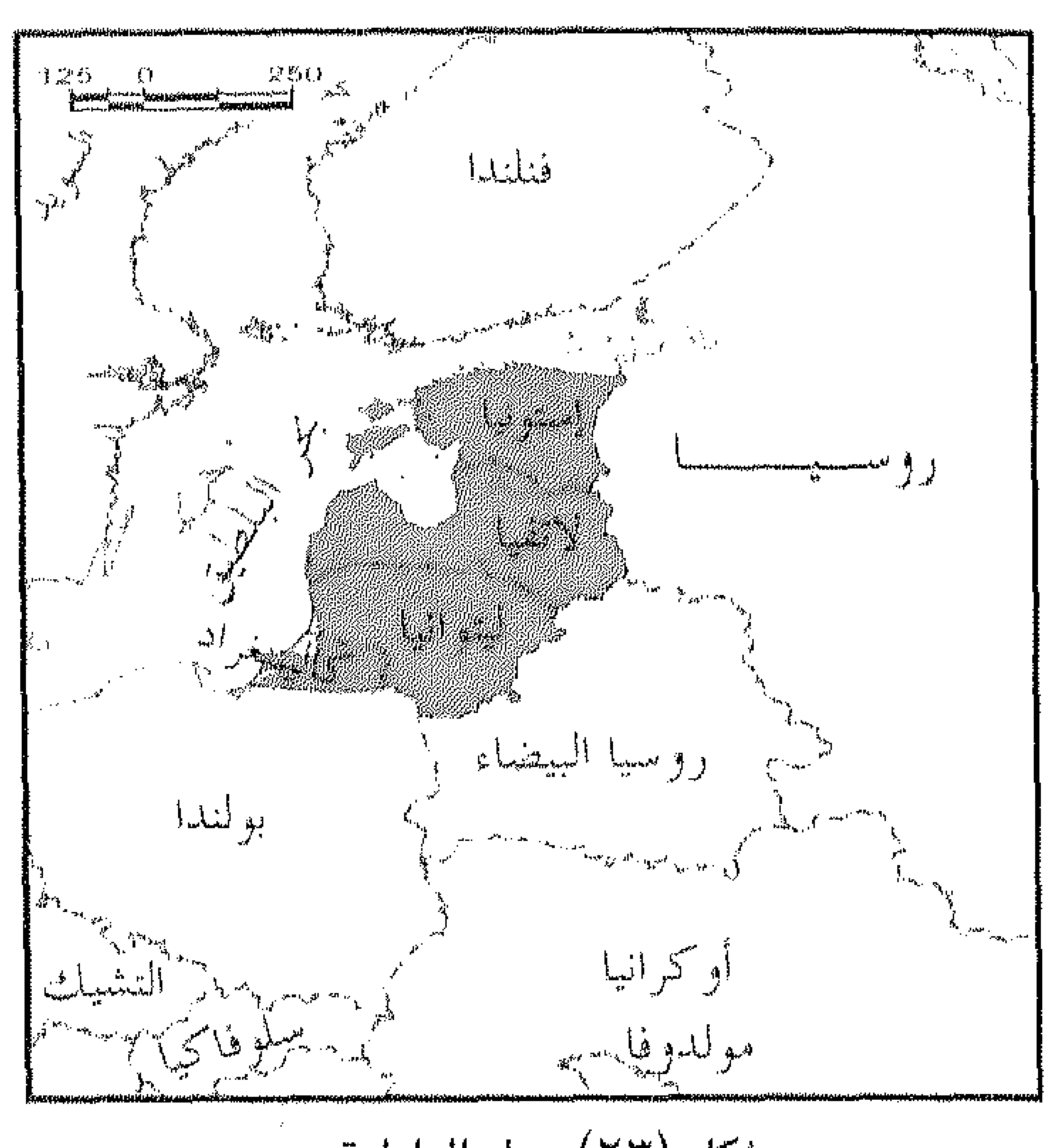
الطابور الخامس فى دول البلطيق

رغم صغر مساحتها وضعف بنائها الديموغرافى، لعبت دول البلطيق دورًا حيويًا فى تاريخ أوراسيا خلال العهد القيصرى والسوفيتى، وكانت من العوامل الأساسية التى أدت إلى تفكك الاتحاد

(1) The Economist. Sour Slavs in the slow lane, Russia's new ties with the West make the plight of Ukraine and Belarus look all the more gloomy. 6th Jan. 2002.

السوفيتى بفعل نشاط حركتها القومية المطالبة بإسقاط الحكم الشيوعى واسترداد الهوية التى مسختها السياسة السوفيتية.

شهدت دول البلطيق (إستونيا ، لاتفيا، وليتوانيا) (شكل ٢٣) تاريخًا مشتركًا منذ القرن الـ١٣ حين تقدمت المسيحية والنظام الإقطاعى نحو الإقليم على يد الحملات الألمانية والدنماركية. وصارت المنطقة التى تشغلها هذه الدول اليوم ميدانا لتنازع السيطرة بين ألمانيا وبولندا والدانمارك والسويد والإمارات الروسية. وبعد أن تمكن الاتحاد البولندى الليتوانى من السيطرة على الإقليم فى القرن الـ١٦ عادت روسيا لتهيمن عليه منذ القرن الـ١٨.



شكل (٢٣) دول البلطيق

ورغم تمكن دول البلطيق من إعلان استقلالها عام ١٩١٨ مستغلة هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولى، فإنَّ ستالين أخضعها لسيطرته فى عام ١٩٤٠ خلال التحضير للحرب العالمية الثانية. ولم

تتمكن هذه الدول من استعادة استقلالها ثانية إلا فى عام ١٩٩١ قبيل التفكك النهائى للاتحاد السوفيتى.

وإذا كانت هناك مجموعة دول متفككة عن الاتحاد السوفيتى قد عرفت الطريق الذى تسير فيه، واخترقت دربها بإتقان وعزيمة، فإنها بالطبع ستكون دول البلطيق. ففى الوقت الذى عانت ، وما تزال، أغلب دول الميراث السوفيتى من ارتباك البناء السياسى، والصدام السياسى والعرقى والدينى ، عرفت دول البلطيق الثلاث ماذا تريد، وضمنت لنفسها مكانًا راسخًا وموقعًا متزايد الأهمية فى البناء الأوربى.

فالسنوات الخمس عشرة التى مضت على تفكك السوفيتية وعاشتها أغلب الدول فى لملمة جراح الحروب والصدامات، قطعتها دول البلطيق فى دعم الحياة السياسية على أسس ديموقراطية مدعومة من الاتحاد الأوربى وحلف الناتو اللذين تفهما جيدا الأهمية الاستراتيجية لدول البلطيق على عتبات البيت الروسى وخطورة التهديدات التى تعرضت لها هذه الدول خلال قرون ثلاثة كانت روسيا فيها المسيطر الأكبر على مصير شعوبها.

كثير من الأسرار خرجت عن المعاناة التى شهدتها شعوب دول البلطيق فى العهد السوفيتى. وبصفة خاصة التهميش الذى لقيته عند المستوى الدينى (تتبع هذه الدول الكنيستين اللوثرية والكاثوليكية وليست الأرثوذكسية) والعرقى، واللغوى، والاضطهاد الذى تعرض له سكان دول البلطيق على يد الشيوعيين، وبصفة خاصة فى العهد الستالينى(١).

(1) Küng. A. Communism and crimes against humanity in the Baltic states, A report to the Jarl Hjalmarson foundation seminar on April 13, 1999.

ولقد سعت هذه الدول مبكرًا إلى إقرار الأمن والاستقرار، وبلورة حقيقية للاستقلال عن موسكو، اقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا. فضلاً عن إقناع المجتمع الدولى بجدية التعامل معها بل وعدم الخجل من الإعلان صراحة أنها دول ضعيفة لا يمكنها الدفاع عن نفسها أمام روسيا، ومن ثم حاجتها للحماية، وقد حرصت دول البلطيق فى ذات الوقت ألا يفهم أنها تكنُّ عداءً لموسكو، فهى أكثر العارفين بأن روسيا الجار الأكبر والأكثر أهمية فى المنطقة ويصعب إغماض العين عن مصالحه(1).

لكن تلك الحكمة لم تمض دون توتر وقلق، فبُعيدَ استقلال دول البلطيق صار الروس الذين غرسهم السوفيت فى هذه الدول يشكلون تجمعًا سكانيًا كبيرًا يهدد الوضع الديموغرافى فى هذه الدول. فقد تخلف نحو ٢٥ مليون روسى فى ١٤ جمهورية سوفيتية سابقة بعد تفكك الشيوعية ولم يعودوا إلى وطنهم الأم فى روسيا، وعلى الرغم من أن أقل من ٢ مليون روسى فقط قد بقوا فى دول البلطيق، فإن عدد السكان المحدود لهذه الدول جعل من الروس أكبر أقلية فى البلاد. فقد صنع نصف مليون روسى فى إستونيا نسبة ٣٠٪ من إجمالى السكان، وفى لاتفيا شكل مليون روسى نحو ٣٤٪ من السكان فى البلاد، بينما فى ليتوانيا شكل عددهم (٣٥٥ ألف نسمة) ما نسبته ١٠٪ من إجمالى السكان.

لم تكن هذه النسب على ما هى عليه اليوم قبل نصف قرن وقبل أن يضم السوفيت دول البلطيق. فبفضل سياسة سكانية سوفيتية

(1) Bajarnas. E. et al. The Baltic States : Security and deffence after independence. Institute for Security studies of WEU. 1996 (internet data).

منظمة تناقصت نسبة اللاتفيين من ٧٧ ٪ إلى ٥٢ ٪ لصالح زيادة الأقليات الروسية وأقليات من دول شرق أوربا المجاورة. وكذلك تناقصت نسبة السكان الأصليين فى إستونيا من ٩٢ ٪ إلى ٦٢ ٪ ، وزاد الأمر تعقيدًا أن بعض المقاطعات والمناطق الإدارية فى هاتين الدولتين كانت ذات أغلبية سكانية روسية تراوحت فى بعضها نسبة الروس بين ٥٠ إلى ٦٥ ٪[1].

وبينما قامت كافة الدول المتفككة عن الاتحاد السوفيتى بإعطاء الجنسية لمن يعيش على أراضيها من مواطنى الاتحاد السوفيتى السابق، تفردت إستونيا ولاتفيا برفض إعطاء الجنسية لغير السكان الأصليين فى الدولتين، وكانت الخطوة موجهة بشكل أساسى إلى الروس المتخلفين فى بلادهم بعد سقوط السوفيتية.

وقد تباينت المبررات التى طرحت لحرمان هذه الأقلية من الجنسية ، وأهمها أن السكان الأصليين يتعرضون لانكماش فى نسبتهم أمام الأقليات، وهو ما يهدد الأمن القومى للدولة، وبعضها صدر عن الأحزاب اليمينية فى إستونيا ولاتفيا التى رأت فى الأقلية الروسية طابورًا خامسًا لموسكو يسعى إلى تقويض الاستقلال وإعادة إحياء الإمبراطورية وابتزاز هذه الدول لتبقى فى فلكها وتحت رحمتها[2].

ساهمت هذه التوجهات فى ظهور شعار «عودوا إلى دياركم» وإذكاء الروح القومية التى استعادت مشاهد من الاضطهاد السوفيتى القديم، ممًا شحن العقل الجمعى بأهمية بلورة الاستقلال، ومن ثم

(1) Koronenfeld. D. The effects of interethnic contact on ethnic identity. Evidence from Latvia. Post-Soviet Affairs, 21 , 3. 2005. p 248.

(2) Koronenfeld. D. Ibid.

شعر الروس فى دول البلطيق أنهم قد سلبوا الامتيازات التى عاشوا عليها من قبل، بل وصاروا مستهدفين، أو فى أفضل الأحوال مواطنين من «الدرجة الثانية» أمام سياسات سكانية تهدف إلى «تأميم دول البلطيق» (١).

كان الرد الروسى متوقعًا، وأعلن الرئيس الروسى بوريس يلتسين - الذى كانت بلاده لاتزال تحتفظ بنحو ١٢٠ ألف جندى فى دول البلطيق- بأن بلاده لن تسحب جنودها ما دامت سياسات هذه الدول تجاه المواطنين الروس تتسم بالعدائية. وقد سار على نفس منهجه وزير خارجيته أندريه كوزيروف الذى ندد بسياسة «الأبارتيد» التى تمارسها دول البلطيق تجاه الروس(٢).

بدت الأجواء متوترة خاصة فى النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين حين كانت القوات الروسية خارج الحدود تلعب دورًا شديد الخطورة، وتتصرف باستقلالية دون الرجوع إلى الحكومة فى موسكو، وتسببت فى مشكلات دامية وشاركت فى حروب محلية فى مناطق مشتعلة فى مولدوفا وجورجيا وطاجيكستان وأرمينيا وأذربيجان (٣).

لكن قضية الأقلية الروسية فى دول البلطيق وجدت لها مخرجًا بفعل اشتراك خمسة عوامل رئيسية هى:

(1) Smith. G. The Russian diaspora: Identity, Citizenship and Homeland.. in Bradshaw.M Geography and transition in the Post-Soviet republics. Chichester. John Wiley & Sons.1997. P 76.

(٢) نيزافيسميا غازيتا بتاريخ ١٣/٤/١٩٩٣.

(3) Simonsen. S. Compatriot Games: Explaining the "Diaspora Linkage" in Russia's Military withdrawal from the Baltic States.Europe-Asia Studies. Vol 53, No 5. 221. p 776.

١- ضغط الدول الأوربية دبلوماسيًا على روسيا لسحب قواتها من دول البلطيق، وتحول هذا الضغط إلى ضغط اقتصادى حين ربطت الإعانات الاقتصادية التى كانت تقدمها لحكومة الرئيس بوريس يلتسين بموعد انسحاب قواته من البلطيق وهو ما تحقق فى عام ١٩٩٤[1].

٢- اتباع دول البلطيق سياسة بناءة تجاه الأزمة حيث أعلنت للعالم ولروسيا أنها لا تفرق بين مواطنيها والأقليات العرقية الأخرى، فللجميع حقوق متساوية فى الأبعاد الثقافية والاجتماعية، وأن الفرق الوحيد هو عدم السماح للأعراق غير الوطنية بالتملك أو الانتخاب، وفى المقابل منحت هذه الحكومات الروس هويات إقامة دائمة مع حرية للسفر داخل وخارج الدولة دون أية قيود.

٣- انشغال روسيا داخليًا بصراعات سياسية مختلفة زادت من حدتها منذ عام ١٩٩٤ الحرب الشيشانية التى اتخذتها دول البلطيق حجة على كيفية تعامل الروس مع الأقليات غير الروسية والنموذج الدموى الذى اتخذته موسكو تجاه أقليات عرقية ودينية، ولسان حالها: «قارنوا بين ما نفعله وما تفعلون».

٤- عدم اتساق الأقلية الروسية فى دول البلطيق فى تنظيمات سياسية واجتماعية تكفل لها القدرة على التأثير فى البناء الاجتماعى والاقتصادى للدولة التى يعيشون فيها، فقد كانت هذه الأقلية تعانى أزمة هوية حقيقية، بين ماضٍ سوفيتى وحاضر مفكك، وبين مهاجرين قدامى ومحدثين، وسكان مدن وسكان ريف، عمال مصانع وزراعيين..إلخ. كما كانت الحالة

(1) Simonsen. S. ibid.

المتردية التى تعيشها روسيا اقتصاديًا وأمنيًا من عوامل الطرد التى جعلت كثيرًا من أبناء هذه الأقلية يفضل البقاء آمنًا فى هذه الدول على العودة إلى وطنه، أو المطالبة بالارتباط العضوى معها. والنتيجة أن هذه الأقلية افتقدت القدرة على الفعل والتحرك الجمعى للمطالبة بما تعتبره حقوقًا مسلوبة [١].

٥- نجاح حكومات دول البلطيق فى الحفاظ على الاستقرار والأمن والعلاقة السلمية تجاه الأقليات، ومن ثم فقد حال ذلك دون وجود المبرر الذى أكد عليه أوبيرشال Oberschall بأن الفعل الجمعى للأقليات يتطلب «شعورًا مشتركًا بالاضطهاد الجمعى، وشعورًا مماثلاً بأن أبناء هذه الأقلية مستهدفون بممارسات قمعية من قبل الأغلبية» [٢] وهو ما لم تتعرض له الأقلية الروسية فى دول البلطيق.

أكملت دول البلطيق خطواتها النوعية على طريق تدعيم الاستقلال بالاقتراب من الاتحاد الأوربى وحلف الناتو. وهو ما استدعى اعتراضًا متوقعًا من روسيا التى أظهر رئيسها فلاديمير بوتين موقفًا سلبيًا فى عام ٢٠٠٠ معتبرًا تلك الخطوة «معاداة واضحة ومماحكة لروسيا» مهددا بأن بلاده ستتخذ إجراءات قاسية إذا ما تخطى الناتو حدود الاتحاد السوفيتى السابقة مقتربًا من روسيا[٣].

(1) Smith. G. op cit. p 83.

(2) Oberschall.A. (1973) Social conflict and social movements.Englewood Cliffs, NI: Prentice- Hall. 1973 (after Smith.G ,1997).

(3) Kuzio. T. NATO and the Baltic States. Jane's Intelligence Review. November 01. 2000.

ومع قبول عضوية دول البلطيق فى حلف الناتو فى قمة الناتو فى العاصمة التشيكية براغ فى نوفمبر ٢٠٠٢ لم تتوقف المخاطر التى منيت بها روسيا مع توسع الناتو شرقًا عند حدود المواجهة العسكرية المحتملة مع الحلف؛ فالتوسع شرقًا ضيع على روسيا فرصة إعادة ملء الفراغ الذى كان لايزال فرصة سانحة فى أوربا الشرقية، كما أضاع منها حتمًا إمكانات الحضور الجيوسياسى فى وسط وجنوب أوربا .

لم تأخذ الدهشة روسيا بانضمام دول البلطيق فحسب، بل وقفت موقفًا مرتبكًا فى سياستها الخارجية آنذاك. فالرئيس الروسى فلاديمير بوتين لم يذهب إلى اجتماع قمة الناتو فى براغ عام ٢٠٠٢ حتى لا يُفهم على أنه مباركة روسية على توسيع الحلف، بينما وقف وزير خارجيته آنذاك إيجور إيفانوف ليقول فى اجتماع الحلف: «إن فى توسيع حلف الناتو شرقًا نقاطًا إيجابية كثيرة ستعود بالفائدة على الأمن الأوربى والأطلسى». لم يكن بوسع روسيا - وهى ترى تبعات ١١ سبتمبر– أن تطلب أكثر من التزام دول البلطيق بتحديد حجم القوات والأسلحة التابعة للناتو التى قد تتواجد على أراضيها [1].

لكن أحداث سبتمبر ٢٠٠١ لم تكن كارثية لروسيا حتى النهاية، فقد حقق الناتو لروسيا شعورًا بالارتياح حين خلصها من نظام طالبان الذى شكل لها قلقًا فى أواخر التسعينيات وخاصة علاقته بالحركة المسلحة فى الشيشان، وتهديده بتصدير فكرة الحكم الإسلامى إلى دول آسيا الوسطى، ومنها إلى الجمهوريات الإسلامية داخل الاتحاد الروسى.

---

(١) تسفيتكوفا، ماريا. الناتو ودول البلطيق. موقع غازيتا. رو على الإنترنت. (باللغة الروسية) ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٢.

ثم جاءت كلمة الختام في سعى دول البلطيق الى تدعيم الاستقلال بعد هدوء أحداث سبتمبر حين أثبتت أنها قادرة على تحمل المسئولية بأن تمضى فى طريقها نحو الغرب والابتعاد عن روسيا دون أن تمس حقوق الأقليات التى تؤلف ما بين ربع وثلث سكانها. وهو ما حقق لها القبول فى الاتحاد الأوربى فى مايو ٢٠٠٤[١].

وعلى الرغم من أن روسيا ودول البلطيق قد انتقلت فى كثير من جوانب العلاقة بينهما إلى نوع من التعاون البناء وبصفة خاصة فى النصف الثانى من تسعينيات القرن العشرين[٢] فإنه من فترة لأخرى تظهر بعض المشكلات المتوقعة بحكم الخلافات الأيديولوجية وتباين المصالح الاقتصادية والسياسية.

ومن بين أحدث هذه الخلافات القلق الذى أظهرته دول البلطيق تجاه الأمن البيئى، فإضافة إلى تخوف هذه الدول من المفاعل النووى فى مدينة سان بطرسبرغ على بحر البلطيق تتهم هذه الدول روسيا باستغلال هذا البحر كمدفن للنفايات النووية خلال العهد الشيوعى. وقد ثارت هذه المشكلة فى السنوات الأخيرة حين قامت روسيا وألمانيا بالتحضير لمد أنبوب غاز فى قاع بحر البلطيق يصل الغاز الروسى إلى الأسواق الألمانية. هنا أعلنت هذه الدول أن أعمال مد الأنبوب ، والذى تقوم به شركة غازبروم الروسية، قد تجلب كارثة بيئية على مياه بحر البلطيق[٣].

(1) Radnitz. S. The Tyranny of small differences: The relations between ethnic diversity and democracy in the former socialist bloc. Demokratizatsiya. Heldref Publictions. Fall 2004. p596

(2) Duleba.A From Domination to Partnership : The Perspectives of Russian - Central - East European relations. Final Report to the NATO research fellowship program. 1998. 97-98

(3) Vodo. V. et al. Baltic States unscrew Rusian gas main. Komersant. 28/11/2005.

ومن زاوية أخرى تعانى روسيا عدم قدرتها على دعم الاتصال البرى والبحرى مع إقليم كالينندغراد المعزول بين دول البلطيق وبولندا خاصة مع عدم سماح بولندا بدعم الاتصال البرى وتوصيل المعدات والمؤن الروسية إلى ترسانتها العسكرية الضخمة فى إقليم كالينندغراد؛ ومن ثم تبرز أهمية ليتوانيا التى تحتفظ موسكو معها بعلاقات جيدة .

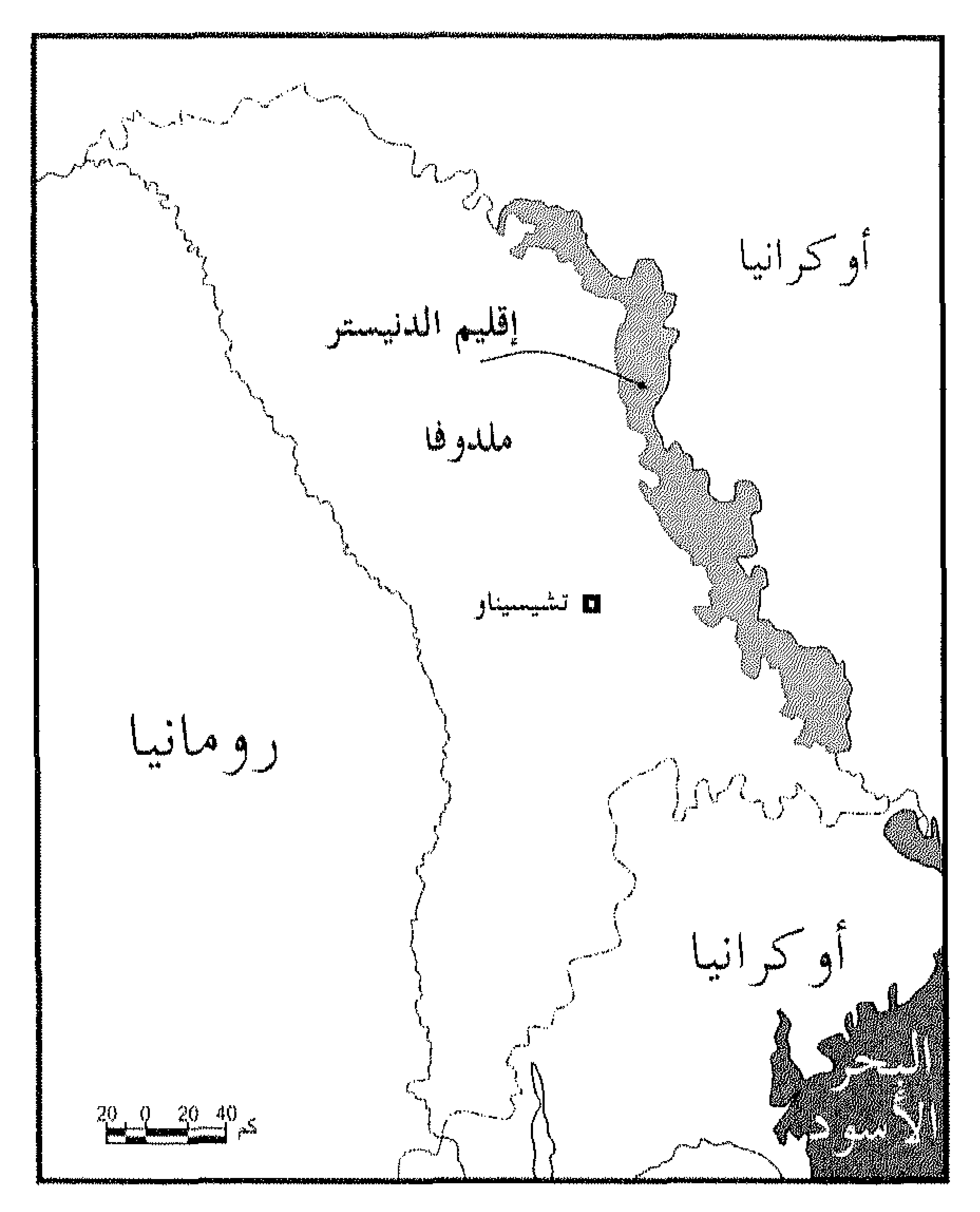
لكن مع انضمام ليتوانيا إلى حلف الناتو وتعالى الأصوات القومية التى تطالب بتوحيد كالينندغراد مع الوطن الذى انتزع منها فى العهد السوفيتى صارت المشكلة متكررة، وتواجه روسيا صعوبة فى الاتصال العسكرى والمدنى مع الإقليم الذى تحول الآن إلى جيب معزول يحيط به الناتو من كل جانب. كما تواجه روسيا مشكلة انتقال المواطنين الروس بين روسيا والإقليم الذى يضطرهم إلى الحصول على تأشيرات عبور فى دول البلطيق وبولندا.

لكن ذلك لا يقطع الاستقرار الذى حققته دول البلطيق والطريق الواضح المعالم الذى سارت فيه، متغاضية عن تفاصيل المشكلات مع روسيا وفى مقدمتها تجاوزها لخلافات متعددة حول ترسيم الحدود، ووقوع أجزاء متعددة من أراضيها داخل الأراضى الروسية منذ العهد السوفيتى. ومنهج هذه الدول فى ذلك تحويل الحدود الفعلية de facto إلى حدود دولية معترف بها قانونًا de jurue نتيجة سعى هذه الدول إلى الانضمام إلى حلف الناتو والاتحاد الأوربى وهو ما تطلب عدم وجود مشكلات معلقة مع الجيران[١].

(1) Trenin P. op cit. p 147.

ثمن الحرب الأهلية

تمثل مولدوفا بموقعها الحبيس فى خريطة شرق أوربا (شكل ٢٤) منطقة عازلة بين القوى الدولية، وتمثل دولة دفعت ثمنًا مكلفًا للتفكك المفاجئ للاتحاد السوفيتى، وتلكؤ روسيا فى إخراج قواتها من أراضيها؛ مما أوقعها فى شرك الحرب الأهلية التى راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى والمشردين.



شكل (٢٤) مولدوفا وإقليم الدنيستر

التاريخ الطويل الذى عاشه سكان مولدوفا بأصولهم الرومانية كان مليئًا بصدام القوى الكبرى فى شرق وجنوب شرق أوربا، وقد أصابها موقعها المهم على طريق التجارة بين الشرق والغرب بتكالب القوى الإقليمية عليها. فقد بدأ تاريخ الاستعمار فى مولدوفا بتوسعات روسيا «كييف»، ثم الغزو المغولى، ورغم تمتعها باستقلالية ذاتية حين ظهرت كإمارة فى العصور الوسطى فإن الدولة العثمانية أخضعتها لسيطرتها منذ القرن ١٦، إلى أن سقطت فى يد الروس فى مطلع القرن ١٩ - حين عرفت باسم بيسارابيا Bessarabia مع تمكن مملكة رومانيا من السيطرة على الأجزاء الغربية منها. ورغم نجاح مولدوفا فى نيل الاستقلال عن روسيا خلال الثورة البلشفية ، والانضمام فيما بعد إلى مملكة رومانيا، فإن ستالين قام فى عام ١٩٤٠ بضمها للاتحاد السوفيتى خلال الحرب العالمية الثانية، وتحولت فيما بعد إلى جمهورية سوفيتية حتى تفكك الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٩١[1].

وفى أعقاب تفكك الاتحاد السوفيتى زادت التوقعات بأن مولدوفا ستأخذ خيار الانضمام إلى رومانيا بسبب تنامى الروابط الثقافية بين مولدوفا ورومانيا فى السنوات الثلاث الأخيرة من عمر الاتحاد السوفيتى؛ ومن ثم فقد شكل ذلك تهديدًا لروسيا التى رأت أنها ستفقد منطقة نفوذ لصالح الغرب الأوربى عبر بوابة رومانيا.

لكن الاستفتاء الذى أُجرى فى مولدوفا فى عام ١٩٩٤ اختار الحفاظ على الاستقلال وليس الانضمام إلى رومانيا، أو تبنى اللغة الرومانية بدلا من المولدوفية. كما اختار نشيدًا وطنيًا مستقلاً،

(1) Batalden. K. & Batalden. L. ob cit. p 56-58.

وانتقلت الأحداث نقلة أخرى لصالح روسيا فى عام ٢٠٠١ حين فاز الحزب الشيوعى المدعوم من موسكو بأغلبية المقاعد البرلمانية واختير الشيوعى فلاديمير فارونين رئيسًا.

غير أن العلاقة مع روسيا ساءت بسبب مشكلة ترانس دنيستر رغم إعادة انتخاب فارونين فى عام ٢٠٠٥ بحكومة ائتلاف تتقاسم التوجهات بين روسيا والغرب، وبسبب تناقص نسبة الشيوعيين عن انتخابات ٢٠٠١ لصالح الكتلة الديموقراطية ذات التوجه الغربى وحزب الشعب المسيحى[(١)].

ولعل اعتماد الاقتصاد المولدوفى على استيراد موارد الطاقة من روسيا – وبصفة خاصة الغاز الطبيعى– يكبل من قدرات هذه الدولة على التحرر من قيود الماضى. وتعتبر قضية التحكم فى أسعار الوقود واحدة من المشكلات التى مازالت روسيا قادرة على صنعها فى مولدوفا. وقد بدت هذه القضية على جانب كبير من الأهمية منذ مطلع عام ٢٠٠٦ حين رفعت شركة غازبروم الروسية أسعار الغاز من ٥٥ دولارًا لكل ألف م٣ إلى ١١٠ دولاراتٍ لنفس الوحدة، وهو ما اعتبر حلاً وسطًا بين ما كانت تسعى إليه مولدوفا ، كأفقر دولة أوربية، وما كانت تطالب به شركة غازبروم من دفع١٦٠ دولارًا للألف م٣ [(٢)].

وعلى المستوى العرقى تعانى مولدوفا من عدة مشكلات طفت على السطح بعد تفكك السوفيتية. فالسكان ينتمون إلى الجذور

(١) صحيفة برافدا الروسية فى تقرير حمل عنوان « نتائج الانتخابات البرلمانية فى مولدوفا تدعم العلاقة مع روسيا»، بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٧.
(٢) وكالة الأنباء الروسية إيتار تاس بتاريخ ٢٠٠٦/١/١٨.

الرومانية ويعرفون بالرومان الشرقيين، وقد عانوا خلال الحكم الروسى والسوفيتى من صدام الهوية الرومانية مع الهوية السلافية وما ترتب على ذلك من صدام مع سياسة الترويس الثقافى، ومنع التعامل باللغة الرومانية، وإحلال الأبجدية السيريلية محل اللاتينية.

وتؤلف الإثنية الرومانية فى الدولة نحو ٦٥ ٪ ، بينما يؤلف السلاف ٢٧ ٪ (الروس ١٣ ٪ والأوكرانيون ١٤ ٪) ويتركزون بصفة أساسية على الضفة الشرقية من نهر الدنيستر فى أقصى شرق البلاد، بينما يمثل الغاغواز Gaguaz ذوو الجذور التركية ٤ ٪، والبلغار ٢٪[1].

وحين تهاوت القبضة السوفيتية فى نهاية الثمانينيات تشجع القوميون الأتراك فى أغسطس ١٩٩٠ بإعلان جمهورية مستقلة عن مولدوفا فى القطاعات الجنوبية الخمسة التى يتركزون فيها، أعقبها فى الشهر التالى إعلان الأغلبية السلافية فى إقليم الدنيستر فى شرق مولدوفا (والتى يشكل فيها الروس والأوكرانيون الأغلبية) الاستقلال من جانب واحد عن مولدوفا ، ونشأت معها الاضطرابات التى وصلت إلى صدام مسلح وحرب أهلية استمرت من سبتمبر ١٩٩٠ وحتى يناير ١٩٩٢ وأوقعت مئات القتلى وآلاف اللاجئين[2].

وفى الوقت الذى أمكن فيه احتواء وتطويق النزعة الانفصالية لدى الغاغواز الأتراك، أسهمت مجموعة من العوامل فى تدعيم الرغبة

(1) International Peace Research Institute.Conflicts in the OSCE area. Moldova and the Dniester Republic. Oslo. 2004. Internet Web Site of PRIO

(2) Verdery. A.Ethnic peace and war : identity politics in Estonia and Moldova. Undercurrent Journal. V II No 3. 2004. (Internet data).

الانفصالية لدى إقليم الدنيستر، وأهم هذه العوامل وجود أكثر من ١٠٠ ألف جندى روسى فى الإقليم ، وهى قوة وإن لم تشترك فعليًا فى ممارسات السعى إلى الانفصال فإنها شكلت دعما للسلافيين الساعين إلى اقتطاع جزء من مولدوفا عن الدولة.

كما أسهمت القوة الاقتصادية للإقليم بما يشمله من قاعدة صناعية، ومحطات كهرباء تغذى ثلث أراضى مولدوفا، وتحكم الإقليم فى شبكات الاتصال فى شرق البلاد، فى دعم التوجهات الانفصالية وتنامى الذرائع الثقافية والعرقية والسعى لمقاومة النزعة القومية المولدافية الساعية إلى فرض الثقافة الرومانية على الدنيستر والسكان السلافيين[1].

وقد تمكنت حركة الانفصال فى الدنيستر من إعلان جمهورية من جانب واحد؛ مما استدعى تدخل الاتحاد الأوربى وروسيا بإرسال قوات لحفظ السلام فى الإقليم. وهو ما أبقى الأوضاع متجمدة دون حل، فظل إقليم الدنيستر متمسكًا بالاستقلال وإن لم يعترف باستقلاله أى طرف حتى روسيا، وظلت مولدوفا رافضة لانفصال الإقليم دون قدرة على إعادته لسيطرتها.

لم تنج القوات الروسية العاملة لحفظ السلام هنا أيضًا من تلقى اتهامات من قبل وسائل الإعلام الغربية بأنها تلعب دورًا خفيًا فى حماية الحركة الانفصالية ولا تمارس دورًا حياديًا لحماية السلام فى الإقليم. وذلك بتمركزها على طول خط وقف إطلاق النار بطول ٢٢٠ كم بين مولدوفا وإقليم الدنيستر الانفصالى، بطريقة تبدو

(1) International Peace Research Institute. Op cit.

حفاظا على حدود الإقليم المنفصل وليس حفاظًا على خط وقف إطلاق النار[1].

ورغم سحب روسيا لقواتها من الإقليم بحسب اتفاقية إستنبول ١٩٩٩ وتقليص عدد القوات الروسية إلى ٢٥ ألف جندى روسى، ما زال الإقليم يستمد قوته الاقتصادية (بعدد سكانى يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة) من تجارة الترانزيت فى شرق أوربا، مع اتهام عديد من دول الجوار قادة الإقليم (الموالين لموسكو) بتجارة المخدرات والأسلحة والجنس وقرصنة الغاز من الأنبوب الروسى المتجه عبر أوكرانيا إلى البحر الأسود، فضلا عن اتهام قيادة الإقليم باضطهاد الأقلية الرومانية وغلق مدارسها وتعريضها لعمليات ترويس ثقافى[2].

ومع التغلغل الغربى فى شرق أوربا ودعم الثورات الملونة الساعية إلى إسقاط الحكومات المتحالفة مع موسكو، بدأت أوكرانيا الجديدة تلعب دورًا مهمًا فى الإقليم بعد توجهها الغربى منذ الثورة البرتقالية فى نهاية عام ٢٠٠٤. فقد عملت حكومة أوكرانيا برئاسة فيكتور يوشينكو إلى الضغط على إقليم الدنيستر الانفصالى لإضعاف الدور الروسى. واتخذت أوكرانيا بين عامى ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ مجموعة من التدابير لتضييق الخناق على حركته الاقتصادية، بهدف الحد من اتساع ما سماه يوشينكو «الثقب الأسود» فى الاقتصاد الأوكرانى نتيجة التجارة السوداء فى الإقليم الملاصق لغرب البلاد[3].

---

(1) Maksymiuk J. Moldova: will Dniester shooting incident mark turning point in relations between Chisinau and Tiraspol. Radio Free Europe website July 22, 2005.

(2) Global Security Organization. Transdniester. 2005. internet data.

(٣) صحيفة كومرسانت الروسية فى مقال بعنوان «لا أحد يريد أن يتراجع أمام روسيا العظمى» بتاريخ ٢٤ مايو ٢٠٠٥.

تستند أوكرانيا فى ذلك إلى تحالفات إقليمية ودولية ، من بينها عضويتها فى اتحاد «غوام» GUAM (والذى يرمز للحروف الأولى من جورجيا وأوكرانيا وأذربيجان ومولدوفا) وإمكانية تعميم القرارات التى تتخذ فى هذا الاتحاد بشأن التعاملات الاقتصادية مع الإقليم الانفصالى. مع إعلان هذا التحالف السعى لإقامة «كومنولث الخيار الديموقراطى فى فضاء ما بعد السوفيتية» [1].

لكن روسيا بوسعها أن ترد على الحصار الاقتصادى لإقليم الدنيستر بالتهديد بطرد ١٠٠,٠٠٠ عامل مولدوفى يعملون فى أراضيها ويحولون مبالغ ضخمة سنويًا إلى ذويهم، وسيؤدى طردهم من روسيا إلى إضافة أعباء جديدة على الحكومة الشيوعية الضعيفة اقتصاديًا فى مولدوفا[2].

وفى النهاية لا يبدو أن مشكلة الدنيستر ستخرج من حالتها الراهنة التى بقيت عليها منذ عام ١٩٩٢ والتى تتأرجح بين التوتر تارة والتجمد تارة أخرى ، وسيتوقف مستقبل تطورها فى المستقبل على توقف الصراع بالوكالة بين الغرب وروسيا فى هذه المنطقة.

بين فنلندا والنرويج

حين انهارت السوفيتية انكشف على السطح عديد من المشكلات التى ظلت مجمدة منذ الحرب العالمية الثانية. فقد وقعت أغلب هذه المشكلات فى فئة الحدود السياسية ، وأكثرها بين روسيا والدول

(1) Bordonaro. F. Trans- Dniester : elections, negotiations and geopolitical stakes. PINR Report. 2005. Internet data.

(2) Averko. M. Orange government punishes Trans-Dniester. Discovery Institute. March. 14. 2006. Internet data.

المستقلة ودول الجوار. وأهم هذه المشكلات توتر الحدود السياسية بين روسيا وكل من فنلندا والنرويج وبولندا، فضلا عن وقوع جزء من الأراضى الروسية معزولاً عن جسد الدولة فى جيب «كالييننغراد» على بحر البلطيق.

أكثر هذه المشكلات حذرًا ما تشهده الحدود الروسية الفنلندية. فقد خضعت فنلندا لسيادة روسية اسمية فيما بين عامى ١٨٠٩ و١٩١٧، واعترفت باستقلالها الحكومة الشيوعية، لكن مع الغزو الألمانى لشرق أوربا، قامت القوات السوفيتية فيما عرف بالحرب الشتوية بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ باجتياح شرق فنلندا واستولت على إقليم «كاريليا Karelia ».

وحين تحالفت فنلندا مع ألمانيا لاستعادة الإقليم المفقود نشبت الحرب السوفيتية- الفنلندية الثانية بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٤ والتى انتهت بإحكام السوفيت القبضة على كاريليا. وفى فترة الحرب الباردة انتظمت العلاقة بين الاتحاد السوفيتى وفنلندا من خلال معاهدة عام ١٩٤٨ التى اشترطت على فنلندا عدم التحالف العسكرى مع أى قوى أوربية فى مقابل ضمان الاتحاد السوفيتى سلامة أراضيها من تهديد خارجى، وهو ما جعل فنلندا أقرب لـ «محمية سوفيتية» ودولة عازلة بينه وبين حلف الناتو.

وبعد تفكك السوفيتية لم تتجاوز مطالبة فنلندا باستعادة كاريليا تصريحات بعض السياسيين ونشطاء بعض المنظمات المحلية مثل «اتحاد كاريليا». ومع انضمام فنلندا إلى الاتحاد الأوربى فى عام ١٩٩٥ تحولت الحدود بين فنلندا وروسيا إلى حدود شبه مغلقة وتناقص التبادل التجارى إلى أدنى حد. وهو

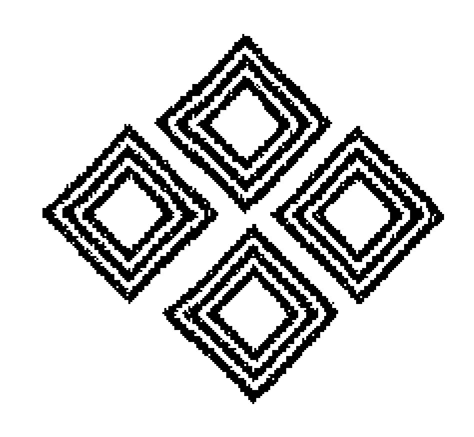
ما اعتبر الرد الفنلندى الاقتصادى على عدم إعادة الروس للإقليم؛ مما صنع حاجزًا تجاريًا وخطًا «عازلاً» بين روسيا والاتحاد الأوربى على الجبهة الفنلندية[1].

من زاوية أخرى تشهد الحدود البحرية بين روسيا والنرويج قلقًا من نوع آخر. فقد غزت القوات السوفيتية شمال النرويج فى عام ١٩٤٥ لفترة قصيرة؛ مما شجعها على الانضمام مبكرًا لحلف الناتو. وبينما راعت النرويج عدم تسخين الأجواء خلال فترة الحرب الباردة، صارت منذ سقوط السوفيتية ميدانًا حيويًا لأنشطة القوات الأمريكية وحلفاء الناتو وبصفة خاصة فى المنطقة القطبية الغنية بالنفط لا سيما فى منطقة بحر بارانتس، وهى منطقة يقدر أنها تحوى ٩٠ بليون برميل من النفط؛ مما يجعلها قريبة من قدرات نفط سيبيريا الغربية.

وقد تكرر فى السنوات الأخيرة إعلان مجلس الأمن القومى الروسى تحذيره من تزايد النشاط الاقتصادى الغربى (النرويج والولايات المتحدة وألمانيا) فى منطقة الرصيف القارى القطبى التى تتزايد التقديرات باحتمال احتوائها على ثروات ضخمة من خامات الفحم والنفط والغاز. ويعود جزء كبير من التوتر بين الجانبين إلى أن روسيا لم تعلن منذ سقوط السوفيتية عن موقفها بشأن تطبيق قانون البحار الدولى على منطقة القطب الشمالى الذى يسمح لها بحدود ٢٠٠ ميل فقط أمام سواحلها الشمالية، وترك ما خارج ذلك كمناطق مفتوحة للاستخدام الدولى ، وهى منطقة تبلغ مساحتها ١,٧ مليون كم٢[2].

(1) Trenin. Op cit. P.138.
(2) Trenin. Ibid. p 141.

هكذا بدت الأوضاع فى أوربا الشرقية شديدة التعقيد، رغم الصورة البسيطة والأوضاع الهادئة التى تبدو فوق السطح. وتزداد درجة إدراكنا لتفاصيل الصورة ومشكلات ما تحت السطح كلما تعرضنا لمزيد من التفاصيل عند المستويات الأيديولوجية والاقتصادية والسياسية. وليس فى آخر القائمة ميراث التاريخ الذى مازال يسيطر على جزء مهم من مجريات الأحداث، ويلقى بظلاله على المستقبل.



الفصل الخامس
عند تقاطع الطرق

«فـى زمـن الشيـوعـيـة كـان العـالـم يـخشـانـا.. لـكن لسبب مـا قررنـا قبل عشر سنين استبدال الخوف بالصداقة. علينا إذن أن نـتـخـلـص مـن الـطـمـوحـات الإمبريالية إلى غير رجعة، لكن ذلك لا يعنى أن يغلوا أيدينا عن أمننـا القومى الذى لن نتردد فى القتال دفـاعًا عنـه».

فلاديمير بوتين (٢٠٠١)

تمثل أذربيجان كبرى دول قزوين امتلاكا للثروة النفطية، بينما تكمن أهمية الدولتين الأخريين فى فعالية الموقع الجغرافى لنقل النفط والغاز إلى تركيا وجنوب أوربا. وتصل تقديرات الاحتياطى النفطى فى أذربيجان إلى ٣٠ بليون برميل. وكانت من أولى دول العالم التى بدأ فيها ضخ النفط فى مطلع القرن العشرين، ووصل إنتاج النفط بها خلال الحرب العالمية الثانية إلى نصف مليون برميل يوميًّا. وقد تطور الإنتاج الأذرى من ٢٥٩ ألف برميل يوميًا عام ١٩٩١ إلى ٣٢٠ ألف برميل عام ٢٠٠٥، وتعقد الآمال لأن يصل الإنتاج إلى مليون برميل فى عام ٢٠١٠، وتصدر أذربيجان نحو ٦٠٪ من إجمالى إنتاجها[1].

ويشير تاريخ الاستثمار النفطى فى أذربيجان إلى حصول الشركات الأمريكية (مثل رامكو، أموكو، يونيكال، بترأويل، وإيكسون) على نحو ٤٠ ٪ من أسهم التنقيب مقابل ٢٥ ٪ لشركات بريطانية ونرويجية و١٠ ٪ لشركة «لوك أويل» الروسية، والباقى لشركات يابانية وإيطالية وتركية ووطنية، وإن كان كثير من هذه الشركات قد صفَّى أعماله فى أذربيجان منذ عام ٢٠٠٠ مع الصعوبات الكبيرة التى اكتنفت عمليات التنقيب فى ظل اكتشاف الخامات على أعماق بعيدة من مياه بحر قزوين[2].

وتمثل الخامات الأذربيجانية واحدة من أربعة أحواض ترسيب للهيدروكربون فى بحر قزوين، ويتفاوت احتياطى قزوين المؤكد من

(1) US Energy Information Administration. Azerbaijan Country Analysis Brief. 2005. (Internet data).

(٢) جادجييف، مرجع سابق، ص ٤١٢.

تتفق المناطق الأربع التى تفككت عن السوفيتية في مشتركات تجمعها، بينما تقف عقبات أخرى فى طريق تآلفها وتكاملها. فالقضايا الأمنية، ومحاربة التطرف، ومواجهة النزاعات العرقية والحركات الانفصالية تعتبر الملفات التى تتفق كافة الدول الخمس عشرة على ضرورة الجلوس على طاولة واحدة لمناقشتها، والتعاون فيما بينها للوصول إلى أفضل سبل معالجتها بينما تفترق هذه الدول أمام سبل اقتسام الثروة النفطية، كما تفترق أمام التحالفات الأجنبية التى اندست بين دول الإقليم. والفصل الحالى يلقى بعضا من الضوء على ما يجمع وما يفرق بين دول الميراث السوفيتى.

قزوين وطريق الحرير[1]

تمثل منطقة بحر قزوين أهم الرقع الجغرافية التى ثار بشأنها جدل واسع منذ العام ١٩٩١ ، بين مبالغ فى قدراتها على تأمين الطاقة العالميَّة وبسعر متدنٍ يصل إلى عشرة دولارات، ومهونٍ من مكانتها معتبرًا أن مرور ١٥ سنة دون تحولها إلى خليج عربى جديد – كما تفاءل البعض– ليس إلا دليلاً على تواضع مكانتها فى خريطة النفط العالمية.

وتزداد الأوراق اختلاطًا حينما تزدحم الخريطة بقوى دولية وإقليمية متنافسة للسيطرة على المنطقة، ليس فقط من قبل روسيا والصين وتركيا وإيران بميراث تاريخىٍّ وجغرافىٍّ أصيلٍ، بل بولوج الولايات المتحدة وإسرائيل بتطلعات وافدة طامعة فى الإقليم وفى موارده.

وفى خضم ذلك التنافس تموج المنطقة بحركات إسلامية مسلحة لا تشتبك مشروعاتها مع مطامع السيطرة الخارجية فحسب، بل

(١) بُنى جزء من هذا الموضوع على دراسة للمؤلف نُشرت فى دورية «السياسة الدولية»، عدد إبريل ٢٠٠٦ بعنوان «أبعاد الصراع على نفط آسيا الوسطى وبحر قزوين».

تتصادم مع النظم الحاكمة فى صراعات دامية أوصلتها فى بعض الفترات إلى كارثة الحرب الأهلية، وإذا أردنا اختزال خريطة المنطقة فى ظل التنافس السياسى والعسكرى والاقتصادى فبوسعنا رؤيتها «جزيرة من الثروة يحيطها بحر من الأيديولوجيا».

يبلغ امتداد بحر قزوين من الشمال للجنوب نحو ١٢٠٠ كم وتبلغ مساحته نحو ٣٧٠,٠٠٠ كم٢، ومنسوب مياهه - ٢٨ مترًا وتصل أعماقه إلى أكثر من ألفى متر، ومنذ عشرينيات القرن الماضى وحتى ١٩٧٠ اعتبر بحر قزوين بحرًا سوفيتيًا - إيرانيًا خالصًا، ومع مطلع السبعينيات تم تقسيم بحر قزوين إلى قطاعات تخص كل جمهورية من الجمهوريات السوفيتية المطلة عليه والتى صارت تشكل دول آسيا الوسطى وأذربيجان بعد تفكك الاتحاد السوفيتى[١].

ويتفاوت احتياطى قزوين المؤكد من النفط بين ٢٠ و ٤٤ بليون برميل، بينما يبلغ احتياطى الغاز ٢٥٠ تريليون قدم مكعب، كما تحظى كازاخستان بأكبر احتياطى مؤكد للنفط بكمية تتراوح بين ١٠و ٣٠ تريليون برميل، و يبلغ إنتاجها ١,٢ مليون برميل فى اليوم، ولا تستهلك من هذا الإنتاج سوى ١٥٪ [٢].

ومن بين دول آسيا الوسطى الخمس -كازاخستان وقرغيزيا وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان- تشاطئ كازاخستان وتركمانستان الأحواض الترسيبية الكبرى على الساحل الشرقى لبحر قزوين، بينما تمثل بقية الدول -التى لا تمتلك حقولاً نفطيَّة ثريَّة- أهمية من نوع آخر تكمن فى موقعها الاستراتيجى لنقل النفط والغاز من هاتين الدولتين إلى أسواق شرق وجنوب آسيا.

---

(1) Sievers. W. op cit. p 42.

(2) US Energy Information Administration. Caspian Sea Analysis Brief.2005 .

النفط بين ٢٠ و ٤٤ بليون برميل، بينما يبلغ احتياطى الغاز ٢٥٠ تريليون قدم مكعب. وعلى الجانب الآخر من بحر قزوين تحظى كازاخستان بأكبر احتياطى مؤكد للنفط بكمية تتراوح بين ١٠و ٣٠ تريليون برميل، و يبلغ إنتاجها ١,٢ مليون برميل فى اليوم، ولا تستهلك من هذا الإنتاج سوى ١٥٪، أما تركمانستان فرغم إنتاجها الأقل نسبيا فى النفط (٣٠٠ ألف برميل يوميا) فإنها صاحبة الإنتاج الأكبر فى الغاز الطبيعى حيث تصل كمية إنتاجها السنوى إلى أكثر من ٢ تريليون قدم مكعب، ويتوقع أن يصل فى ٢٠١٠ إلى ٤ تريليون قدم مكعب[1].

وتعد هذه الدول المصادر الموعودة لسوق أوربا الشرقية والجنوبية والوسطى وكذلك لكل من تركيا والصين والهند، وهو ما يجعل تصدير النفط والغاز من منطقة وسط آسيا والقوقاز محط تنافسات بين الدول القادرة على مد شبكات الأنابيب عبر أراضيها إلى السوق العالمية عبر شبكة متنوعة من الأنابيب.

لكن أهم الخطوط التى تلقى دعمًا من الولايات المتحدة ذلك الأنبوب الذى يمر من العاصمة الأذرية باكو إلى العاصمة الجورجية تبليسى وصولا إلى الميناء التركى جيهان على البحر المتوسط، ومنه إلى السوق العالمية. وسيبدأ الضخ الفعلى عبر هذا الخط فى نهاية عام ٢٠٠٦.

ويمثل تدشين الأنبوب النفطى باكو – تبليسى – جيهان تحديًا لصعاب كثيرة أهمها ارتفاع تكلفة مد الأنبوب فى الأراضى الجبلية،

(1) US Energy Information Administration. Caspian Sea Regional Statistics. 2005. (Internet data).

وهو ما يتطلب الحفاظ على تقنية ضخ البترول فى الأنابيب بالدفع المستمر عبر ٨ محطات للضخ فى الدول الثلاث مما يجعل كل كيلومتر من هذا الخط أكثر تكلفة عدة مرات من باقى أنابيب النفط المتوافرة فى الأراضى الروسية أو الإيرانية، وإذا نجح تشغيل الخط فستكون نهاية مبكرة للتنافس لصالح تركيا والدول الحليفة للولايات المتحدة فى ممر النفط بين البحر الأسود وبحر قزوين[١].

وتتبين أهمية ذلك الخط إذا عرفنا أن المشرف على المشروع إلى جانب وزارة الطاقة القيادة العليا للقوات المسلحة، وهو ما يجعل خط باكو-تبليسى-جيهان خطًا استراتيجيًا وليس مجرد أنبوب للنفط [٢]. ولقد ثارت مخاوف عديدة فى السنوات الماضية حول تأثير النزاعات العرقية على أمن الخط وبصفة خاصة بسبب الصدامات بين الجيش التركى وحزب العمال الكردستانى الساعى إلى إقامة دولة كردستان فى جنوب شرق تركيا [٣].

وبينما يبدو من مصلحة روسيا أن ينشط حزب العمال الكردستانى فى منطقة خط الأنابيب باكو - جيهان ويهدد مستقبل الخط، يبدو فى المقابل من مصلحة تركيا استمرار المشكلة الشيشانية لتعطيل نقل النفط القزوينى عبر القوقاز الشمالى، كما تشير بعض الخلافات التى وقعت بين تركيا وإيران من ناحية وبين تركيا

(1) Kulklin. I. Security issues in the Blak Sea - Caspian Region. Russian Social Science Review. Vol 44, no 2. 2003. p38

(2) Tayfur. M. & Goymen. K. Decision making in Turkish foreign policy: The Caspian oil pipeline issue. Middle East Studies, vol. 38, no 2. 2002. p 103.

(3) Karagiannis. E. op cit. p 95.

وسوريا من ناحية ثانية إلى اتهام تركيا هاتين الدولتين بدعم حزب العمال الكردستاني وما لذلك من أثر على إمكانية تهديد أمن خطوط الأنابيب والغاز المارة بشرق تركيا(1).

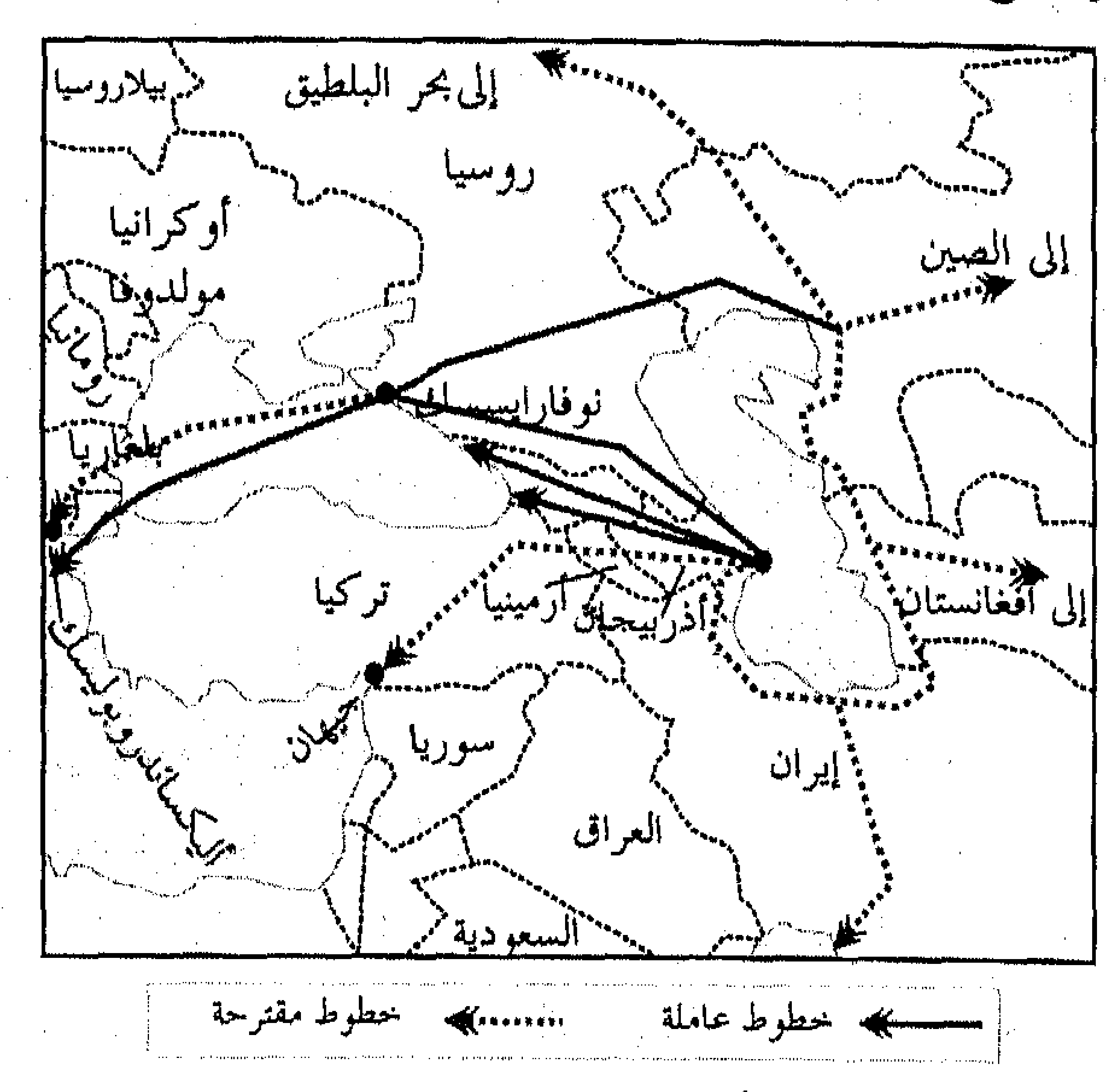
وتبلغ تكلفة مشروع باكو - تبليسى -جيهان ثلاثة مليارات دولار فى مراحله الأولى، وهى ليست سوى جزء من تكلفة إجمالية تبلغ ١٢ مليار دولار، وذلك حينما يصل المشروع إلى اكتماله بنقل مليون برميل يوميًا بحلول عام ٢٠٠٩م. ويبلغ طول الخط ١٧٦٠ كم، ويمتد على مسافة عرضية تبلغ ٤٤ مترًا تبدأ مكشوفة أثناء الحفر، ثم تختفى تحت الأرض كأنبوب مغطى فى أغلب قطاعات الخط(2).

وبالإضافة إلى ذلك الخط الرئيسى هناك مجموعة من الخطوط الفرعية (شكل ٢٥) أهمها خط باكو–نوفارايسيسك والذى عطلت حرب الشيشان من طاقته، وخط نوفارايسيسك –بورجس– أليكساندربوليسك الذى يهدف إلى تطويق البسفور والدردنيل ومن ثم التخلص من القيود التى تفرضها تركيا على مرور ناقلات البترول الكبرى، واستبدال ذلك بتصدير البترول من الميناء الروسى نوفارايسيسك بالناقلات عبر البحر الأسود إلى ميناء بورجس البلغارى، ثم من هناك يضخ فى أنابيب عبر الأراضى اليونانية إلى ميناء أليكساندربوليسك. وتؤكد كل من روسيا وبلغاريا واليونان أن

(1) Kemp. G. Iranian relations: Competition or cooperation in the Caspian Sea basin. In Ebel.R & Menon.R (eds) Energy and Conflict in Central Asia and the Caucasus. Oxford. NBR.. 2000. P 151.

(2) Brooking Institute. Baku -Tbilisi-Ceyhan roundtable Event Summary March. 2004. (Internet data) .

هذا الخط سيقلل من تكلفة نقل البترول بنحو ١٠ مرات مقارنة بنقله عبر الأراضي التركية[١].



شكل (٢٥) خطوط الأنابيب العاملة والمقترحة حول بحر قزوين

وإلى ما سبق يضاف خط باكو - سوبسا بين أذربيجان وجورجيا، وخط باكو - تبريز فى إيران وهو خط أقصر طولاً وأقل تكلفة، لكن فرصة إيران ضعيفة بسبب موقفها المتأزم مع الولايات المتحدة وبصفة خاصة بسبب برنامجها النووى المرفوض غربيًا. كما أن خط كازاخستان -أفغانستان- باكستان[٢] مازال مقترحًا ولم يترجم إلى

(1) Becker. A. Russia and Caspian oul: Moscow loses control. Post-Soviet Affairs. Vol 16 no 2 p. 2000. 113.

(2) Peimani. H. The Caspian pipeline dilemma. London. Praeger. 2001. p74.

خطوات فعلية بسبب الأوضاع المتوترة فى أفغانستان رغم الخطط التى كانت جاهزة للتنفيذ قبل الغزو وإسقاط حكم طالبان[1].

وهناك محاولات صينية لإقامة خطوط أنابيب تنقل نفط قزوين عبر دول آسيا الوسطى إلى أراضيها ومحاولات روسية لسحب نفط قزوين عبر شبكة الأنابيب الروسية التى تنقل نفط سيبيريا إلى السوق الأوربية.

وهناك عدة عقبات تحول دون وصول النفط القزوينى بقدراته الاحتياطية الكبرى إلى السوق الدولية، أهمها عدم تمكن الدول الخمس المشاطئة لبحر قزوين من الوصول إلى اتفاق حول الإطار القانونى لاستغلال وتنمية مخزون قزوين من النفط والغاز بسبب اختلاف تحديد كل دولة لهوية بحر قزوين، فإذا اعتبر قزوين بحرًا دوليًّا ستُعين الحدود البحرية للدول الخمس المطلة عليه وفقا لقطاعات قومية. وإذا ما وافقت الدول على استغلاله «جماعيا» فلابد من اللجوء إلى لجنة مشتركة تراعى مصالح الدول معًا تحت عنوان «بحر واحد وقاع مقسم»، وهو ما زال حلمًا بعيدًا إلى الآن[2].

وحلت محل هذا الاتفاق المعاهدات الثنائية بين الدول بعيدًا عن موقف مشترك، وهو ما يعطل الاستغلال الأمثل للثروة. وتعتبر إيران أكثر الخاسرين نتيجة إصرارها على ضرورة تقسيم موارد بحر قزوين بالتساوى، باعتبار أن لها الحق فى الحصول على ٢٠٪ من ثروة هذا البحر استنادا إلى الاتفاقات التى أبرمتها مع الجانب

(1) Jalalzai. M. The pipeline war in Afghanistan : oil, gas and the new energy great game in Central Asia. Lahore. Sang-E-Meel Publ..2003. P 25

(2) Becker.A (2000) ob cit p97.

السوفيتى فى العامين ١٩٢١ و١٩٤٠، وقد وصل تصلب الموقف الإيرانى إلى درجة دفعت العلاقات الإيرانية الأذربيجانية إلى حافة التلويح بالحرب[١].

ومن العقبات التى تشعل منطقة القوقاز وتهدد مسارات خطوط الأنابيب تزايد النزاعات العرقية على طول مسارات نقل النفط والغاز وحول حقول البترول الرئيسية، وأهمها المشكلة الشيشانية ومشكلة ناغورنو كاراباخ والاضطرابات السياسية فى جورجيا، فضلاً عن وجود قواعد عسكرية لدول أجنبية ، كوجود القوات الروسية فى جورجيا فى كل من قاعدة أخالاكالاكى الواقعة فى أهم مدن الأقلية الأرمينية، وفى قاعدة باتومى فى أهم مدن الأقلية الأدجارية، كما كانت قاعدة جوداتى كذلك فى أبخازيا قبل الإخلاء مركزًا عسكريًا مهمًا لروسيا على البحر الأسود، وهناك قوات روسية تحت أسماء مختلفة فى أوسيتيا الجنوبية على الحدود مع الشيشان[٢].

كما تشترك القوات الروسية ضمن القوات الأجنبية فى جورجيا تحت مسمى قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ومنظمة الأمن والتعاون الأوربى وكومنولث الدول المستقلة. وتعمل هذه القوات للفصل بين الأطراف التى تحاربت خلال عقد التسعينيات وحماية اللاجئين فى أوسيتيا الجنوبية ولمراقبة وقف إطلاق النار فى أبخازيا[٣]. و فى أرمينيا يستند الوجود العسكرى الروسى إلى اتفاقية

(١)جادجييف، مرجع سابق، ص ٣٨٠.

(2) Croissant. M. Georgia: Bridge or Barrier for Caspian oil. In Croissant.M & Aras.B (eds) op cit. p 279

(3) Karagiannis. E. op cit. p 74-80.

مارس/ آذار ١٩٩٥ الموقعة بين الطرفين لإبقاء القوات الروسية على الأراضى الأرمينية لحماية حدودها مع تركيا، ويسرى مفعول هذه الاتفاقية حتى العام ٢٠٢٠.[١]

من جانبها أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى جورجيا فى نهاية فبراير ٢٠٠٢ بهدف تتبع الفارين من أفغانستان. والرقم الذى أعلنته الصحافة الأمريكية آنذاك للقوات الأمريكية فى جورجيا يتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ خبير عسكرى. وقد كشفت مصادر صحافية روسية فى عام ٢٠٠٣ عن وجود كتيبة بحرية جورجية فى قاعدة "كوماندوز" فى ميناء بوتى تتلقى تدريبات منتظمة من قبل خبراء من البنتاغون.

وتنظر روسيا إلى نفط قزوين من زاويتين متناقضتين، فهى وإن بدت حريصة على أن تستثمر شركاتها فى الحقول الواعدة فى تلك المنطقة، يقلقها ازدياد الاستثمار الغربى والصينى فى الإقليم بما يسرع من خطي التصدير فيمنح تلك الدول استقلالية أكبر عن نفوذها وقربًا أكثر من الغرب.

وبالنسبة لأوكرانيا يمثل نفط قزوين مخرجًا حيويًا للفكاك من احتكار روسيا لتوريد الغاز والنفط، فقد اتفق الرئيسان الأوكرانى والجورجى فى فبراير من العام ٢٠٠٥، على استعداد بلديهما لتوظيف شبكة أنابيب النفط والغاز التى تمر فى أراضى الدولتين بما يسمح بضخ نفط وغاز تركمانستان عبر البحر الأسود إلى جورجيا وأوكرانيا – وفى بعض الخطط الطموح من العراق عبر

---

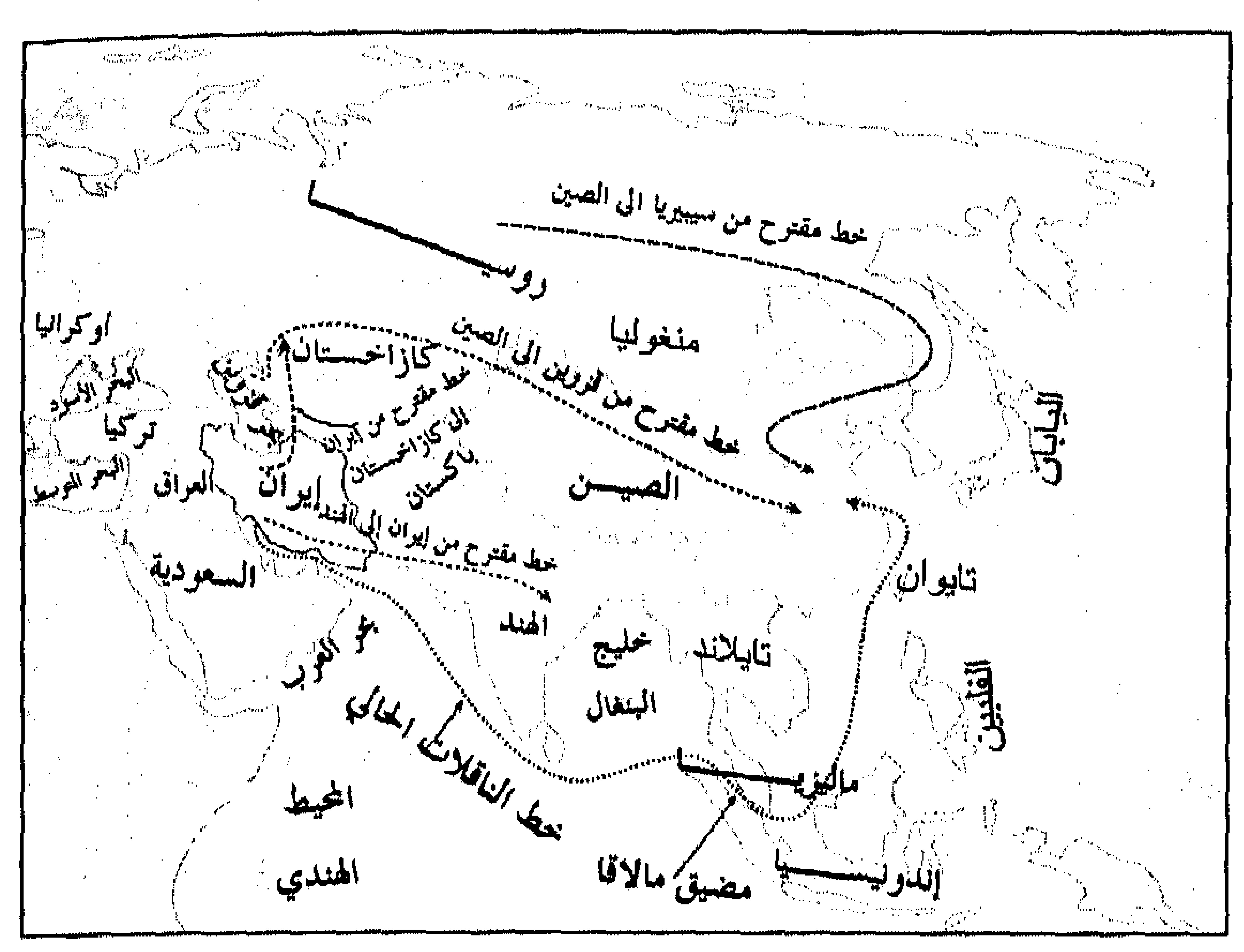
(١) لمزيد من التفاصيل انظر عاطف عبد الحميد، التنافس الروسي الأميركي في جورجيا.، إعادة رسم الخريطة، دراسة بصفحة قضايا وتحليلات، الجزيرة نت، ٢٠٠٣.

تركيا إلى أوكرانيا – ليصل فى النهاية إلى السوق الأوربية من دون الحاجة للنفط أو الغاز من روسيا.

ولا تفعل جورجيا وأوكرانيا ذلك بقرارات مستقلة، فبحسب صحيفة «كييف بوست» استشارت أوكرانيا واشنطن فى صيف ٢٠٠٤ حول إعادة تشغيل أنبوب نفط روسى قديم ينتهى فى أوديسا على البحر الأسود. لكن واشنطن نصحت كييف بعدم تشغيل الخط المذكور لأن ذلك سيزيد اعتمادها على روسيا وسيمنح الأخيرة نفوذًا أقوى، ولم يخل الأمر من مبررات بيئية حين أكدت الولايات المتحدة أن ذلك الخط سيضر بالبيئة البحرية فى البحر الأسود وبصفة خاصة فى مضيق البوسفور.

من جانبها تسعى الصين إلى تنويع اعتمادها على مناطق بديلة للشرق الأوسط فى كل من سيبيريا الروسية، وكازاخستان، وهو ما يجعل نفط آسيا الوسطى وقزوين أحد أهم المصادر التى تعول عليها بكين لتغذية صناعاتها الشرهة، ولقد نجحت الصين فى تثبيت أقدامها على مشارف بحر قزوين حينما استثمرت فى ثلاثة حقول رئيسية فى غربى كازاخستان، ووقّعت عدة اتفاقات مع كازاخستان لمد خط أنابيب ينقل النفط من قزوين إلى إقليم شينغيانغ فى غربى الصين ومنه إلى شنغهاى فى شرقى البلاد، ولأن هذا المشروع يحتاج إلى عشرة مليارات دولار لإتمامه، فإن شركة النفط الصينية (CNPC) أبدت استعدادًا لإشراك مستثمرين أوربيين، كما أنها بدأت بالفعل فى التنقيب عن النفط فى أوزبكستان[1] (شكل ٢٦) .

(1) US Energy Information Administration. China Country Analysis Brief.2005.(Internet data).



شكل (٢٦) مسارات نقل النفط والغاز إلى الصين

ويمثل التحدى الأكبر للصين فى آسيا الوسطى فى الحضور المتنامى لشركات النفط الأمريكية، الذى يجعل الصراع على النفط فى حقيقته حربًا على الأنابيب بين دولة تريد توجيه النفط شرقًا وأخرى تريد تحويله إلى الغرب، وهاتان الدولتان - الولايات المتحدة والصين- هما أكبر المستهلكين للنفط فى عالم اليوم. [١]

من جانبها اقتربت إسرائيل من خط باكو جيهان عبر البوابة العسكرية، إذ تعد اتفاقية التعاون العسكرى الموقعة بين إسرائيل وتركيا فى ٢٣ فبراير عام ١٩٩٦م التتويج الرسمى للتوصية الأمريكية بقيام تحالف إسرائيلى تركى لمواجهة التحالف الروسى الإيرانى السورى، وتزداد أهمية الشراكة التركية الإسرائيلية حول نفط

(1) Kleveman, L. The New Great Game: Blood and Oil in Central Asia. New York..Atlantic Monthly Press. 2004. P 114-115.

قزوين بتحول إسرائيل من استهلاك النفط إلى الغاز، وبالتالى الاستفادة من أنابيب الغاز التى تمر بتركيا آتية من روسيا. وبعد انضمام تركمانستان إلى مشروع باكو -تبليسى- جيهان فى شهر مايو ٢٠٠٥، فإنها قد تكون المرشحة الأولى لنقل الغاز إلى تركيا ومنها إلى إسرائيل بدلاً من استيراده من روسيا.

كما تؤكد بعض الدراسات وجود علاقة نفطية بين إسرائيل وتركمانستان، تجسدها شركة نفطية تعرف باسم مجموعة ميرهاف Merhav group وهى المسئولة عن تطوير شبكات الغاز الطبيعى بالأراضى التركمانية، ولديها خطة لإقامة مصفاة للنفط فى مدينة تركمانباشى على بحر قزوين، وتعمل ميرهاف على كسب السباق مع روسيا للوصول إلى تغطية السوق التركية بحاجته المتزايدة ومن هناك إلى السوق الإسرائيلية، وهى مسئولة فى ذات الوقت عن تأمين خط الأنابيب باكو- جيهان فى كل من الأراضى الأذرية والجورجية وجزء كبير من الأراضى التركية [1].

وإلى جانب التنافس على النفط فإن الأمل معقود لنهضة الدول المحيطة ببحر قزوين عبر مشروع إحياء طريق الحرير، الذى كان طريق التجارة الأشهر قبل ٥٠٠ سنة وامتد بطول ١٧ ألف كم من سواحل الصين إلى قلب أوربا حاملاً سلعًا ومنتجات كان الحرير أهمها، وكانت آسيا الوسطى المحطات الرئيسية على الطريق.

بدأت قضية إحياء الطريق مع تحذير الاقتصاديين العالميين من الركود الاقتصادى العالمى، وإن إنعاش هذا الاقتصاد لن يتأتى إلا

(1) Bollyn. C. The Great Game - The war for Caspian oil and gas. American free press.net.

بالبحث عن كافة السبل لتفعيل الترابط التجارى ودفع حركة التجارة عبر إقامة الجسر البرى الأوراسى[1] . Eurasian Landbridge

ولا يهدف طريق الحرير الجديد إلى إنشاء شبكات جديدة من السكك الحديدية والطرق البرية بل إلى ربط ما هو قائم منها مع بعضه البعض فى شبكة قارية واحدة. ويزيد من أهمية هذا الاقتراح إمكانية الاستفادة من فكرة « مثلث الإنتاج Productive Triangle» والتى صاغها لاروش فى ١٩٨٩ بأضلاعه الممتدة بين باريس وبرلين وفيينا ومد أذرع إلى موسكو وسان بطرسبرغ فى الشمال وكييف فى الوسط والبلقان والبحر الأسود فى الجنوب ومنها إلى القوقاز وآسيا الوسطى.

وسواء فى الصين أو فى روسيا أو فى دول آسيا الوسطى والقوقاز فقد صارت المناقشة العلمية لا تدور حول خطوط من السكك الحديدية أو الطرق البرية أو أنابيب النقل فحسب بل ارتقى النقاش إلى مستوى الجسور التنموية Corridors of Economic Development التى تؤكد أن الجسر الأوراسى لا يهدف إلى مجرد «نقل السلع والبضائع» بل إلى تنمية الأقاليم والدول التى سيمر بها فى آسيا وأوربا.

---

(١) انظر، على سبيل المثال، المقال المطول الذى شارك به لاروش فى السيمنار الاقتصادى الدولى الذى عقد فى نيودلهى فى ديسمبر ٢٠٠١ والذى حمل عنوان :
The World In Crisis Needs New Monetary System .
وتوجد نسخة من هذا المقال الثرى بالمعلومات على شبكة الإنترنت على العنوان التالى:
http://www.larouchepub.com/lar/2001/2849new_dehli_htmlsem.

وتبنى فكرة الممرات التنموية [1] على وجود نطاق أرضى يتراوح اتساعه بين ١٠٠ إلى ١٥٠ كم وفى وسط هذا النطاق خط رئيسى للسكك الحديدية فائقة السرعة. وعلى جانبى هذا الخط أنابيب نفط وغاز، وقد يتفق هذا مع وجود قنوات نقل مائى كالأنهار أو القنوات الاصطناعية ، ثم بالتوازى خطوط اتصالات عالية الجودة والتى تستخدم فيها تكنولوجيا الخلايا الضوئية.

ويرى الروس أنه فى الإمكان تفعيل شبكات البنية الموجودة بالفعل من خلال الاستثمار فى الخطوط الحديدية العابرة لسيبيريا، لكن من شأن ذلك تفويت الفرصة على التنمية الأوراسية الجنوبية[2].

فإضافةً إلى مرور الخط فى بيئة سيبيريا التى تتجمد مواردها المائية فى فصل الشتاء فإن هذا الخط يقع بأسره داخل الأراضى الروسية وهو ما سيحقق مزيدًا من المزايا لروسيا ومن ثم لا يدعمه الغرب الذى يسعى إلى إشراك دول آسيا الوسطى والقوقاز فى المشروع لتكوين المعابر الأرضية لنقل النفط والغاز القزوينى ضمن «حزمة» السلع على طريق الحرير الجديد.

---

(١) راجع في ذلك تقرير دورية Executive Intelligence Review العدد الثاني ، نوفمبر ٢٠٠١ بعنوان :

Eurasian Land-Bridge: Build Our Way Out of the World Depression http://www.larouchepub.com/other/2001/2842jbt_lbdge_intro.html

(٢) انظر فى ذلك المقال المتميز الذى كتبه أناتولى بارانوف فى ٢١ أكتوبر ٢٠٠١ فى جريدة «برافدا» الروسية والذى حمل عنوان «حرب القرن الحادى والعشرين من أجل طريق الحرير الجديد» وفيه يفند – على أسس سياسية أكثر منها صحافية– الجهود التى تبذلها الولايات المتحدة وبعض دول أوربا لتطويق روسيا وبناء النظام الأمريكى–البريطانى فى آسيا على حساب تقليص مكانة روسيا الجيولوليتيكية، وأن الدعوة لبناء طريق الحرير الجديد هى تعطيل للطرق الروسية الموجودة أصلاً وعلى رأسها خط السكك الحديدية العابرة لسيبريا Trans-Siberian.

ومن المشروعات الهامة التى تشبه طريق الحرير مشروع الترانسيسا TRANSECA الذى وعد به الاتحاد الأوربى دول آسيا الوسطى والقوقاز لإنشاء ممر مواصلاتى من غرب أوربا إلى البحر الأسود وعبر القوقاز إلى بحر قزوين ومنه إلى دول آسيا الوسطى.

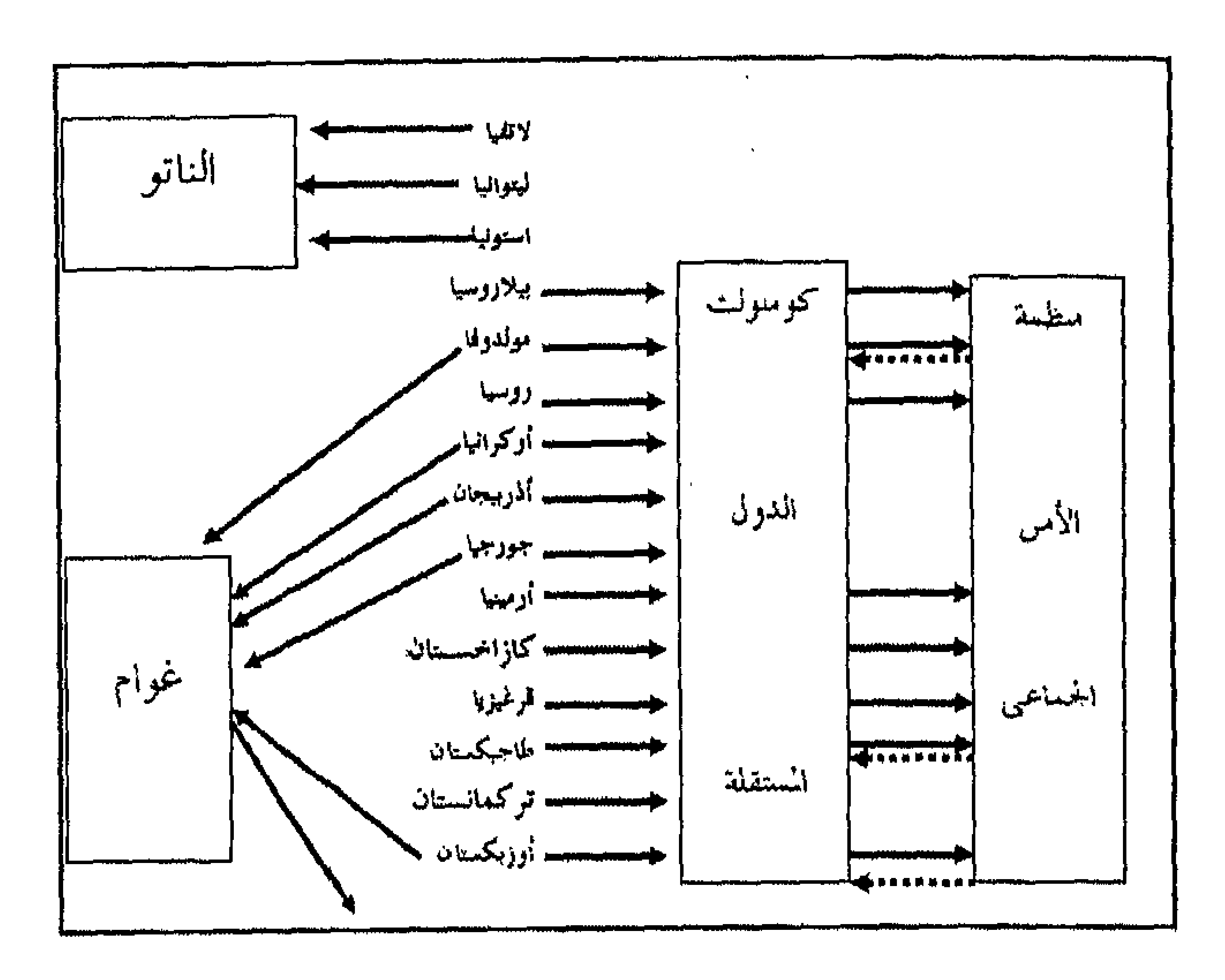
وربما لا يكون مشروع إحياء طريق الحرير فى الوقت الحاضر محفزًا قويًا لتنمية الإقليم بقدر ما هو محفز «كامن» سرعان ما سيتطور إلى درجة أعلى بتطور الأوضاع الاقتصادية فى شرق أوربا وآسيا الوسطى والقوقاز حين تتجاوز هذه الدول فترة "الحضانة" التى تعد ضرورية للغاية لاجتياز مضاعفات الفترة الانتقالية للاستقلال .

تنافس المنظمات الإقليمية

حاولت الدول المتفككة عن الاتحاد السوفيتى الاندماج فى تنظيمات إقليمية تحافظ على ما بينها من عناصر مشتركة وأهداف متقاربة، وقد اندمجت هذه الدول فى عدة تنظيمات إقليمية متنافسة عملت على لم حبات العقد المنفرط فى تكتلات إقليمية اختلفت فى توجهاتها ومشاريعها السياسية، وفيما يلى مراجعة لأهم هذه التنظيمات (شكل ٢٧).

كومنولث الدول المستقلة

قبل أن يلفظ الاتحاد السوفيتى أنفاسه الأخيرة فى الثامن من ديسمبر ١٩٩١ وقع قادة روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء فى عاصمة الأخيرة على اتفاق لتشكيل اتحاد جديد يحل محل الاتحاد السوفيتى. وباستثناء دول البلطيق التى أحجمت عن المشاركة، فإن بقية الجمهوريات الخمس



شكل (٢٧) التحالفات الإقليمية بعد تفكك الإمبراطورية السوفيتية

عشرة توالت بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٤ على التوقيع على هذا الاتفاق. واُتخذت عاصمة روسيا البيضاء «منسك» مركزًا لهذا الاتحاد الجديد. وحمل الاتفاق مسمى «ائتلاف الدول المستقلة» ويرمز له فى الكتابات الروسية بالأحرف CHT فى حين يعرف فى اللغات الأوربية بكومنولث الدول المستقلة Commonwealth of Independent States ويرمز إليه بالأحرف CIS[1].

بنى الكومنولث على أسس من تنسيق التعامل مع الترسانة النووية الموروثة عن الاتحاد السوفيتى، و التعاون الاقتصادى والعسكرى ، وتنظيم الهجرة عبر حدود هذه الدول، وحماية البيئة. وكغيره من الاتحادات هناك مجلس قمة يؤلفه رؤساء الدول الأعضاء، إضافةً إلى مجلسٍ لرؤساء الوزراء، ومجلس للوزراء خاصة على مستوى وزارات الدفاع والخارجية والاقتصاد. وتبنى سياسة

(1) Olcott. M. op cit. p 43.

الاتحاد على التعاون مع المنظمات الدولية كمنظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة غوث اللاجئين، والاتحاد الأوربى[1].

ومنذ منتصف التسعينيات ركز الاتحاد على قضايا مكافحة الإرهاب بعد توتر الصراع الداخلى فى عديد من دول الكومنولث بسبب النشاط السياسى والعسكرى للحركات الإسلامية كالتى شهدتها قرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وقد زاد هذا التوجه بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وبصفة خاصة بعد انتشار القوات الأمريكية فى وسط آسيا وجورجيا.

ويتفق فريق من الباحثين على أن قيام كومنولث الدول المستقلة كان طوق النجاة للخروج من المأزق الدرامى الذى خلفه انهيار المركب السوفيتى، وحقق ميلادًا لدول عديدة مجنبًا إياها آلام المخاض العسرة التى كان متوقعًا حدوثها بعد ذلك الانهيار، ولكنه فشل فى أن يحقق اتحادًا على غرار الاتحاد الأوربى ولم يتجاوز كونه ورقة توت كبرى أخفت سوءة انهيار الإمبراطورية السوفيتية وحافظ لروسيا على إشراف «شرعى» على عدد كبير من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق أو بصفة خاصة تلك التى تسميها موسكو دول الجوار القريب .Near Abroad

ويسود اللاتنظيم علاقات دول الاتحاد، كما لم تنتقل العلاقات بينها بعد من علاقات بين جمهوريات فى كنف الاتحاد السوفيتى، ولا تزال كثير من دول الكومنولث تخشى أن تستغل روسيا الكومنولث

(١) الموقع الرسمى للجنة التنفيذية لكومنولث الدول المستقلة (باللغة الروسية) http://www.cis.minsk.by/

كبوابة خلفية لاستعادة دورها القديم. غير أن الأمر لا يخلو من بعض الجوانب الإيجابية فقد ضمن هذا الاتحاد استقلال خمس عشرة جمهوريةً معترفًا بها دوليًا باعتبارها «وريثة» قوى عظمى هى الاتحاد السوفيتى، كما ضمن تقسيم جيش الاتحاد السوفيتى بين الدول دون وقوع مشكلات تنظيمية تحول دون انتقال المعدات والكوادر والتجهيزات [١].

كما حافظ على السيطرة الهادئة على أخطر الأسلحة التى امتلكها الاتحاد السوفيتى وهى الأسلحة النووية، وضمن فى ذات الوقت تجريد ثلاث دول سوفيتية سابقة هى أوكرانيا وبيلاروسيا وكازاخستان من ترساناتها النووية سواء بالتخلص منها أو بردها إلى روسيا، فالقوى الغربية - وفى مقدمتها الولايات المتحدة- لم تكن تصبر على ظهور أربع دول نووية دفعة واحدة بسبب انهيار الاتحاد السوفيتى وفى فضاء جغرافى يسوده التوتر وعدم الاستقرار[٢]. خاصة مع ما ساد الأوساط الغربية من أخبار إعلامية تناولت احتمال بيع الحكومة الطاجيكية فى عام ١٩٩٢ كميات من اليورانيوم لبعض دول العالم الثالث وبسعر ١٠٠ ألف دولار للكيلوغرام[٣].

(1) Hunter. S. Central Asia since independence. London. Praeger. 2002. p109.

(2) Olcott. M. op cit. P. 45.

(3) Rashid. A. The Resurgence of Central Asia, Islam or Nationalism? London. Zed Books. 1994. p236.

منظمة شنغهاى

تأسست منظمة شنغهاى فى يونيو من عام ٢٠٠٠ كتطوير لمجموعة عمل عرفت من قبل باسم «مجموعة شنغهاى الخمس» والتى عقدت فى عام ١٩٩٦ فى مدينة شنغهاى الصينية وضمت روسيا والصين وكازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان، وهى الدول التى كان لكل منها حدود مشتركة بين الاتحاد السوفيتى والصين.

وكانت نقطة الالتقاء الأولى هى التعاون العسكرى؛ بحيث ركزت المنظمة على تقليص عدد القوات العسكرية على الحدود بين الدول الخمس، فضلا عن التعاون لمواجهة الشياطين الثلاثة: الحركات الانفصالية، والتطرف الدينى، والإرهاب، وأعلنت عن أول تدريبات عسكرية واسعة بين الدول الأعضاء فى عام ٢٠٠٧ على الأراضى الروسية[١].

وهدفت المنظمة إلى التعاون بين الدول الخمس التى انضمت إليها أوزبكستان فى عام ٢٠٠١، ونادت بقبول الاختلاف فى الحضارات بين الدول الأعضاء وتدعيم التعاون الاقتصادى بينها لإعادة ممرات التجارة إلى ما كانت عليه فى عصر طريق الحرير[٢].

لكن هنا أيضا فشلت موسكو وبكين فى مواجهة مخططات الاختراق الخارجى، فحينما اتضح أن الولايات المتحدة تخطط لإبقاء قواتها فى المنطقة لفترة طويلة مقبلة، طالبت بكين وموسكو فى قمة شنغهاى فى يونيو ٢٠٠٥ واشنطن بسحب قواتها من كل من

---

(١) وكالة أنباء ريانوفستى بتاريخ ٥ و٦ يونيو ٢٠٠٦.

(2) Sulivan. P. U.S - Russia relations, from idealism to realism. Center for Strategic and International Studies. Washington,D.C. 2002. p 96-97.

قرغيزستان وأوزبكستان، لكن الولايات المتحدة مانعت واتهمت وسائل الإعلام الأمريكية روسيا والصين بابتزاز حكومات المنطقة وإرهابها لتفكيك القواعد الأمريكية، وأعلنت الولايات المتحدة وحكومة قرغيزستان أنه تم الاتفاق على تأجير القاعدة فى مقابل ١٥٠ مليون دولار سنويًا[١].

حاولت المنظمة فى عام ٢٠٠٦ توسعة نفوذها فوجهت الدعوة لإيران والهند وباكستان للمشاركة فى المنظمة بصفة مراقب، وهو ما استدعى اعتراض الولايات المتحدة رسميًا بحجة أن«المنظمة تحارب الإرهاب بينما إيران دولة ترعى الإرهاب» [٢].

وفى النهاية فإن أسباب فشل كثير من أهداف المنظمات السابقة يعود إلى المنهج الذى تتبعه روسيا فى تعاملها مع دول آسيا الوسطى والقوقان، وهو منهج يبحث عن المنافع الاقتصادية والاستراتيجية ومصالح الأقلية الروسية [٣] ، فالصورة الموروثة فى دول آسيا الوسطى ما زالت ترى فى روسيا مستعمرًا قديمًا يخطط لمد نفوذه أو يمارس على أقل تقدير «تسلط الأخ الأكبر» .

ومن جانبها تسهم حالة التردد التى تتبعها عديد من حكومات دول آسيا الوسطى فى التعامل مع القوى الدولية فى عدم التقدم إلى الأمام ، فدول الإقليم تحاول أن تمسك كل الخيوط فى يدها فلا تجرؤ على إغضاب روسيا بالتعاون الكامل مع الغرب، ولا تستطيع أن تسلم

(١) عن وكالة رويترز للأنباء بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠٠٦.
(٢) فى تصريحات صحفية لوزير الدفاع الأمريكى (السابق) دونالد رمسفيلد بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠٠٦.

(3) Vasiliev. A. Russia's destinies and Islam. In Nielsen.J(ed) The Christian - Muslim Frontier :Chaos, Clashes or Dialogue? London. I.B Tauris Pub. 1998. p 24.

نفسها كلية لموسكو ،وهى تعلم أن فى يد الغرب مفاتيح كثيرة للاستقرار الداخلى خاصة فى ظل توجه عديد من هذه الحكومات إلى تمديد فترات الرئاسة وإقصاء المعارضة وإضعاف الأحزاب السياسية.

اتحاد غوام

فى الوقت الذى تشكلت فيه عدة اتحادات سياسية وتكتلات اقتصادية موالية لموسكو بعد سقوط الشيوعية على رأسها كومنولث الدول المستقلة، تحاول الدول التى تنسحب من البساط السوفيتى السابق «تشكيل تكتلات مناهضة».[١] ويعتبر اتحاد غوام GUUAM الذى تأسس فى عام ١٩٩٧ ويضم جورجيا وأوكرانيا وأذربيجان ومولدوفا وأوزبكستان محاولة لإيقاف سيطرة روسيا على الدول المتفككة عن الاتحاد السوفيتى وبصفة خاصة ما تعانيه هذه الدول من احتكار الشركة الروسية «غاز بروم» لأمن الطاقة فى هذه الدول[٢].

وقد مثل هذا الاتحاد تحديًا كبيرًا لروسيا نتيجة اختيار أعضائه من الأقاليم السوفيتية الثلاثة التى كانت تحت سيطرة موسكو. فمولدوفا وأوكرانيا مثلتا الإقليم العازل بين روسيا والغرب فى شرق أوربا، وجورجيا وأذربيجان مثلتا القوقاز، بينما كانت أوزبكستان ممثلا لآسيا الوسطى.

---

(١) دوجيف. اللعبة الكبرى فى القوقاز. موسكو /دار روسكايا بانوراما. ٢٠٠١، ص ٤٢٧ (باللغة الروسية).

(٢) سولوفيف وزاغورتسكيى، أرخبيل غوام/ صحيفة كورسانت الروسية. بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٠٦.

وتعتبر شركة «غاز بروم» واحدة من كبرى شركات الاقتصاد الشيوعى السابق التى صارت اليوم نموذجًا لشركة رأسمالية عملاقة عابرة للقارات والقوميات، بإنتاجها الذى يقترب من ٢٠ ٪ من إجمالى الإنتاج العالمى للغاز. ويحتفظ الكرملين بنسبة ٥١ ٪ من أسهم هذه الشركة التى تشرف على أكبر حقول الغاز الطبيعى فى العالم، بحكم ما يتوافر فى الأراضى الروسية من كميات هائلة تبلغ ١,٧ تريليون قدم مكعبة، ما يجعل روسيا أولى دول العالم فى تصدير الغاز[1].

وفى الوقت الذى تسعى فيه روسيا للاستغلال الأمثل لثروتها الهائلة من الغاز عبر «غاز بروم»، يرصد المستهلكون ما يسمى بالدور الجيوسياسى للغاز الروسى معتبرين أن الارتهان للغاز الروسى لا يقل تهديدًا عن التمدد الجغرافى أو التهديد العسكرى، وهى مخاوف صارت تتردد تحت مسمى الهيمنة الروسية على أمن الطاقة فى عهد ما بعد الشيوعية.

من هنا يحاول اتحاد غوام التكاتف لمواجهة الخطر الروسى والبحث عن بديل للغاز الروسى بتدعيم الشراكة بين أذربيجان وجورجيا وتركيا لدفع مشروع خط أنابيب الغاز باكو – تبليسى – إرزيروم الذى سيمتد بموازاة خط النفط الشهير باكو– تبليسى– جيهان.

وتهدف مثل هذه المشروعات إلى سحب الغاز من بحر قزوين والحقول الغربية لآسيا الوسطى وضخها إلى تركيا لإيقاف السيطرة

(1) Business Week Online.Gazprom: Russia's Enron?. February 18 2002.

الروسية التى تستفيد بالفعل من بيع كميات ضخمة للسوق التركية عبر خطوط أنابيب أشهرها أنبوب «السيل الأزرق» تحت مياه الجزء الشرقى من البحر الأسود والذى بدأ تشغيله منذ عام ٢٠٠٣[١].

وينبع التشجيع الغربى لاتحاد غوام من اعتماد الدول الأوربية بشكل كبير على الطاقة من روسيا وبنسبة لا تقل فى متوسطها عن ٥٠ ٪ ، ويتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى ٧٠ ٪ فى عام ٢٠٣٠ . وتعد ألمانيا فى مقدمة الدول التى تعتمد على الغاز الروسى وبنسبة ٣٢٪ من إجمالى استهلاكها من الطاقة، بينما تستهلك بولندا ٦٥ ٪ من الغاز من مصادر روسية.

هذا فضلا عن عشر دول فى شرق ووسط أوربا تعتمد بنحو ٩٠-٩٥ ٪ على الغاز الروسى من خلال سيطرة روسيا على ما يقرب من ١٥٤ ألف كم من أنابيب الغاز فى القارة الأوربية. وهو ما دعا الخبراء ومراكز الأبحاث إلى معالجة ردود الأفعال المتوقعة التى يجب أن يضطلع بها حلف الناتو تجاه التهديدات المحتملة للغاز الروسى ، وبصفة خاصة بعد أزمة إيقاف موسكو الغاز عن أوكرانيا ووسط أوربا مطلع ٢٠٠٦ [٢].

المشكلة الأهم فى أمن الطاقة بالنسبة لحلف الناتو أن عديدًا من المناطق المتنازع عليها بعد سقوط الشيوعية - وأكثرها فى اتحاد غوام – يصعب حلها جذريًا بسبب التدخل الروسى، فقضية كاراباخ المجمدة باحتلال أرمنى لأراضٍ أذرية يصعب حلها

(١) وكالة نوفستي للأنباء، شركة «غاز بروم» تدرس إمكانية مد أنبوب جديد لنقل الغاز«السيل الأزرق-٢». ٢٦ مايو ٢٠٠٦.

(2) Gallis. P. NATO and Energy Security . CRS Report for US Congress. 2002.(Internet data).

نتيجة دعم روسيا أرمينيا بوسائل شتى فى مقدمتها قطاع الطاقة والتسليح.

والنزاعات بين الحكومة الجورجية ومناطق الانفصال فى أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية تهددها بالمثل هيمنة روسيا على قطاع الطاقة الجورجي واتهام الحكومة الجورجية روسيا بدعم الانفصاليين فى هاتين المنطقتين، كما أن المناطق ذات الأغلبية الروسية فى أوكرانيا تستمد قوتها من التأثير الكبير لروسيا على الاقتصاد الأوكرانى وتحكم غاز بروم فى استهلاك الطاقة فيها.

وحتى فى دولة فقيرة مثل مولدوفا فى شرق أوربا يتعثر حل مشكلة إقليم الدنيستر بسبب اعتماد الاقتصاد المولدوفى على استيراد موارد الطاقة من روسيا ، وهو ما يكبل قدرات هذه الدولة على تحرير الإقليم الساعى للانفصال بدعم روسى، حسب اتهامات الحكومة المولدوفية أيضًا.

وإذا كانت دول غوام تسعى إلى الانضمام إلى حلف الناتو لحل مشكلة أمن الطاقة، فإن كازاخستان وتركمانستان فى آسيا الوسطى تعيشان حالة مماثلة، فهاتان الدولتان من أكبر منتجى النفط والغاز وتصدران كميات متزايدة سنويًا إلى الدول الأوربية، لكن عبر الأنابيب الروسية، ومن ثم فإن صراع الاستقطاب على هاتين الدولتين بين الناتو وروسيا سيحدد إلى درجة كبيرة مقدار الدور الجيوسياسى للغاز فى السنوات القادمة[1].

من جانبها تحاول روسيا تفويت الفرصة على دول غوام بمد الخط نحو الطريق الجديدة، عبر البحر البلطى التى ينتظر عشر سنين

(1) Baker Institute Study. The Geopolitics of Natural Gaz. No 29. 2005. p 1-10.

لتتحول من الخطة إلى التنفيذ والتى يمثلها خط الأنابيب المار من غربى روسيا تحت مياه بحر البلطيق إلى ألمانيا مباشرة. وتتقاسم ميزانية المشروع الشركات الروسية والألمانية مع اشتراط شركة النفط الروسية «غاز بروم» أن تكون لها حصة ٥١ فى المائة. وما زال قرار البدء فى المشروع معلقًا لأسباب عدة أهمها أن روسيا تود أن يكون المشروع ثنائيًا مع ألمانيا، بينما تفضل الشركات الألمانية - رغم قدرتها التمويلية - إدخال شركاء أوربيين فى المشروع من المملكة المتحدة وفرنسا وبعض الدول الإسكندنافية[1].

ويزيد من التوتر حول هذه المشكلة امتداد الأذرع الطويلة لتصفية الحسابات بين الدول وبعضها البعض، كاتهام روسيا جورجيا بدعم الشيشان، واتهام جورجيا روسيا بدعم الأبخاز والأوسيت، واتهام مولدوفا روسيا بدعم الانفصاليين فى الدنيستر.

حلف الناتو

أظهر الرئيس الروسى بوريس يلتسين رغبته فى انضمام بلاده إلى حلف الناتو منذ مطلع التسعينيات، وبدأت مباحثات التقارب بين الطرفين تأخذ عنوان «الناتو - روسيا» وبأهداف معلنة هى الحفاظ على الأمن والاستقرار فى القارة الأوربية، ووقع عليها رسميًا فى مايو ١٩٩٧. وبعد أن تقاربت الأفكار فى عام ١٩٩٨ جاء ضرب حلف الناتو ليوغسلافيا فى عام ١٩٩٩ ليحدث شرخًا فى علاقة الطرفين. ووقعت روسيا فى موقف شديد الحساسية حين وقفت عاجزة أمام دعوة الرئيس الصربى سلوبودان ميلوسوفيتش لموسكو

(1) Gazprom′ Website. The North European gas pipeline. www.negp.info.

بالمساعدة ومد يد العون إلى السلاف الجنوبيين أو على أقل تقدير إقامة الاتحاد السلافى بين صربيا وبيلاروسيا وروسيا كوسيلة لتحقيق الحماية العسكرية أمام قصف الناتو.

لكن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أدت إلى عودة الطرفين مجددًا للتحالف فى مواجهة الإرهاب الدولى وانتشار الأسلحة النووية والكيميائية، وإن بقيت روسيا متحفظة على الغزو الأمريكى لأفغانستان والعراق ومنتقدة لدور الناتو فى جمهوريات يوغسلافيا السابقة[1].

ولعل أفضل الإنجازات التى حققها حلف الناتو هو القضاء على مشروع الاتحاد السلافى من خلال استهدافه ليوغسلافيا من ناحية، وابتلاعه لدول «سلافية» مثل سلوفاكيا وتشيكيا من ناحية ثانية وضمه لدول ذات أقليات سلافية كبيرة الحجم مثل دول البلطيق من ناحية ثالثة، وهو ما يمكن اعتباره خطوة شديدة الدقة للقضاء على أكبر التهديدات الروسية للجغرافيا السياسية فى أوربا بعد تفكك السوفيتية.

وحينما زحف الناتو فى النصف الثانى من عقد التسعينيات نحو الشرق توقع الخبراء أن يستنفر ذلك الزحف روسيا ويؤدى بها إلى تحالفات جديدة فى مقدمتِها التقارب مع الصين لتشكيل أكبر قوة برمائية فى القارة الآسيوية.

لقد كان الناتو يقارن بين سيناريوهين: ترك أوربا عرضة للتوسع الروسى، أو توسع الناتو عليها ودفع روسيا إلى التقارب مع الصين.

(1) Voronin. A. Russia-NATO strategic patenership: problems, prospects. Military Thought, Oct-Dec 2005. p 1.

لكن تاريخ روسيا والصين ملىء بالخلافات، ومن ثم فقد توقع الناتو أن تلجأ روسيا مع زحف الناتو الى الاختباء أو الانسحاب فى الداخل والتحصن بعتاد عسكرى قوى لمواجهة الأخطار التى تحيط بها عند الحدود وعلى التخوم وهى الأخطار الغربية والإسلامية والآسيوية[١].

وعلى مستوى القوقاز وبحر قزوين تدعم الاهتمام الأمريكى رسميًا بنفط قزوين منذ عام ١٩٩٥ بترتيب مع حلف الناتو بهدف الحيلولة دون هيمنة روسية على ثروات الإقليم النفطية والتحضير لإقامة مملكة الناتو Pax NATO[٢].

وقد اعتبر حلف الناتو أوكرانيا دولة عازلة بينه وبين روسيا، وكانت عين الحلف على الأسطول الروسى فى مياه البحر الأسود قبالة شبه جزيرة القرم الأوكرانية، وهو ما دفع الحلف إلى الاقتراب بحذر من أوكرانيا، بهدف إقامة علاقات استراتيجية لكن دون تحويلها إلى دولة معادية لروسيا، فيزداد التوتر فى شرق أوربا ، فوظيفة الدولة العازلة أكثر فائدة للناتو من ضم أوكرانيا كلية إلى الناتو[٣].

ومع التغيرات الأيديولوجية التى جاءت بها الثورة البرتقالية فى ٢٠٠٤ تعالت الأصوات الداخلية بضرورة إنهاء تأجير القاعدة

(1) Russett. B. & Stam. A. Courting Disaster: An Expanded NATO vs. Russia and China. Political Science Quaterly, vol. 113 no.3. 1998. p363-364.

(2) Blank. S.The United States: Washington's new frontier in the Tanscaspian. In Croissant.M & Aras.B (eds) op cit. p 252.

(3) Lieven. A. Restraining NATO: Ukraine, Russia, and the West. The Washington Quarterly, vol 20 no 4. 1997. p 57.

البحرية فى القرم، وأبدت روسيا تفهمًا لرغبة أوكرانيا وإن أعلنت أنها لا ترى تعارضًا بين تقارب أوكرانيا مع الناتو ووجود الأسطول الروسى فى ميناء سيفاستبول الأوكرانى[1].

منظمة الأمن والتعاون فى أوربا

تأسست هذه المنظمة فى عام ١٩٧٥ من عضوية ٣٥ دولة أوربية بهدف مواجهة تقسيم القارة الأوربية إلى كتلتين: شرقية وغربية. وشملت المنظمة (التى عرفت فى البداية بمؤتمر الأمن والتعاون فى أوربا) مجالات متعددة من التعاون العسكرى والعلمى والسياسى ومتابعة قضايا حقوق الإنسان. وفى نهاية عام ١٩٩٠ ومع انتهاء الحرب الباردة وسعت المنظمة من عضويتها وفتحت فروعًا فى العواصم الأوربية لمتابعة أنشطتها المختلفة كمركز منع النزاعات فى فيينا ومركز الانتخابات الحرة فى وارسو وأمانة للمنظمة فى براغ [2].

لم تفلح هذه الجهود فى مواجهة الكوارث التى وقعت فى القارة الأوربية وبدأت بالحرب الأهلية فى يوغسلافيا وصعود مشكلات الأقليات العرقية، ولم تتمكن من تحقيق ما سعت إليه، حين انهارت الشيوعية، من لم شمل أوربا «موحدة، وآمنة، وديموقراطية». وحتى حينما حاولت هذه المنظمة فى اجتماع هلسنكى فى ١٩٩٢ إعلان منهج عمل جديد أسمته « تحدى التغيير» لم تحقق خطوات فاعلة

---

(١) وكالة أنباء إيتار تاس. روسيا لا ترى تعارضًا بين تقارب أوكرانيا مع الناتو ووجود الأسطول الروسى فى البحر الأسود. ٢ يونيو ٢٠٠٦.

(2) Williams. C & Williams. S. Issues of peace and security in contemporary Europe. in Williams. C (ed) The Political geography of the new world order. New York. Belhaven Press.1993. P112.

فيما وقع بعد ذلك من حروب أهلية واشتباكات عرقية ونزاعات انفصالية. واقتصرت جهودها على المشكلات التى نجمت عن تفكك الاتحاد السوفيتى لكن بعد انتهاء المعارك بالفعل ، كما حدث فى الحرب الأهلية فى طاجيكستان ، والحرب فى إقليم الدنيستر فى مولدوفا، والصراع على إقليم كاراباخ بين أرمينيا وأذربيجان ، والنزاع بين الأبخاز والجورجيين فى أبخازيا، فضلا عن نشر تقارير مختلفة عن انتهاكات روسيا حقوق الإنسان فى الشيشان، وانتقاد عدم نزاهة الانتخابات فى دول آسيا الوسطى وأذربيجان، وانتقاد العنف الذى تمارسه الحكومات فى آسيا الوسطى تجاه جماعات المعارضة والتظاهرات الشعبية.

منظمتا الأمن الجماعى والتعاون فى آسيا الوسطى

تشمل اتفاقية الأمن الجماعى CSTO روسيا وأرمينيا وأذربيجان وجورجيا وكازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان وأوزبكستان وبيلاروسيا ومولدوفا، وعرفت فى مايو عام ١٩٩٢ باسم اتفاقية طشقند، كاتحاد يزاوج بين الأهداف العسكرية والسياسية قبل أن تنسحب مولدوفا وطاجيكستان وأوزبكستان. وقد نصت المادة الرابعة فى ميثاقها على أن تتحد الدول الأعضاء للرد على أى عدوان تتعرض له إحدى الدول[1].

ولقد تم تحويلها فى مايو ٢٠٠٦ إلى «بناء دولى متعدد الوظائف» له الحق فى إنشاء قوة ردع سريعة ، متبعة منهج حلف الناتو فى هذا الشأن. وكانت هذه المنظمة قد اقترحت منذ عام ٢٠٠٤

(1) Eurasianet Website. Russia Creates a new security system to replace the C.I.S. 21 December 2005.

الاتصال بحلف الناتو لترتيب الأمن، خاصة بعد أن استبعد دورها فى غزو أفغانستان. وتعتبر هذه المنظمة فرصة جيدة لروسيا لإعادة تحديث قدراتها العسكرية بنفقات أقل[١] حيث يتم توزيع جزء من الإنفاق على بقية الدول التى ستستفيد دون شك من تطور الجيش الروسى فى حماية أمنها العسكرى. ومن المشكلات التى تواجه هذه المنظمة اختراق دولها من قبل الناتو مما جعل روسيا تسعى إلى التنظيم العسكرى لهذه المنظمة بالبدء بتوحيد القوات الجوية بين الدول الأعضاء بدءًا من عام ٢٠٠٦ [٢].

أما منظمة تعاون آسيا الوسطى (كاكو CACO) فولدت فى عام ١٩٩٤ بعضوية روسيا وكازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزيا، ولكنها مع عدم فاعليتها أدمجت فى عام ٢٠٠٥ فى منظمة أخرى هى منظمة يوراسيك Eurasec للتعاون الاقتصادى التى تشمل روسيا وكازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان وبيلاروسيا. وبرأى بعض الخبراء فإن اجتماعات هذه المنظمة لم تكن أكثر من «مناسبات للكلام» بلا ثمار [٣].

الثورات الملونة

شهدت السنوات الثلاث الممتدة بين ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦ تغيرات سياسية ثورية فى أوراسيا عرفت باسم الثورات الملونة. ويقصد بالثورة الملونة تلك الانتفاضات الشعبية المنظمة التى تحمل أعلامًا وشارات ذات لون معين تمييزًا لها عن باقى الفئات السياسية فى الدولة. حملت الثورات

(1) Hunter. S (2002) op cit p 113.

(٢) وكالة أنباء ريا نوفستى بتاريخ ٥ يونيو ٢٠٠٦.

(3) Bigg. C. Post-Soviet Grouping Unite. Radio Free Europe, 10 August 2005.

الملونة ثلاثة ألوان رئيسية : حمراء بلون الورد فى جورجيا وبرتقالية فى أوكرانيا وليمونية صفراء بلون زهرة الخزامى فى قرغيزيا ، وحملت هذه الثورات المدعومة غربيًا شعارات نقل الحرية وتصدير النموذج الغربى الليبرالى. وقد تفشت هذه الثورات فى الأقاليم الجغرافية الثلاثة المحيطة بروسيا على النحو التالى:

– فى القوقاز تم اختيار جورجيا فى نوفمبر ٢٠٠٣ فتم إسقاط نظام الحكم فيها ، وهو ما صنع قلقًا لدول الجوار خاصة أذربيجان.

– وفى شرق أوربا تم اختيار أوكرانيا فى ديسمبر ٢٠٠٤، وهو ما شكل تهديدًا لدول الجوار خاصة بيلاروسيا ومولدوفا .

– وفى آسيا الوسطى تم اختيار قرغيزيا فى مارس ٢٠٠٥، وهو ما خلق فزعًا لحكومات باقى دول الإقليم وخاصة أوزبكستان وتركمانستان.

ففى نهاية عام ٢٠٠٣ - فى أعقاب انتخابات برلمانية وصفت بالتزوير– نشبت ثورة شعبية عرفت إعلاميًا بثورة الورود أو الثورة المخملية، وتمكنت من الإطاحة بالرئيس إدوارد شيفرنادزه وأتت بالزعيم الشاب ميخائيل ساكشفيلى الذى سرعان ما رحب به الغرب ودعمته وسائل الإعلام فى الولايات المتحدة.

وقتها بدت جورجيا مقبلة على حرب أهلية جديدة بسبب الطموح القومى للثورة ورغبتها فى إعادة الأقاليم الساعية إلى الانفصال إلى سيطرة العاصمة، لكن على الرغم من مرور نحو ٣ سنوات على هذه الثورة فإنه لم يتغير شىء فعليًا فى الدولة، واستمرت أوضاع المناطق الساعية للانفصال كما هى مجمدة.

وفى هذا الصدد لابد من التأكيد أنه ليس من مصلحة روسيا انقسام وتفتت جورجيا؛ لأن نيران الحرب الأهلية ستتخطى الحدود بين الدولتين، وقد تطال القوقاز ولاسيما الشيشان. وفى نفس الوقت فليس من مصلحة

روسيا ظهور جورجيا قوية بالدرجة التى تصبح فيها الحدود الروسية على مرمى حجر من القواعد الأمريكية المنتظرة فى جورجيا.

وبعد عام من أحداث ثورة الورود فى جورجيا شهدت أوكرانيا ما صار يعرف فى تاريخ مرحلة ما بعد السوفيتية باسم «الثورة البرتقالية»، نسبة إلى الأعلام البرتقالية اللون التى حملتها المعارضة للإطاحة بالنظام الموالى لموسكو وأتت فى مطلع عام ٢٠٠٥ بنظام ذى توجه غربى. ثم تكررت الحالة فى ثورة شعبية فى قرغيزيا فى آسيا الوسطى فى ربيع عام ٢٠٠٥ وأطيح بنظام الرئيس عسكر عكاييف الذى كان مواليًا لروسيا.

وقد هدفت الثورات الملونة إلى القضاء على نفوذ موسكو، والتقارب بنقلات نوعية مع الغرب الأوربى والولايات المتحدة. لكن الممارسات الفعلية التى عاشتها النظم الحاكمة التى جاءت بها هذه الثورات أثبتت أن هناك قدرًا كبيرًا من حلول الوسط ميَّز العلاقات السياسية التى انتهجتها هذه الدول تجاه كل من روسيا والغرب. بل إن نتائج الثورات الملونة قد حملت بعضًا من الأخبار السيئة التى صدمت المواطنين فى «براءة» الثورة بما تم الكشف عنه من أنها كانت مدعومة من الغرب بالمال والعتاد، كما أن بعضًا من هذه الثورات قد أفرزت ممارسات جديدة من الفساد الذى جاءت الثورة نفسها لتحاربه (كما وقع فى أوكرانيا بعد عام واحد من الثورة البرتقالية).

وقد أسهم هذا فى إعادة قدر من التوازن للدور الروسى فى الأقاليم التى شهدت هذه الثورات. وبصفة خاصة مع ما أدركته النظم الحاكمة التى جاءت بها الثورات الملونة من أنه بمقدور موسكو استخدام سلاح النفط فى إثارة القلاقل الاقتصادية ، واستخدام الأوراق الإثنية فى دعم الأقليات العرقية، فضلا عن إمكانية استخدام

روسيا قواتها العسكرية الموجودة فى أراضى ومياه بعض من هذه الدول، والنتيجة أن النظم الجديدة التى جاءت من خلال الثورات الملونة باتت متفهمة جيدًا لمخاطر وقوع الدولة فى مسلسل من عدم الاستقرار بسبب الأوراق التى تمتلكها موسكو.

وترتبط تلك التغيرات السياسية بأزمة حادة تعيشها دول آسيا الوسطى وهى ضعف البناء الديمقراطى وبقاء الاحتمالات قائمة للقفز على السلطة وتثوير المجتمع. وعلى الرغم من أن هناك عدة تدخلات أجنبية أسهمت فى الحفاظ على الوضع المتأخر للحراك الديموقراطى فى عديد من هذه الدول تحت رعاية الدول الكبرى ذات المصالح فى الإقليم، فإن بعض الباحثين يربط بين حالة التأخر الديموقراطى والبناء القبلى لسكان أغلب دول آسيا الوسطى ، وهو ما يجعل تنظيم البرامج السياسية والتحالفات قائمًا على اعتبارات عشائرية أكثر منه على التمثيل الانتخابى، لدرجة يمكن أن تسمى الدولة معها بـ «دولة القبيلة»[1].

ويفرق البعض بين آسيا الوسطى المتأخرة ديموقراطيًا وبين روسيا التى قطعت شوطًا على طريق الديموقراطية وكذلك دول القوقاز. ويرجع هؤلاء ذلك إلى الثقافة الدينية فى آسيا الوسطى التى تفرض قيودًا على حرية الفرد وتتعامل بسلبية مع منجزات العلمانية[2]. وقد اتضح أن الدول التى كانت أقرب للديموقراطية هى التى شهدت اضطرابًا وقلاقل بل وثورات لقلب نظام الحكم، مقارنة بالدول الأبعد عن الحرية السياسية. فدولة مثل قرغيزيا برئاسة

(1) Edgar. A. Tribal Nation, The making of Soviet Turkmenistan. New Jersey. Princeton University Press. 2004. p 5.

(2) Malashenko. A. Central Asia: from Communism to democracy and Islam. In Nielsen.J (ed) The Christian - Muslim Frontier :Chaos, Clashes or Dialogue. London I.B TaurisPub. 1998. p52.

عسكر عكاييف كانت حتى عام ٢٠٠٥ نموذجًا يحتذى فى المسار الديموقراطى التدريجى بين دول آسيا الوسطى حتى إنها عرفت فى الإعلام الغربى بـ «واحة الديموقراطية» مقارنة بنظم حكم أكثر تشددًا فى أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان.

فحين سئل الرئيس عسكر عكاييف فى ملجئه السياسى فى موسكو لماذا لم تأمر قوات قصرك بإطلاق النار على الثوار أجاب «لقد أنقذت البلاد من حرب أهلية»[١]. فى المقابل حينما قامت ثورة شعبية فى أوزبكستان فى مايو ٢٠٠٥ واجهتها الحكومة بعنف شديد بطريقة قدمت إجابة قاطعة لمن تخيلوا أنه فى الإمكان تكرار النموذج القرغيزيى.

ففى أوزبكستان كما فى عديد من دول آسيا الوسطى لا تمثل الأحزاب السياسية سوى نسبة هامشية من الواقع السياسى، وتعتبر لدى عديد من المراقبين أحزابًا على ورق لا تحمل من مفهوم المعارضة سوى الاسم. كما وصفت منظمة الأمن والتعاون فى أوربا عديدًا من الانتخابات فى هذه الدول بالمزيفة. وعلى الرغم من أنه من الصعوبة بمكان استبعاد تأثير الصدامات الدينية و القبلية على تعثر الديمقراطية والإصلاح فإن دور القوى الخارجية لا يقل تأثيرًا.

لقد أصاب عدد من المفكرين حين حذروا، بعيد سقوط الشيوعية، من أن نهاية احتكار الأحزاب الشيوعية للسلطة لن يؤدى بالضرورة إلى ميلاد الديموقراطية، فلابد أن يتبع عقود الكبت وقت كاف من الزمن يتوقف فيه خداع الجماهير، حتى لا تنتقل الشعوب من طغيان الفرد إلى طغيان الجماعة. وحين عانت دول ما بعد السوفيتية من طغيان جماعات المصلحة لم تتحرك لمواجهتها أو التصدى لما صار يعرف بالفساد الاقتصادى واستغلال أموال الدولة. وقد كان جوزيه

(١) عن صحيفة إزفيستيا الروسية بتاريخ ٢ إبريل ٢٠٠٥.

كازانوفا موفقًا حينما خرج بتفسير مهم لسكوت أغلبية السكان عما يعيشونه من تدنٍ اقتصادى وضعف ديموقراطى معتبرًا أن أحدًا لم يكن يرغب فى الاعتراض أو التظاهر، فقد تعب الجميع من مآسى الماضى السوفيتى ويرغب الناس فى أن يعيشوا الآن فى هدوء[1].

التحالفات والطرق المتقاطعة

تشهد السنوات الـ ١٥ التى مضت منذ انفرط العقد السوفيتى بأن الجمهوريات المستقلة قد تباينت فيما بينها فى اختيار الطريقة المثلى التى يجب التعامل بها مع ميراث السوفيتية. فمن بين الدول من اختار الحفاظ على شكل، أو آخر، من أشكال الارتباط بالمنظومة القديمة، التى لا يعود عمرها إلى العهد السوفيتى فحسب، بل إلى الماضى القيصرى كذلك، وهى منظومة تلعب فيها موسكو دور المركز وما حولها من دول يدور فى الفلك ويتبع المدار.

ومن بين الدول من انتهز الفرصة للفكاك من تاريخ طويل من الهيمنة والسيطرة، ووجد الفرصة سانحة والأيدى ممدودة «لانتزاعه» من بين الأنياب الروسية. بينما وقفت مجموعة ثالثة من الدول حائرة بين المنهجين، فلا هى كانت قادرة على الاستمرار فى التحالف مع موسكو، ولا هى تمكنت من التحالف مع القوى الخارجية خشية استعداء روسيا، لحساسية مواقعها الجيوسياسية.

ويعطى الجدول التالى موقف كل دولة من الدول المستقلة، وحالة الاستقرار والتأرجح فى الخيار الذى لجأت إليه.

---

(1) Casanova. J ob cit. p 82.

جدول(٥) حالة الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى من حيث التحالف ودرجة الاستقلال

الدولة	التحالف	الإقليم	حالة التحالف
كازاخستان	روسيا	آسيا الوسطى	مستقرة
طاجيكستان	روسيا		متأرجحة
تركمانستان	روسيا		متأرجحة
أوزبكستان	روسيا		متأرجحة
قرغيزيا	روسيا		متأرجحة
بيلاروسيا	روسيا	شرق أوربا	مستقرة
أستونيا	الولايات المتحدة والغرب الأوربى		مستقرة
لاتفيا	الولايات المتحدة والغرب الأوربى		مستقرة
ليتوانيا	الولايات المتحدة والغرب الاوربى		مستقرة
أوكرانيا	الولايات المتحدة والغرب الأوربى		متأرجحة
مولدوفا	الولايات المتحدة والغرب الأوربى		متأرجحة
أذربيجان	الولايات المتحدة والغرب الأوربى	القوقاز	مستقرة
جورجيا	الولايات المتحدة والغرب الأوربى		متأرجحة
أرمينيا	روسيا		مستقرة

ويتضح من الجدول أن الجمهوريات الأربع عشرة التى استقلت عن موسكو انقسمت إلى قسمين متساويين، سبع جمهوريات ما زالت مرتبطة بموسكو بدرجات تتفاوت بين التأرجح والاستقرار، وتقع هذه الجمهوريات فى آسيا الوسطى والقوقاز وشرق أوربا . وسبع جمهوريات أخرى صارت مرتبطة بالغرب الأوربى والولايات المتحدة بدرجات أخرى من الاستقرار والتأرجح وتقع فى شرق أوربا والقوقاز.

وإضافة إلى أن الجدول يظهر روسيا وقد خسرت نصف الدول التى كانت تابعة لها لصالح الغرب الأوربى والولايات المتحدة، فإن تصنيف الدول إلى مستقرة ومتأرجحة يظهر انقسام الدول إلى فريقين متساويى العدد: سبع دول متأرجحة وسبع مستقرة، وهنا أيضًا نجد روسيا خاسرة فأربع دول من السبع المتأرجحة هى دول متحالفة مع موسكو، وهى دول آسيا الوسطى التى تتحالف مع موسكو وتفتح أراضيها لإقامة قواعد عسكرية للولايات المتحدة فى ذات الوقت.

لكن تشابكات العلاقات السياسية والاقتصادية لا تعطى الفرصة لهذا التمييز الذى يظهره التبسيط فى الجدول السابق، فالمصالح المتقاطعة والمتوازية بين دول الإقليم والتنافس فيما بينها للارتباط بالمجتمع العالمى المفتوح، والتنافس بين القوى العظمى عليها، يجعل المنطقة أقرب إلى لعبة الورق التى تتغير فيها الأوراق بين اللاعبين وتتبدل أهمية كل ورقة من وقت لآخر، فضلا عن عدم ثبات علاقات الصداقة والعداء على حال.

من جانبها تفاضل روسيا بين خيارات متعددة، تتعلق هذه المرة بالطريق الذى يجب أن تسير فيه من حيث التكامل مع العالم أو التمسك بحدود القوى العظمى أو القناعة بمجرد دور لدولة إقليمية عادية، وهو ما يعبر عنه بوضوح الجدول التالى:

جدول (٦) خيارات روسيا الإقليمية[1]

	التكامل مع العالم	الدولة الإقليمية «العادية»	القوة العظمى «المنافسة»
التهديد الأساسى	الانعزال عن الغرب	الانهيار الاقتصادى والإرهاب	أحادية الهيمنة الأمريكية
الهدف الرئيسى	التكامل مع الغرب	استعادة دور القوى العظمى	إسقاط الهيمنة الأمريكية
وسائل الممارسة	اقتصاد السوق وعدم التدخل فى شئون الدول السوفيتية سابقًا	تحرير الاقتصاد، والتأثير الاقتصادى على دول الاتحاد السوفيتى السابق	تشكيل قطب اقتصادى منافس للولايات المتحدة وإعادة خلق تكامل اقتصادى مع الدول السوفيتية سابقًا
التحالفات	طبقة رجال الأعمال والمستثمرين الغربيين	المزاوجة بين الوسائل التجارية والأمنية للتأثير فى دول الجوار	استعادة الوجود العسكرى فى دول الاتحاد السوفيتى السابق والسيطرة على مناطق للأمن القومى خارج الحدود
الجذور الفكرية	الليبرالية الغربية	الأفكار الجيواقتصادية	مشاريع الهيمنة الروسية الناجحة عبر التاريخ

(1) Tsygnkov.A. Vladimir Putin's vision of Russia as a normal great power.Post Soviet Affairs, 2005,21,2 p141.

ويمكن القول إن روسيا منذ تولى الرئيس فلاديمير بوتين الحكم في عام ٢٠٠٠ (تنتهى فترته الرئاسية فى ٢٠٠٨) تنوع فى اختياراتها بين التوجهات الثلاثة، فتارة تبدو قوة عظمى منافسة تتحدث بميراث الاتحاد السوفيتى وخاصة فى المجال العسكرى والقدرات النووية، وتارة تبدو أقرب للتكامل مع العالم وخاصة فى الملف الأمنى وتجارة الطاقة، وتارة ثالثة تبدو - وهى الحالة الأكثر تكرارًا منذ تفكك الاتحاد السوفيتى- قوة إقليمية عادية لا تختلف فى دورها عن دور تركيا أو إيران.

ولاتقف روسيا تائهة تنتظر اختيار أى من البدائل المتاحة فى الجدول السابق، ففى غضون خمس عشرة سنة منذ تفكك الاتحاد السوفيتى تمكنت روسيا - من دون توسع وحروب- من التقارب مع الصين والهند فى آن ، وتقدمت خطوات جريئة نحو الخليج العربى حين دعمت امتلاك إيران سلاحًا نوويًا، واستمرت فى بيع السلاح لسوريا دون أن تخسر تفاهمها مع إسرائيل ودعمها سياسيًا وديموغرافيًا، فضلاً عن مفاجأة العالم بقبول الشراكة مع الناتو بل الانضمام إلى الحلف نفسه كعضو مراقب.

كما تقاربت روسيا مع الدول الإسلامية رغم الأزمة الشيشانية التى صدعت علاقة الطرفين، ونجحت فى الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامى كعضو مراقب فى عام ٢٠٠٤ ، وفى ذات الوقت أصبحت شريكًا استراتيجيًا لعدة دول أوربية فى مقدمتها ألمانيا وفرنسا. وفى خطوة براغماتية مدهشة حولت روسيا علاقتها مع الولايات المتحدة إلى علاقات تعاون وتفاهم ، بعدما اندفعت واشنطن بعيد أحداث ١١ سبتمبر تقترب عسكريًا وجغرافيًا من روسيا، متغلغلة فى الفضاء الجغرافى المحيط بأفغانستان.

وفى السياسة الخارجية، تابع الكثيرون روسيا عن كثب ، فراهن البعض على أنها ستتقوقع مرحليًّا على نفسها لتصنع «جزيرة أوراسية» تعكف سنوات طويلة على إعادة ترتيب البيت الروسى من الداخل، وتحيك ما تمزق من ثوبها الواسع الفضفاض الممتد من حدود اليابان إلى شرق أوربا ، ومن القطب الشمالى إلى القوقاز وقزوين. بينما توقع آخرون أن روسيا سترفض المفهوم «الجزرى»، لأن تاريخها دومًا ما كان تاريخ تفاعل وارتباط ولم تحبس نفسها فى الداخل مرة واحدة، ومن ثم فقد انتظر هؤلاء روسيا «الجسر» أو «المعبر» الذى سيصل عوالم مختلفة الثقافات والعقائد ويربط بين حضارات متباينة.

لكن مفهوم الجسر اختلط فى تصور البعض فظنه «مخفرا» أماميًّا لحضارة غربية أو على أقل تقدير ثقافة «أوراسية» فى مواجهة العالم الإسلامى. وهنا يعبر جريخوم[١] عن المشكلة بقوله:

«يدهشنا هنا لماذا يريدون روسيا (مخفرًا أماميًّا) للعالم المسيحى أمام العالم الإسلامى ؟ ولماذا العالم الإسلامى ؟ لم لا يتحدثون عن العالم البوذى أو الهندوسى أو عالم ديانات شرق وجنوب آسيا وهى عوالم ليست أقل شأنًا من العالم الإسلامى ؟ كما أنه لا يستوجب على روسيا أن تصير حامى البوابة الشرقية للغرب ، كما لا ينبغى أن تكون (برج القلعة) للشرق فى صراعه مع عولمة الغرب. ولا يختلف هذا فى تضليله عما يقوله البعض من تصور العالم بدون روسيا وإمكانية إلغاء دورها من الخريطة السياسية».

---

(١)جريخوم.. هل يمكن تصور عالم بدون روسيا؟ سقوط القوى النووية وتبعاته فى عالم اليوم، نيزافيسميا غازيتا، ٨ ديسمبر ١٩٩٩.


خاتمة

لم يكن انهيار الإمبراطورية الروسية مفاجأة للتاريخ الذى شهد صعود وهبوط الحضارات والممالك والدول. ففى أقل من قرن من الزمان كانت بريطانيا وفرنسا وتركيا العثمانية قد سبقت روسيا فى ذات المصير. وما قنعت به فرنسا وإنجلترا من «متابعة» شئون مستعمراتها السابقة قد يكون المصير الذى ينتظر الدور الروسى فى المستقبل فى ظل عالم جديد تهيمن عليه الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

الاختلاف الأساسى فى إمبراطوريات القرن المنصرم أن فرنسا وإنجلترا كانتا إمبراطوريتى بحر ومحيط، بينما كانت روسيا إمبراطورية برو يابس، أما الإمبراطورية الأمريكية فتعتمد على القدرات الجوية الفائقة لتصنع إمبراطورية «الجزر المبعثرة» المنتشرة فى كل القارات والمحيطات وأعمدتها القواعد العسكرية والأساطيل البحرية.

لكنْ ثمة فارقٌ كبير بين نماذج الإمبراطوريات السابقة، وهو أن تطبيق مصير التجارب البريطانية والفرنسية والعثمانية على روسيا سيجلب عليها كارثة لا يمكن أن تتحملها ولا يتخيل أن ترضى بها. فعودة فرنسا إلى حدودها الوطنية، وعودة إنجلترا إلى جزرها المحدودة التى تلتف حول بعضها لتشكل المملكة المتحدة، وعودة تركيا إلى مجرد دولة متوسطة المساحة، كلها خيارات لا تتناسب مع التجربة الروسية. ولئن رضيت روسيا بالنماذج السابقة، فعليها أن تعود إلى حدود ما قبل ٥٠٠ سنة وتقنع بمساحة جغرافية محدودة تحيط بالعاصمة موسكو وما حولها من أقاليم.

لكن روسيا حين تفكك الاتحاد السوفيتى احتفظت بمناطق واسعة مما ضمته خلال تاريخها القيصرى ، فلملمت تحت سيطرتها ما كان خاضعًا لها قبل ٥٠٠ سنة فى الأورال، والفولغا، وسيبيريا، والشرق الأقصى، والقوقاز الشمالى. ولعل ما حاولت الشيشان تحقيقه بالسعى للانفصال عن حدود «الإمبراطورية» كان نموذجًا مثاليًّا لطريق سلكته منطقة على الأطراف حاولت استعادة سيادتها التى نعمت بها قبل قرنين ونصف من الزمان، حين كانت روسيا لا تزال تفكر فى ضم القوقان، ونموذجًا مثاليًّا فى ذات الوقت لطبيعة الرد القاسى الذى اختارته روسيا للإبقاء على هذه المنطقة معلنة أن المساس بالحدود الحالية للأراضى الروسية هو قطع فى «عظم» الدب وليس مجرد مس لجلده أو فروته.

وبالمثل حمل البيت السوفيتى الكبير حين تفككه قنابل موقوتة، بعضها كالأقليات الروسية التى تخلفت فى الدول السوفيتية سابقًا تم التغلب عليه ونزع فتيله، وبعضها كالنزاع بين الأعراق للسيادة على مناطق استراتيجية، والاشتباكات بين أنصار الحركات الإسلامية والسلطات الحاكمة انفجر فى السنوات الأولى للاستقلال، ولايزال بعضه ينفجر بين الحين والآخر.

وعلى الرغم من أن روسيا سحبت من دول وسط وشرق أوربا ومن إقليم البلطيق وآسيا الوسطى والقوقاز نحو ٧٠٠ ألف جندى بمعداتهم الثقيلة والخفيفة، فما زالت كثير من القضايا الساخنة معلقة بسبب «بقايا» الوجود العسكرى الروسى فى عدة دول مثل مولدوفا وجورجيا وأوزبكستان وأرمينيا، فضلاً عن مجموعة أخرى من القوات تقوم بدور حفظ السلام فى المناطق التى اشتعلت فيها

الحروب والاشتباكات عقب تفكك الاتحاد السوفيتى، وتتهم هذه القوات بلعب دور غير محايد فى أكثر من مكان.

ثمة مشكلة أخرى ظلت مرتبطة بالبناء المفكك والبيت المنهار وهى المسماة «بتسلط الأخ الأكبر». فروسيا عرفت خلال تاريخها الطويل فى المناطق الجغرافية التى تفككت عن السوفيتية بالمستعمر أو فى أفضل الأحوال بـ «الأخ الأكبر» ، الذى رفع شعار مساعدة الشعوب الناهضة ودعم مسار تحديثها وحمايتها أمام «الطامعين» كالأتراك والإنجليز والفرس. ورغم أن روسيا أعلنت فى غير مرة أنها تخلت عن طموحاتها القديمة وتسعى فقط إلى علاقات حسن الجوار، فإن الإدراك الغربى - عند مستوياته السياسية ومن ثم الإعلامية- ما زال يرى فى روسيا نموذجًا لدولة يصعب عليها أن تتخلى عن عقيدتها الجغرافية السابقة القائمة على التوسع وتمديد النفوذ.

ففى الوقت الذى تسعى فيه الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى إلى بناء «حدود» سياسية واضحة المعالم بينها وبين بعضها البعض وبين روسيا، تصور مراكز الأبحاث الغربية والصحافة الأمريكية فى أكثر من مناسبة أن روسيا آمنت عبر قرون بـ «التخوم» لا بـ «الحدود». فالحنين للماضى ما زالت أطيافه حاضرة، ليس فقط فى أسى جيل من المعمرين السوفيت تشدهم «نوستالجيا» أمجاد وطن عاشوا أزهى سنواتهم فيه، بل إنها حاضرة لدى قطاع من الشباب الذى يترعرع فى بلد مازال يحتفظ بالحكمة الشهيرة التى قالها القيصر الروسى أليكسندر الثالث والتى ما زالت معلقة فى لوحات جدارية بالجامعات العسكرية والسياسية والتى تقول «ليس هناك من أصدقاء لروسيا سوى جيشها وأسطولها البحرى» [1].

---

(1) Trenin. D. op cit. p28.

وكما اعتبرت الولايات المتحدة دول أمريكا اللاتينية «حديقة خلفية» لنشاطها السياسى والاقتصادى، فمازالت روسيا تعتبر دول آسيا الوسطى والقوقاز وعدة دول فى أوربا الشرقية حديقة خلفية لها. وإذا كانت هذه الحديقة تتعرض لزيارات متكررة من الغرباء القادمين مع القوات الأمريكية وقوات الناتو التى تطارد «الإرهاب» فى أوراسيا، فإن روسيا تضع أعينها على زوايا الأركان فى هذه الحديقة وتعمل على ألا تتركها تسقط فى يد المنافسين الجدد، فى «لعبة كبرى» جديدة ما زالت تتوالى فصولها.

فشبه جزيرة القرم على رأس البحر الأسود فى أوكرانيا تعتبر آخر المواقع العسكرية التى ستشهد منافسة حامية بين روسيا والولايات المتحدة والناتو بشأن السيطرة الجيوستراتيجية عليها. والقواعد العسكرية الروسية فى آسيا الوسطى والقوقاز، والتمركز العسكرى الروسى فى منطقة كالينجراد على بحر البلطيق كلها مواضع ما زالت «ميراثًا» شائكًا من تبعات ما خلفته الشيوعية.

ولابد أن نتذكر فى هذا المجال أنه حين انهار الاتحاد السوفيتى سعت القوى الإقليمية إلى التأثير فى الهوامش الخارجية لجغرافية ما بعد السوفيتية والاستفادة من مقوماتها الاقتصادية والاستراتيجية. وكانت إيران وتركيا فى مقدمة هذه القوى. وبينما نجحت إيران وتركيا فى لعب دور مؤثر فى بعض دول القوقاز فشلت فى الاستفادة من الورقة العرقية فى دول آسيا الوسطى التى حافظت على ارتباطها القديم بموسكو وحاولت صياغة مستقبل جديد مع الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة.

وإذا كانت المحاولات التركية لاختراق آسيا الوسطى قد اعتمدت على تقديم النموذج العلمانى المقترب مع الغرب واقتصاد السوق

وإحياء الجامعة الطورانية ، اعتمدت إيران على أسس من الجذور اللغوية والثقافية وإمكانات التعاون فى مجال الطاقة لاشتراكها مع دول الإقليم فى بحر قزوين وكمحطة عبور رئيسية لدول الإقليم إلى الشرق العربى والمحيط الهندى[1]. لكن التضارب فى المصالح بين الطرفين أعاق تعاون دول الإقليم مع أى منهما نتيجة انخراط الدولتين فى مشكلات شائكة فى الإقليم وبصفة خاصة النزاع على كاراباخ بين أذربيجان وأرمينيا.

وفى ذات الوقت فشلت الدول العربية التى اعتمدت على الورقة الدينية فى التقارب مع الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى نتيجة معوقات حالت دون التواصل التجارى والسياسى والثقافى. ولعل أهمها ،بالإضافة إلى عدم الاتصال الجغرافى، عدم وجود برنامج متكامل أمام البرامج الإيرانية والتركية والروسية والصينية التى تنشط بقوة فى الإقليم، وتخوف دول آسيا الوسطى بشكل خاص من تسرب التطرف إلى بلادها، إضافة إلى تعرض هذه الدول لضغوط خارجية تنصحها بالابتعاد عن العلاقات مع العرب[2].

ولم تزد علاقة هذه الدول بالعالم العربى عن حدود «علاقات النوايا الحسنة» فلم تتجاوز المجاملات الروتينية وضآلة التفاعل

(١)جفال، عمار. التنافس التركى – الإيرانى فى آسيا الوسطى والقوقاز. أبو ظبى. سلسلة دراسات استراتيجية ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.٢٠٠٥ . ص ١٤.

(٢) سليم، محمد السيد. العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى. القاهرة. سلسلة أوراق آسيوية، العدد ٣٥. مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة. ٢٠٠٠. ص ٢٠-٢١.

فى ظل غياب مشروع عربى مشترك[1]. وقد أسهم فى التباعد بين الدول العربية ودول الإقليم اتهام بعض وسائل الإعلام الروسية للدول العربية الثرية بدعم الحركات الإسلامية المتطرفة وترويج الفكر الأصولى فى الإقليم.

ماذا يحمل الغد؟

السؤال الذى يطرح نفسه الآن: فى أى طريق تسير دول ما بعد السوفيتية؟ بوسعنا تلمس الإجابة بفرز المؤشرات المستقبلية إلى صنفين: ثوابت ومتغيرات.

تتسق ثوابت الجغرافيا السياسية فى بقاء المركز (موسكو) غير قادر على التخلص من دوره التاريخى المستمد كافة ممارساته السياسية من إرث ألف العام الماضية التى شغل العالم فيها بطموحاته الجغرافية وتوسعاته على حساب الشعوب والدول المجاورة. وعلى الرغم من مبالغات مراكز الأبحاث الغربية وتحذير الإعلام الأورأمريكى من عودة الدور الإمبريالى لروسيا، فإنه من المتوقع أن تستلهم روسيا بروح التجربة الأوربية التى تخلصت من «الكولونيالية» لصالح «نيوكولونيالية» أقل صراحة وانكشافًا وأكثر نعومة وتسترًا فى تحقيق المصالح والنفوذ.

ويدعم هذا الاعتقاد أن ملامح الجغرافيا السياسية للدول المحيطة بروسيا تبدو وقد استقرت لربع قرن مقبل على النحو التالى:

(١) عرفات، إبراهيم. مصر وآسيا الوسطى.. سياسة تأمين الهوامش . فى سليم، محمد السيد وعرفات، إبراهيم (محرران) العلاقات المصرية –الآسيوية. مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة. القاهرة. ٢٠٠٠. ص٣٧٩–٣٨٠.

١- طوَّق حلف الناتو روسيا من كافة الجوانب، حيث انضمت كافة الدول المحيطة بروسيا فى شرق أوربا (فيما عدا بيلاروسيا) إلى الحلف، كما تحولت دول البلطيق من تفاحات ثلاث توشك على السقوط فى القبضة الروسية إلى مخافر أمامية لحلف الناتو. وفى القوقاز استقرت علاقة أذربيجان بتركيا ، العضو المركزى فى حلف الناتو، إذ تتكرر زيارات قادة الجيش التركى وضباط الناتو إلى العاصمة الأذرية باكو لحماية أذربيجان من النفوذ الروسى. وتمضى جورجيا بخطى متسارعة للانضمام إلى الحلف، ويرجح أن تصبح عضوًا بحلول عام ٢٠١٥. الدولة الوحيدة التى تبقى متأرجحة هى أرمينيا، وإن كانت مؤشرات التطور السياسى فيها تدلل على تقارب أكثر مع الغرب استفادة من البراغماتية السياسية التى بدت فى الكرملين منذ سقوط الشيوعية. وفى آسيا الوسطى يتزايد التقارب الأمريكى مع الأنظمة الحاكمة فى هذه الدول لاعتبارات الجوار مع أفغانستان وباكستان وإيران لدرجة حولت القواعد العسكرية الأمريكية فى هذه الدول من هدف مؤقت إلى تحالف استراتيجى واستقرار فى المستقبل المنظور.

٢- الالتزامات الدولية والإقليمية لروسيا طويلة الأجل نسبيًا، وعلى صعد مختلفة، فى مقدمتها التعاون مع حلف الناتو منذ الغزو الأمريكى لأفغانستان والحرب على «الإرهاب»، وحصولها على مقعد الدولة المراقبة فى اجتماعات الحلف، وهو ما اعتبر خطوة ضرورية لنزع فتيل التوتر بين القوة العسكرية الروسية الهائلة والقدرات العسكرية المتطورة لحلف الناتو، إضافة إلى تزايد

ترابط روسيا تجاريًا بالقارة الأوربية فى ظل تصدير أكثر من ٦٠ ٪ من النفط والغاز الروسى إلى دول أوربية وتزايد حصص تصدير الصلب من روسيا إلى تلك القارة، فى الوقت الذى تفتح فيه روسيا أسواقها بشكل متزايد للمنتجات الغذائية والتقنيات المتقدمة القادمة من أوربا. وتعتبر الرغبة الروسية فى بناء نظام اقتصادى حر وتدعيم «رأسمالية وطنية» أهم العناصر التى ستربط روسيا بالشراكة الأوربية.

٣- تزايد اعتماد الميزانية الروسية على «العائدات السلمية» المستمدة من بيع النفط والغاز. ففى السنوات الثلاث الأخيرة تراوح الدخل الروسى من بيع المنتجات النفطية والغاز الطبيعى بين ٤٠ و٦٠ بليون دولار/ سنة مقابل مبيعات الأسلحة التى تدر لروسيا دخلا يتراوح بين ٥ و٧ مليارات دولار / سنة. إذ تمتلك روسيا أكبر مخزون للغاز الطبيعى فى العالم بكمية تقترب من ٢ تريليون قدم مكعبة، وهى ثامن دول العالم فى احتياطى النفط بحجم يزيد على ٦٠ بليون برميل. وقد أهلتها هذه القدرات لتصبح أكبر مصدر للغاز، وثانى مصدر للنفط بعد المملكة العربية السعودية، بل هى بالفعل أكبر مصدرى النفط خارج مجموعة أوبيك.

٤- اقتناع روسيا بشكل متزايد بأن هناك «عدوًا مشتركًا» بينها وبين الدول الغربية الفاعلة فى السياسة الدولية ويتمثل هذا العدو فى «الأصولية الإسلامية» وأخطار استعادة النموذج الطالبانى ومغبة صعود حركات إسلامية مسلحة مثل الحركة الإسلامية التركستانية وحزب النهضة، وحزب التحرير، وغيرها من التنظيمات «الجهادية»، مما دعا روسيا إلى الإعلان فى

نهاية عام ٢٠٠٦ عن وضع الإخوان المسلمين على رأس قائمة الإرهاب الدولى تحت مبرر تغذيتها الفكرية لمشروع الانفصال الشيشانى. وقاد ظهور هذا العدو المشترك بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر إلى «تسوية صفقات» بين روسيا وبين الدول الغربية التى كانت تنتقد سياسة موسكو التدميرية فى الشيشان. وفى ذات الوقت تمكنت روسيا من تغيير بوصلة العلاقة مع المشرق العربى الذى كان مساندًا (ماديًّا ومعنويًّا) لقضايا الأقليات الانفصالية فى روسيا، وبصفة خاصة بعد أن ذاقت هذه الدول من نفس الكأس التى تجرعتها روسيا. وتحققت لروسيا مصالحة تاريخية بانضمامها إلى منظمة المؤتمر الإسلامى وحصلت على مقعد «مراقب» كالذى حصلت عليه فى حلف الناتو، ضمن براغماتية مدهشة حولت كثيرًا من الخصوم إلى «أصدقاء» أو على الأقل حيَّدت عداوتهم.

٥- رغم مرور أكثر من ١٥ سنة على سقوط الشيوعية فلا تزال الذاكرة حية وهواجس الماضى حاضرة، ومازالت الشعوب منتبهة فى الفضاء المتفكك عن السوفيتية ومستعدة لمقاومة الأشكال الماكرة لاستعادة شكل أو آخر من الكولونيالية الروسية القديمة. وفى هذا الصدد يصعب إنكار مدى ما للثورة المعلوماتية من تأثير كبير على «تنبيه» شعوب الدول السوفيتية السابقة على ما يدور فى العالم بل ونجاح هذه الوسائل فى «تصدير» الثورات الليبرالية التى عرفت اصطلاحًا باسم الثورات الملونة، والتى انتشرت كفيروس يهاجم النظم شبه الشيوعية المتحالفة مع موسكو من إقليم سوفيتى سابق إلى آخر، فأدت إلى

خسارة روسيا لكل من أوكرانيا وجورجيا وقرغيزيا ومولدوفا وفى القائمة بيلاروسيا وأوزبكستان وتركمانستان.

حين نضع تلك الثوابت الخمسة فى الاعتبار (ونذكّر بأننا نراها هنا ثوابت صالحة لعقدين أو ثلاثة مقبلة) بوسعنا حينئذ تصور محاور الحركة الروسية المستقبلية المتجهة الى «التعاون» و«التحالف» و«التفاهم» وغيرها من المسميات الدبلوماسية لأخذ فسحة من الزمن لترتيب البيت الروسى من الداخل واستعادة القوى المهدرة.

النتيجة إذن أنه لا مجال للتوسع أو ضم الأراضى أو الغزو أو شن حروب جديدة على دول الجوار تحت ذرائع قد تتسبب فى تعطيل المكاسب الكبيرة التى تجنيها روسيا الآن وفى المستقبل من خلال «المصالحة الكبرى»، فالمصالحة فقط هى الضامنة لإعادة بناء الدولة الروسية وتحقيق طفرة اقتصادية كالتى حققتها الجارة الشيوعية سابقًا: الصين.

لا يشوش من هذه الاستنتاجات سوى بعض المتغيرات السياسية التى قد تخل بسيناريو «الاستقرار» الحالى، وأهمها:

١- بقاء كثير من مناطق النزاع المجمدة دون حل، وبوسع هذه المناطق الساكنة مؤقتًا أن تشتعل فى أى لحظة وقد تنزلق روسيا إلى الخوض فيها وبصفة خاصة فى كل من جورجيا (مقاطعتا أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية) وأرمينيا (مرتفعات كارباخ) وفى دول آسيا الوسطى (عودة الحركات الجهادية) وفى شرق أوربا (إقليم الترانسدنيستر).

٢- حدوث انقلاب فى البناء السلطوى فى الدولة الروسية وبصفة خاصة مع انتهاء فترة الرئيس الروسى فلاديمير بوتين فى عام ٢٠٠٨ والتى قد تشهد تمديدًا له بتعديل الدستور أو دفعًا لأحد من أنصاره. وحتى لو لم يحدث أى من هذين الخيارين فيبدو من الصعب تصور عودة التوجهات الليبرالية غير المنضبطة التى شهدتها روسيا فى عهد بوريس يلتسين بعد أن نجح نموذج فلاديمير بوتين فى اكتساب شعبية واسعة باستهداف كبار الرأسماليين ورجال المال والسيطرة على الإعلام وصياغة نموذج جديد للحكم فى روسيا قائم على ثلاثية «الاستبداد والوطنية والبراغماتية».

٣- انهيار فى الاقتصاد الروسى نتيجة انخفاض حاد فى أسعار النفط نتيجة حل المشكلات الساخنة فى الشرق الأوسط (كالوصول إلى تسوية للملف النووى الإيرانى، ودمج الحركات الجهادية فى فلسطين فى برنامج سياسى، وتقاسم الكعكة السياسية فى العراق بعد الحرب الأهلية). وبوسع هذا الانهيار أن يؤدى إلى إرباك التوازن السياسى والنيل من العلاقات الندية الصحية التى تكتسبها روسيا الآن مع الدول الكبرى ويعيدها مرة أخرى إلى الإفلاس والاستدانة. وأسوأ ما فى الأوضاع الاقتصادية المتوترة هو توتيرها للحكومة المركزية ودفعها إلى اتخاذ قرارات انفعالية وربما استفزازية دوليًا وإقليميًا.

٤- وقوع كوارث تقنية وبصفة خاصة فى قطاع الطاقة النووية والأسلحة الاستراتيجية التى تعوزها الصيانة والتأهيل، ولعل ما وقع من كوارث خلال السنوات الماضية للغواصات النووية

ونشوب الحرائق المتعددة فى المنشآت المدنية والعسكرية يدعم من التحذيرات الغربية التى تنوه بأن هناك مخاطر عظمى من وقوع تلك الترسانة النووية الهائلة فى يد جيش يفتقر إلى التطوير.

٥- صعود الحركات القومية المتدينة Religious Nationalism إلى التمثيل السياسى بما ينذر بوقوع اشتباكات (لا نقول حربًا) عرقية فى روسيا ، تلك الدولة المؤلفة من نحو مائة قومية. ومن المؤشرات التى قد تسهم فى هذا الصعود استمرار انخفاض أعداد السكان السلافيين أمام تزايد أعداد الجنوبيين أو من يعرفون لدى القوميين المتطرفين باسم «السود Cheorny» فى القوقاز وآسيا الوسطى (وأغلبهم مسلمون) ومع تزايد تيارات الهجرة الصفراء (الصينية) على الشرق الروسى. وقد أثبتت التنظيمات الفاشية فى روسيا خلال السنوات العشر الماضية (والمعروفة بتنظيمات «حليقى الرءوس») حضورًا قويًّا واستهدفت بالقتل عشرات الأجانب (قوقازيون وأفارقة وعرب) تحت شعار «روسيا فقط للروس» و «عودوا إلى دياركم» و«سنذبحكم أيها الخنازير».

هذه المتغيرات الخمسة قد تعدل بشكل أو بآخر من الثوابت النسبية التى سقناها سلفًا لكنها لن تستبدلها أو تحل محلها.

هذه كانت الرؤية المستقبلية للمركز (روسيا)، فماذا عن الأطراف؟

هناك أربع قوى رئيسية يبدو أنها سترسم المستقبل المنظور كما استمرت تعين حدود الحركة فى الخمس عشرة سنة الماضية، وهى:

١- توارث النظم الاستبدادية (الشيوعية سابقًا) لطبيعة الحكم فى عديد من دول الاتحاد السوفيتى السابق مع تغيير الشعارات لتتناسب مع طبيعة المرحلة الجديدة، واستمرار التأثير العشائرى والعائلى على الحكم السياسى فى هذه الدول التى تبدو فى عزلة «ممتعة» عن الملاحقة الدولية لما يجرى داخل حدودها (لم يلتفت إليها العالم فعليًّا إلا بسبب الحرب على طالبان)، ولا يبدو أن فى دول آسيا الوسطى الخمس (باستثناء قرغيزيا) ما يبشر بحدوث تغير نحو الإصلاح والديموقراطية.

٢- يبدو أن حالة «استمراء» التجمد فى العلاقات بين أذربيجان وأرمينيا ستستمر فى المستقبل المنظور فى ظل رغبة أذربيجان فى الاستفادة من الاكتشافات النفطية الهائلة المستخرجة من أراضيها وإكمال مشروع باكو-جيهان لتصدير نفطها عبر الأراضى التركية. ويعنى هذا أن أية محاولات مستقبلية لاسترجاع أراضى كراباخ التى احتلتها أرمينيا ستؤدى إلى اشتعال حرب جديدة ستؤثر على تدفق بلايين الدولارات إلى السوق الأذربيجانى. وقد دفعت هذه المعطيات حكومة كراباخ الاستقلالية إلى إعلان «دستورها» فى ديسمبر ٢٠٠٦ كخطوة على طريق إعلان الاستقلال النهائى.

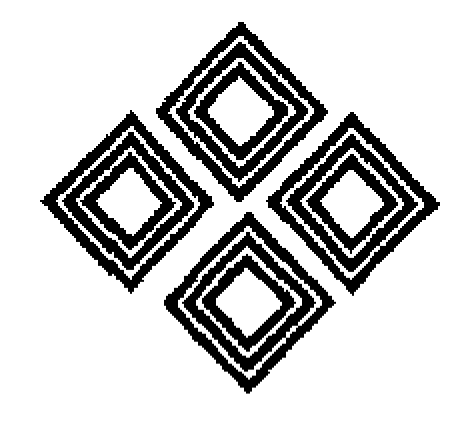
٣- لن تستقر الأمور فى جورجيا مادامت أراضيها مفتتة بين الأراضى الجورجية الأساسية والمقاطعات الانفصالية فى أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية (تم بالفعل فى عام ٢٠٠٤ إعادة السيطرة النسبية على الإقليم «المارق» الثالث فى أدجاريا) ومادامت روسيا قد تلكأت فى إخراج قواتها المسلحة من القواعد العسكرية

فى جنوب جورجيا فلن تنعم هذه الدولة باستقلال حقيقى. ومادامت روسيا تغذى الرغبات الانفصالية فى أبخازيا (فى غير مرة ترفض روسيا «متمنعة» رغبة أبخازيا فى الانضمام إلى الاتحاد الفيدرالى الروسى، وإن لم يمنعها ذلك من منح نسبة كبيرة من الأبخاز الجنسية الروسية).

٤- ينتظر أن تتسع الخطى التى قطعتها دول البلطيق على طريق المقرطة والرفاهية، ويبدو البون اليوم شاسعًا بينها وبين باقى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق. ليس فقط للترحيب السخى الذى قدمه حزب الناتو والاتحاد الأوربى، بل للصحوة القومية الواعية التى بدأت فيها قبل سنوات طويلة من انهيار الشيوعية. ولا يمنع هذا من شعور بعض قيادات هذه الدول بأشباح من «الروسوفوبيا» المستمدة من هواجس الماضى القيصرى والسوفيتى، لكنها مخاوف صحية تزيد خطواتها قربًا من الغرب وتزيدها مرونة للتفاهم مع روسيا على أسس جديدة، اقتصادية هذه المرة.

٥- ستبقى أوكرانيا - بحكم انشطار هويتها بين روسيا وأوربا- الدولة الأكثر ترددًا فى منهجها السياسى رغم ما حققته من ثورة ليبرالية (الثورة البرتقالية) والتى وإن دغدغت المشاعر وجذبت تشجيع الغرب إلا أنها تعثرت سريعًا وأصابتها آفات الفساد والتناحر السياسى. ويمكننا أن نعتبر أوكرانيا (وتناظرها فى هذا الصدد جورجيا) دولة عازلة ومناطق تكسر للنفوذ الغربى والروسى. والدولة الأقرب للانضمام إلى هذه الفئة من التصنيف هى بيلاروسيا.

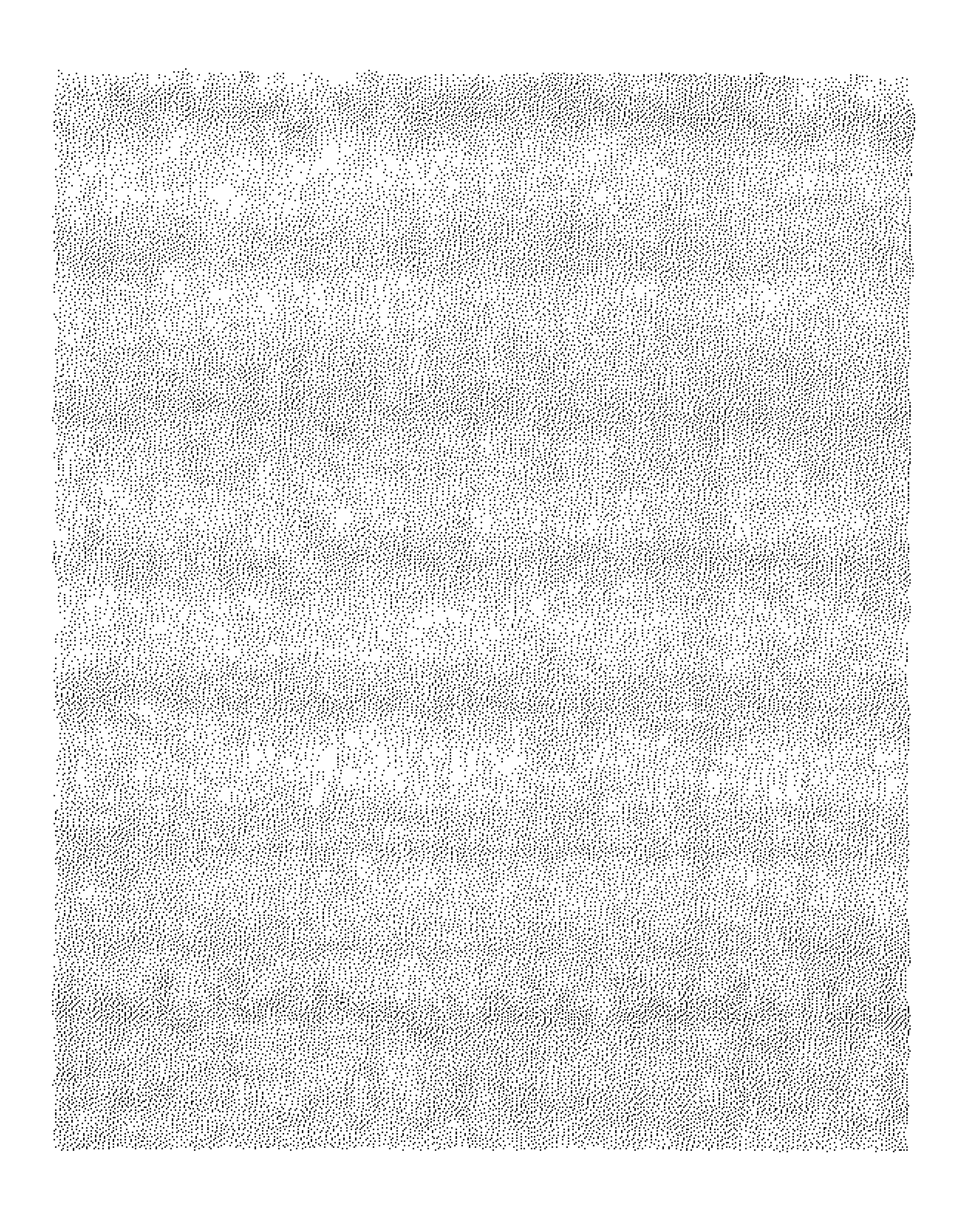
ويجب ألا تدس التوقعات السابقة فى نفوسنا شعورًا بـ «الحتمية» أو «انتهاء الأفكار والممارسات». فهذا الفضاء الجغرافى ما زال يعج بالكثير من الإرهاصات والحراك السياسي. وسيبقى فى المستقبل المنظور قابلاً لتفسيرات متباينة ومحتملاً لرؤى مختلفة المقاصد. وأغلب الظن أنه سيستمر يشغلنا بتداعيات سقوطه الذى يبدو وكأنه قد حدث للتو أو مر عليه يوم أو بعض يوم.



الفهرس

الفصل الرابع : مخاض ما بعد الاستقلال فى أوربا الشرقية

الفصل الخامس: عند تقاطع الطرق




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

ما بعد الشيوعية

الدين و الثروة و القومية فى زمن التحولات

فى رثاء الإمبراطورية السوفيتية قالوا إن لينين اخترعها، وأرسى قواعدها، وشدَّ من عضدها ستالين، وضرب أول معول فى هدمها خوروتشوف، وأصابها بالجمود المميت بريجينيف، وهدَّم أركانها غورباتشوف، وأطلق عليها رصاصة الخلاص يلتسين.

لكن ماذا فعلت روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى؟ فى أى طريق سارت؟ وهل كان العبور فى مخاض المرحلة الانتقالية آمنًا؟ هل سلَّمت روسيا بالأمر الواقع وتخلت عن الحنين إلى الإمبراطورية ومهابة الدولة العظمى؟

وماذا عن مصير الجمهوريات المنفرطة عن العقد السوفيتى؟ كيف عصفت بها الحروب والتناحرات؟ وكيف شقت لنفسها طريقًا بين تهديدات الثورة الداخلية ومخططات الغزو الخارجى؟ ... سبيل يجمع حبات العقد؟ وهل أفسح الفكر الشيوعى الطريق ... التبشير بالنموذج الرأسمالى والنفوذ الأورأمريكى؟

بقراءة متأنية للتحولات التى مرت خلال العقدين الما... وباقتراب المؤلف من الأحداث كشاهد عيان من الداخل ... يأتى الكتاب الذى بين أيدينا ليتلمس الإجابة عن تلك ...


6 221133 330800

